ABDEL KHALIQ AL-RIKABI

رواية

عبد الخالق الركابي

ما لم تمسسه النار

ما لم تمسسه النار

رواية

عبد الخالق الركابي

ملاحظة

ترد أسماءُ الشخصياتِ والأعلامِ، في هذه الروايةِ، بصيغةِ الرفعِ بمعزلٍ عن حركاتِ الإعرابِ الأخرى.

(ليستْ حكمةُ العصورِ وحدَها هي ما يسري فينا؛ بل إنّ جنونَ هذه العصورِ ليسري فينا بالمثلِ. ما أخطرَ أنْ تكونَ وريثاً).

نيتشه

(١)

كان العثور على الدفتر – الدفتر المشؤوم كما كان يسمّيه نديم – إيذاناً بالشروع في كتابة هذه الرواية. إنه دفتر قديم، متّسخ وملوّث بالرماد، يبدو وكأن النار شبّتْ في أطرافه؛ فلوثتْ أوراقه وجعّدتها بعدما أجهزتْ على العديد منها قبل أن تتراجع وتخمد تاركة للآخرين فرصة نادرة للاطلاع على صفحات تناوب اثنان الكتابة فيها: نديم إسكندر بيك وأنا من بعده ليعود نديم فيختم ما بدأ كأني به أبى إلا أن يبرهن على أن له وحده فصل الخطاب!

تُرى كيف حدث ذلك؟ ولماذا تحوّل هذا الدفتر عندي إلى ما يشبه تميمة تشدّني إلى ماضٍ ما إنفكّ يؤرّق عليّ حاضري مثل داء مزمن لا أكاد أغفل عنه حتى يذكّرني بوجوده بما يثير لديّ من آلام؟ أيعود ذلك لعثوري عليه بعدما كنت قد أيقنتُ أنه اختفى إلى الأبد؟ أم لأن مصير صاحبه المأساوي أحيا لديّ ما استجدّ من أحداث رهيبة - وأبرزها اندلاع حرب جديدة بعد مرور عامين فقط على انتهاء حرب امتدّت على مدى ثماني سنوات قاتلة - أكّدتْ أهميته على غير توقع؟

أسئلة تمهّد لي السبيل لتقليب الصفحات معيدة إيّاي، في الوقت نفسه، إلى تلك الفترة العصيبة التي تحوّلت الحياة فيها في بغداد – بفعل قصف الطيران الأمريكي اليومي - إلى ضرب من جحيم كنت أتوقع معه أن ينهار البيت على رأسي في أية لحظة. وكان ثمة كابوس وحيد ينغّص عليّ نومي في أغلب الليالي: كنتُ أراني فيه وسط أفراد أسرتي الصغيرة - زوجتي وبناتي الثلاث - ونحن في قمة السعادة؛ نتجول مثلاً في أحد المتنزهات، وفجأة نجفل على هزة أرضية تختفي الشمس على أثرها ويتحول كل ما حولنا، من أشجار ومبانٍ وشوارع، إلى هلام ينحلّ ويذوب، فأدرك أن نهاية الكون قد دنت؛ فأرمق بعينين مخضلّتين بالدموع أفراد أسرتي وهم يتلاشون من حولي تباعاً!

وهكذا لم أجد مفرّاً من أن أهرب بأسرتي إلى المدينة التي ولدتُ فيها: مدينة بدرة القريبة من الحدود الإيرانية حيث بتّ أصحو، فجر كل يوم، على صدح البلابل وهديل الحمام لا على دوي الطائرت المغيرة. وكانت قد مرّتْ أسابيع على لجوئنا حينما تنبهتُ، عصر ذات يوم، إلى باب البيت يُطرق؛ ففتحته متوجساً، فإذا بي أفاجأ بأن الطارق لم يكن غير غريب.

أدركتُ من فوري أنني مدعوّ إلى بيت سيدته بتول؛ إذ ما من أمر يدعوه إلى قطع هذه المسافة وفي مثل هذا الجو العاصف الممطر، وقد آذنت الشمس بالغروب، غير ذلك.

وكما توقعتُ سرعان ما صدق حدسي: فوسط انشغاله بمسح وجهه المشوّه، الذي انحرفتْ تقاطيعه عن مواضعها المعهودة بشكل كارثي، أخذ يرسل من فمه – على طريقة الخُرْس - سلسلة تمتمات مبهمة مشفوعة بحركات يديه قبل أن يفلح في ترجمة المهمة المنوطة به.

- حاضر.. سأكون عندها غداً صباحاً بعد السابعة...

خاطبته وأنا أهزّ رأسي مشيراً إلى ساعتي وقد أفردتُ سبعة أصابع. واسترسلتُ مسوّغاً إرجاء الأمر إلى انهمار المطر فضلاً عن قرب حلول الليل.

هل جاءتْ استجابتي السريعة انسجاماً مع طبيعتي التي لازمتني منذ صباي بالحرص على ألا أردّ لبتول طلباً؟ أم وفاءً لتلك اليد الدافئة - يد بتول نفسها - التي تسللتْ، ذات ليل بعيد، في غفلة من النائمين لتوقظ في جسد الصبي الذي كنته نوازع رجولة مبكّرة؟

لا أعلم؛ فالأمران باتا واحداً، لا فكاك لي منهما حتى آخر لحظة من حياتي كما يبدو.

استيقظتُ صباح اليوم التالي مبكراً. وعمدت إلى ارتداء ملابس ثقيلة؛ فبرد شباط كان قد اشتدّ عقب توقف المطر عن الهطول. وغادرتُ البيت دون أن أخبر أي فرد من أسرتي النائمين بوجهتي؛ فقد كنت موقناً أنه لا أحد منهم سينتبه لغيابي، وأنهم سيظلون يواصلون نومهم حتى عودتي؛ فمنذ هربنا من بغداد فقدتِ الحياة ايقاعها المألوف، وباتت دون معنى في انتظار أن يعمّ سلام مستحيل.

كانت الأزقة الضيقة الموحلة تضجّ بمئات النازحين: رجال وأطفال ونساء متلفعات بالعباءات. حشد صاخب استجار، في حمّى "عاصفة الصحراء"، بهذه المدينة الحدودية المنسيّة؛ فسكنوا بيوتاً شبه مهدّمة، أو نصبوا خياماً وسقائف مرتجلة في مواضع بيوت الآباء والأجداد: فالمدينة التي كادت تفرغ من قاطنيها على امتداد سنوات الحرب الثماني مع إيران ها هي تصحو - مثل صحوة المحتضر - على صخب العائدين على أثر نشوب حرب جديدة!

لم أجد صعوبة في العثور على صديق قديم تبرّع بإيصالي إلى "بدرة الجديدة" الممتدة في الجانب الشمالي لوادي الكلال. قال ضاحكاً وهو يحاول تشغيل سيارته:

- اطمئن؛ فأنا لم أتبرع بإيصالك حباً بسواد عينيك، بل لأنه لا مفرّ لي من تشغيل السيارة من حين إلى آخر حرصاً على البطّارية.

واستطرد في كلام على هذه الشاكلة - مطعّم بضحكاته - وهو يقود سيارته ببطء وسط الحشود، في حين انهمكتُ أنا في محاولة يائسة لرفع زجاجة النافذة التي كانت تأبى الانطباق.

- لا تتعب نفسك؛ فالعتلة التي ترفع الزجاجة عاطلة.

علّق ليكمل عقب ضحكة متهكمة:

- ... مثل كل شيء في هذا البلد!

واستطرد مطمئناً:

- وعلى كل حال سأوصلك قبل إصابتك بنزلة برد؛ فرحلتنا لن تستغرق أكثر من دقائق.

وكانت الأزقة قد أفضتْ بنا إلى سوق المدينة التي ضجّت بدورها بلغط المتبضّعين من الحوانيت والبسطات المرتجلة ومحلات البقالة. واستدار الصديق بسيّارته يميناً نحو الجسر المؤدي إلى "بدرة الجديدة"؛ فعبق الهواء برائحة الطمي النفّاذة، هذه الرائحة المقترنة بقدوم

السيول التي تنحدر عادة، عقب هطول الأمطار، من جهة الشرق حيث الجبال الإيرانية تؤطر الأفق.

إلى يميني كان وادي الكلال، العريض الطافح بالمياه المعتكرة، يمتد، وسط خضرة بساتين النخيل المتشابكة على الضفتين، على مدى البصر لينتهي بالجبال الزرق التي مسّتها شمس الصباح بأشعّتها البرتقالية هنا وهناك. وكانت بقايا بيوت بدرة القديمة، التي خلّفناها وراءنا، تعلو الضفة الجنوبية المرتفعة حيث السيل المزبد ماضٍ في أداء مهمته الأزلية بجرف مساحات جديدة من ضفة تعلوها جدران بيوت مهجورة سرعان ما تستسلم فتنهار تباعاً بصوت مكتوم لتبتلعها المياه في انحدارها الأبدي غرباً.

غادرتُ السيارة عند مدخل الزقاق المنشود مودِعاً صاحبها بكلمات شكر أجابني عنها بإحدى ضحكاته، وفتح غريب الباب، فتقدّمني إلى الداخل مسترسلاً في تمتماته المعهودة والمشفوعة بإشارات لم أفقه مغزاها يوماً ما. وبدتِ الحديقة الموحلة كعهدي بها: تمتد، إلى جانبي ممر إسمنتي، بأرضها السبخة التي توزعت فيها بضع شجيرات خروع نمت من تلقاء نفسها، فضلاً عن نخلة مهملة وسط فسائلها التي أحاطتْ بجذعها القميء.

كانت بتول في انتظاري في غرفة الاستقبال القائمة إلى اليمين. صافحتني بتحفّظ لتقبّلني في فمي عقب انصراف غريب. وأومأتْ إلى إحدى الأرائك لتعمد بعدها إلى فتح ستائر النوافذ المشرفة على الحديقة وهي تقول:

- أظن أن نديم هرب..

وأعادتني كلمة (هرب) إلى ما سبق لي أن دوّنته في الدفتر من ذكريات نديم ومغامرته الكبرى بالهرب إلى إيران بعدما كاد يودي بأبيه.

لعله يحاول بهربه هذه المرة، وهو على أعتاب الستين من العمر، التخلّص من ماضيه الملتبس دفعة واحدة!

تتبعتُ بتول بعينيّ، وهي تتجول في أنحاء الغرفة الواسعة مضفية لمسات سريعة على ما حولها من طاولات تعلوها مزهريات وأقداح ومنافض، ملاحظاً جسدها الرافل بثوب فضفاض وقد ازداد امتلاء عن آخر مرة رأيتها فيها.

- أو لعله قُتل شأن عشرات النزلاء الذين ذهبوا ضحايا القصف والدهس عقب خروجهم من المستشفى.

أردفتْ وقد جلستْ على أريكة في مواجهتي، فتأمّلتها صامتاً وقد انهمكتْ باستلال سيجارة من العلبة المهملة على الطاولة المحاذية لأريكتها لتنصرف إلى إيقادها. بدا وجهها - عيناها الواسعتان، فمها الشهواني المكتنز، أنفها الكبير بعض الشيء - على جماله الغابر برغم خلوّه من أية زينة.

- يُشاع أنه لم يعد في وسع إدارة المستشفى السيطرة على النزلاء بعدما انعدمت الخدمات واستحالت الحياة في ردهاته الست؛ فسمحتْ لمن يرغب منهم بمغادرته.

تابعتْ وهي تنفث دخان سيجارتها من فمها ومنخريها بمهارة مدخّن عريق، فسألتها إنْ كانت واثقة من صحة معلوماتها؟ فأكّدتْ أنها استقتها من أحد معارفها القادمين مؤخراً من بغداد. واستطردت وهي تتخلص من سيجارتها بسحقها في المنفضة:

- ثم إن أكثر من إذاعة تحدّثتْ عن منظر المجانين وهم يتجولون، بدشاديشهم المقلّمة، على غير هدى في شوارع بغداد.

وغصّتْ بكلامها؛ فصمتتْ لحظات قبل أن تعلّق بمرارة وقد انخرطتْ في نوبة بكاء مفاجئة:

- ليته قُتل .. ليته مات واختفى من وجه الأرض فأراح وارتاح.

تأمّلتها بصمت متذكّراً سنوات معاناتها التي قضتها مع نديم في عذاب دائم؛ فقد تزوجته على الرغم منها بعد مرور أعوام طويلة على خروجه من المستشفى. آنذاك كانت أم نديم، المعروفة بلقب العلوية، تتحكم في البيت بقبضة حديدية؛ فلم يتخطَ دور بتول دور الخادم: مهمتها الرئيسية تتمثّل برعاية نديم الذي عُرف منذ تلك الفترة بانزوائه؛ تمرّ عليه أحياناً أيام دون أن يغادر غرفته حيث ينصرف إلى نحت تماثيله العجيبة، وإن غادرها قبع صامتاً ساعات في مكتبته أو على إحدى أرائك هذه الغرفة مكتفياً بتأمّل بندول الساعة الجدارية في تأرجحه يميناً وشمالاً!

خاطبتها، وقد ذكّرني كلامها بأمر كان قد غاب عن ذهني:

- أتدرين؟ لقد بدا نديم، في لقائنا الأخير في الشماعية، متوجساً من حصول أمر غامض أبعد أثراً من الحرب التي كانت على وشك الاندلاع.

- ما الذي كان يعنيه بذلك؟

- لا أعلم.. كان بالغ التوتر: يكرر أن الحرب القادمة ما هي إلا مقدمة لأمر بالغ الخطورة يُعدّ له في الخفاء على قدم وساق.

- هكذا كان شأنه منذ تزوجته: يتوجّس دائماً من حصول أمر مروّع!

وعادت تكرر حاجتها الملحّة إلى معرفة ما انتهى إليه، ولماذا لم يعد إلى بيته بعدما خلا المستشفى من نزلائه؟

- بتول... ما المطلوب منّي؟

سألتها لأضيف بإخلاص:

- تعلمين جيداً مبلغ حرصي على أن أجنّبك كل ما يكدّرك.

- أعلمُ؛ لذلك كنتَ الوحيد الذي لجأتُ إليه برغم كثرة معارفي.

واسترسلتْ بعد لحظات:

- كل ما أتمناه هو التأكّد من صحة تلك الأخبار؛ فقد تكون محض شائعات لا أساس لها من الصحة مثل أمور كثيرة يتداولها الناس في مثل هذا الوقت العصيب قبل أن يتبين كذبها.

وانصرفتْ إلى مسح عينيها بمنديلها تاركة إياي أفكر بحيرة بهذا الطلب المفاجئ بالسفر إلى بغداد. تُرى كيف أسوّغ لزوجتي الأمر وسط هذه الحرب الضارية؟ أأستطيع إقناعها بحجة تفقّد بيتنا بعد مرور أسابيع على مغادرتنا إياه؟ أم السعي لسحب آخر مدخراتنا من المصرف بعدما أوشكتْ نقودنا على النفاد؟

قالت بتول في محاولة منها لحثّي على السفر:

- أنا أدرك طبعاً أن بغداد مستهدفة بالقصف أكثر من المدن الأخرى..

وأضافتْ مهوّنة من الأمر:

- بيد أن البلاد كلها مشمولة ببركات الأمريكان، لا فرق لديهم بين بدرة وبغداد إلا بخلو مدينتنا من أهداف حيوية يتطلب تدميرها التضحية ببضعة صواريخ ثمينة!

وخيّم علينا صمت ترددتْ خلاله دقات الساعة الجدارية معلنة الوقت. وكان الأخرس قد دخل محمّلاً بصينية الشاي، حتى إذا ما انصرف قالت بتول:

- سأكون أسيرة فضلك لو حسمتَ أمرك فقررتَ القيام بهذه السفرة إكراماً لي لا لنديم؛ فهو لا يعادل لديّ قلامة ظفر من أظفارك، ولن يهمني أمره لولا كونه زوجي على الرغم من أنفي، ولولا...

وسكتت لحظات قبل أن تستجمع عزمها فتتابع:

- .. هناك أخته من امرأة أبيه ثريّا زوجة إسكندر بيك الأولى ..

قاطعتها متسائلاً:

- تعنين ألفت خاتون؟ يا إلهي!.. ألا تزال حية ترزق؟ ظننتها ماتت منذ أعوام!

- لا تزال حيّة برغم كبر سنها، وأمرها يهون قياساً بحشد أولادها المولعين بارتياد المحاكم – على شاكلة جدهم المرحوم إسكندر بيك – طمعاً بالاستحواذ على المزيد من البساتين والأراضي.

- وما شأنهم بكِ أنتِ؟

- كيف ذلك؟ ألا تعلم بأن لهم حصّة من إرث خالهم نديم في حالة موته بحكم أنه لم يخلّف مني؟

وتابعتْ وقد نهضت:

- كانوا يطمعون بجانب من أراضيه وبساتينه وهو حي يرزق بحجة جنونه، فكيف سيتصرفون الآن إن تأكدوا من موته؟!

وغادرتِ الغرفة قبل أن تسمع ردي لتعود بعد دقائق تسنّى لي خلالها احتساء شايي على معدة خاوية.

- لن أوافق على ذهابك إلا شريطة أن تسمح لي...

قالتها وهي تدسّ في كفي كيساً ورقياً صغيراً لم تكن بي حاجة إلى أن أخمّن ما الذي يحتويه. خاطبتها وقد أزعجني تصرفها:

- اطمئني؛ فأنا لستُ مفلساً إلى الدرجة التي تتصورينها!

- أنا أدرى الناس بمقدار غنى روحك، بيد أنه لن يضيرك أن تتقبّل مساعدتي المتواضعة بأي حال من الأحوال.

أجبتها، وأنا أضع الكيس على الطاولة، مؤكداً لها حرصي على القيام بهذه المهمة لو استطعتُ تذليل الظروف ليس إكراماً لها فحسب، بل سعياً مني للبحث عن (غريمي) الذي سلبني أعزّ إنسان على قلبي، فقاطعتني مبتسمة:

- يفترض بك إذن العمل على التخلّص منه، إنْ كان غريمك، لا البحث عنه!

- فاتَ أوان التخلص منه كما تعلمين يا غالية منذ اليوم الذي حُملتِ فيه إليه، وسط الزغاريد ودويّ العيارات النارية، عروساً مسلوبة الإرادة... أتذكرين؟

- وهل يسعني نسيان ذلك اليوم المشؤوم؟

تساءلتْ بأسى وقد احمرّ وجهها الجميل وهي تبذل محاولة جبارة لعدم الانخراط في البكاء مجدداً، حتى إذا ما سيطرت على نفسها استطردت قائلة:

- لم يكن الأمر بأيدينا لا أنا ولا أنت... لقد قرره الكبار؛ أعني بذلك المرحومتين: أمك والعلوية!

واسترسلتْ بمرارة:

- كانت زفة أقرب ما تكون إلى مأتم: فقد كنتُ الوحيدة التي قُسرتْ على الاقتران به بعدما رفضته العشرات؛ فما من بلهاء سواي – أنا المفجوعة بأبي الذي لم يكن قد مرّ على وفاته سوى شهور - كانت ستوافق على الاقتران برجلٍ يكبرها بعدة أعوام فضلاً عن وصمة الجنون التي لازمته منذ إيداعه الشماعية!!

وأضافت وقد وقعتْ أسيرة ذكرياتها:

- كان امتيازه الوحيد تمثّل بثروة طائلة وعشرات البساتين وأم كانت تقارع الرجل على سن ورمح!

واستدركتْ بلهجة اعتذار:

- رحم الله العلوية؛ فقد كانت، برغم قسوتها عليّ، امرأة نادرة يهابها الرجال قبل النساء.

وأخذت تتأمّلني ساهمة لحظات قبل أن تقول:

- أنا أدرك دقة وضعك ولا سيما في هذه الفترة؛ إذ نحن مقبلون على أيام عصيبة منذ إعلان الحصار بسبب احتلال الكويت وفرض هذه الحرب الحقيرة التي لا مخرج لنا منها كما أظن.. أدرك هذه الأمور، كما أدرك ضآلة راتبك - راتب محرر في مجلة قد لا يسعف أسرتك إلا أياماً معدودة - لذلك رغبت في مساعدتك بمبلغ صغير لا أكثر.

شكرتها وأنا أنهض، مؤكداً لها أنني سألجأ إليها بالتأكيد متى ما مررتُ بضائقة مالية. وغادرتها مفكراً بالمعضلة التي ستكون في انتظاري في البيت؛ كيف لي أن أفلح في إقناع زوجتي بالسماح لي بالقيام بهذه الرحلة غير المتوقعة في مثل هذه الظروف العصيبة؟

لكنني سرعان ما حسمتُ أمري؛ إذ لا مفر لي من القيام بهذه الرحلة سعياً مني لمعرفة مصير نديم المرتبط بمصير دفتره المشؤوم الذي سبق لي أن دوّنتُ فيه تلك الفصول العشرة القصيرة التي كان الأول منها يحمل عنوان (أين أنا؟).

(أين أنا؟)

لم يكن ألماً ذلك الذي أحسّ به ... لا لم يكن ألماً، بل كان سحقاً لكل وجوده. كان، وهو يرتجّ على الطاولة بكل جسده، يسمع صوتاً حيوانياً - أدهشه أنه صوته! - يملأ عليه سمعه أقرب ما يكون إلى عويل.

كان يصرخ لا بفمه وحده، بل بكل كيانه.

ما الذي يحصل؟ أين هو على وجه التحديد؟

لم يحس، في اللحظة الأولى وقبل أن يسود الظلام، إلا ورأسه يشتعل بغتة كمن ضربته صاعقة تقلّصتْ بسببها عضلاته كلها وكأن جسده تهدّم إلى الداخل لتأخذه بعدها تشنّجات مخيفة جعلتْ جسده يتقوّس كأنه في سبيله إلى أن يثب عالياً لولا الملازم المربوطة إلى رسغيه وكاحليه والتي شدّته بإحكام إلى الطاولة.

حينما صحا أحس بأيدٍ ترفعه عن الطاولة لتمدده على نقّالة انطلقتْ به على وقع صرير عجلاتها المعدني لتدخل، بعد لحظات، إلى غرفة أخرى حيث الأيدي نفسها رفعته عنها لتضعه في سرير هذه المرة. وطوال تلك الرحلة القصيرة بين الغرفة والسرير كان يلمح وسط الفوضى المحيطة به امرأة رافلة بملابس سود تهرول إلى جانبه مكلّمة إيّاه بصوت هامس يقطر رقة وحناناً وهي تتطلع إليه بعينين تترقرق فيهما الدموع.

ترى من تكون هذه المرأة؟

سؤال خطر في ذهنه المشوّش قبل أن يستغرق في نوم طويل لم يصحُ منه إلا والليل قد خيّم؛ إذ إن مصابيح الغرفة كانت مضاءة.

- عليك أن تتناول شيئاً من هذا الحساء؛ ذلك لأنك لم تتبلّغ بلقمة واحدة طوال هذا اليوم.

كلّمه شخص بصدرية بيضاء وقد جلس على كرسي بمحاذاة السرير حاملاً بإحدى يديه صحناً وبالأخرى ملعقة.

- سأقحم هذه الملعقة في فمك عنوة إن لم تفتحه .. أتسمع؟

ولم يستطع أن يخبره بعجزه عن الانصياع له، بل عجزه عن تحريك أي جزء من جسمه، إنما استسلم له وهو يدسّ الملعقة في فمه تاركاً إياها تقرقع في اصطدامها بأسنانه قبل أن تُفرغ ما احتوت من مادة صمغية كريهة كادت تكون دون ملح.

- كلْ.. كلْ.. عليك أن تأكل شئت أم أبيت؛ فأنا لن أتحمّل دلالك مثل أمك العلوية التي ستأتيك مع شروق شمس الغد لتظل تحوم حولك على مدى ساعات النهار.

إذن المرأة الرافلة بملابسها السود كانت أمه ... الآن تذكر ... نعم كانت أمه.. أمه التي ألفت أن تلازمه في محنه ملازمة ظله إياه.

ولكنْ ما هي هذه المحنة التي يجد نفسه فيها؟

أيحتضر؟

أيكون موشكاً على الموت دون أن يدري؟

أم أن الأمر لا يتخطى حصول حادث مفاجئ داهمه على غير توقع؟

ولم يدرِ أنام ثانية أم أغمي عليه. ما يتذكّره بشيء من وضوح هو لمسة يد حانية لجبينه وصوت ألفه منذ طفولته وهو يردد اسمه:

- نديم.. حبيبي نديم استيقظ.. عليك أن تستبدل منامتك قبل حملك إلى هناك.. أتسمع؟ لقد حلّ الصباح .

يا إلهي!... كم سعد بسماع هذا الصوت!

لا يزال حياً إذن!

يا لسعادته!.. لا يزال حياً.. نعم.. لا يزال حياً!

وفتح عينيه ليرى أمه واقفة جنب سريره.

أيعقل أنه نام الليل كله دون أن يشعر بذلك؟

حاول النهوض استجابة لرجائها، لكن جسده خذله. وأحسّ بآلام لا تطاق في عضلاته، بل خيّل إليه احتمال وجود خلع في مفاصله.

وعاودته مخاوفه مجدداً.

وحاول أن يتذكر الحادث الذي تعرّض له.. ولكنْ دون جدوى.

وكانت أمه منصرفة إلى تذكيره بضرورة التهيؤ للجلسة بارتداء ملابس نظيفة خالية من أي شيء معدني.

أية جلسة تعني؟

وسمعها تضيف قائلة:

- لقد قرر الأطباء تكثيف الجلسات الكهربائية وجعلها يومية لأجل أن تتجاوز حالة الشلل التخشّبي التي أصابتك.

ورمقها بنظرة متوسلة لتوضح له ما الذي تعنيه بكلامها الغريب.. وعن أي شلل تخشّبي تتحدث؟

- ألا تتذكر ما حصل لك لحظة شروعك في ... جريمتك؟

يا للهول!

ما معنى هذا الكلام؟ وعن أية جريمة تحدثه أمه؟!

وبات موقناً أنه يحلم... يعيش أحد كوابيسه التي لا خلاص له منها تماماً مثلما كان يحصل له في طفولته حينما كان يصاب بالحمى فيهذي بكلام غير مفهوم وهو يرى صوراً تتلاحق في يقظته ومنامه.. صور تتكرر دون توقّف.

تمنى لو كان في وسعه الصراخ بأعلى صوته:

- أية جريمة تعنينها يا أمي؟

وكانت أمه قد مضتْ تهوّن عليه الأمر مؤكدة أن الجلسة لن تستغرق سوى لحظات... لحظات لا أكثر!

أيعقل ذلك؟ أيعقل أن كل ذلك العذاب لم يستغرق سوى لحظات وهو الذي حسبه بطول دهر؟!

ومضت أمه تخفف عنه راجية إياه ألا يفزع ما داموا سيحقنونه في وريده بما يخفف من آلامه؛ فتذكّر مرتعباً ما سيعقب ذلك منذ لحظة انتزاع حذائيه وساعته اليدوية إلى شدّ رسغيه وكاحليه إلى الطاولة وإقحام ذلك الأنبوب المطاطي في فمه حيث وجيب قلبه يتصاعد حينما يدهنون صدغيه بذلك المرهم ذي الرائحة المقرفة ومعها تبدأ الآلة هديرها لتقرّب، بذراعيها الآليتين، ما يشبه مكواتين ما تكادان تمسانه عند صدغيه حتى يتشظى وجوده!!

بذل مجهوداً هائلاً قبل أن يفلح في سؤالها:

- أين أنا؟

- مستشفى الرشاد.

أجابته لتستدرك بعدها بصوت خفيض:

- أعني الشماعية.

ورمقها بنظرة غير مصدّقة أعقبها بسؤال لخّص به فزعه:

- لماذا؟

- لماذا؟ يبدو أنك نسيت كل شيء!

علّقتْ وقد انهمكتْ في مساعدته في استبدال منامته، حتى إذا ما انتهتْ عادت تسأله مؤنبة هذه المرة:

- أيعقل أنك لا تتذكر هاجر؟!

وتابعتْ محاولة طمأنته:

- لا تقلق؛ لن يُحكم عليك، بسبب وضعك النفسي، كما أخبرني المحامون الذين أوكلتهم للدفاع عنك، وسيشهد في صالحك الدكتور قسطنطين وفرّاشه هوبه.. بل سيشهد لك آخرون. يكفيك

تسويغ ما حصل بكونك مررتَ مصادفة قرب مخاضة المياه حينما لمحتَ المرأة موشكة على الغرق؛ فسارعتَ بالتخلّص من ثوبكَ محاولاً إنقاذها لولا أن نوبة صرع فاجأتك حتى كادت تودي بك. ذلك هو مطلب هؤلاء المحامين الوحيد منك لكي ينتهي كل شيء بخير. اطمئن؛ لن أكون أمك إذا لم انتشلك من محنتك هذه، وستتكفل ثروتك الطائلة بذلك!

(٢)

كان دوري في كتابة تلك الفصول القصيرة في الدفتر لا يتخطى دور ناسخ يكتفي بتدوين ما يُسرد عليه دون أن يحقّ له تغيير مفردة واحدة، غير مدرك احتمال ضياع جهدي وما يترتب على ذلك من اجهاض عمل روائي سيكون مصيره مجهولاً.

وكان الشروع في ذلك العمل قد جاء بعد إصداري بضع روايات لم تشفِ لي غليلي؛ فبرغم أن تلك الروايات حظيتْ باهتمام أبرز نقّاد البلد؛ فكتبوا عنها دراسات على جانب كبير من الأهمية، لكنني توصّلتُ إلى قناعة راسخة مفادها ضرورة خوض (مغامرة) روائية جديدة بمعنى الكلمة.

- لماذا لا تكتب سيرتك الذاتية؟

سألني، ذات يوم، صديقي زاهد سلمان وسط انهماكنا بلعبة الطاولة في مقهى "حسن عجمي" المطلّ على شارع الرشيد وجامع "الحيدرخانه".

وأضاف وهو يخضّ حجري النرد في كفه بشكل مبالغ فيه قبل أن يرمي بهما بحركة احتفالية:

- ما من مرة جمعنا هذا المقهى أو نادي اتحاد الأدباء إلا وكررتَ شكواك من شعورك بعبث عملك الروائي... حسن.. غيّر طريقتك في الكتابة.. نعم؛ ما الذي يمنعك من كتابة سيرتك يا رجل؟

صدمني اقتراحه؛ فسألته بدوري عن جدوى عمل على هذه الشاكلة وأنا لم أبلغ بعد تلك السن المتقدّمة التي لا بد أن يبلغها كل من يفكر بكتابة سيرته؟ واسترسلتُ مذكّراً إياه بأن حياتي تكاد تخلو مما يهمّ غيري: فما من مغامرات خضتها، أو غراميات تذوّقتها، أو مشاريع أنجزتها خلا رواياتي تلك؛ فما جدوى كتابة السيرة إذن؟ فأجابني معترضاً:

- لعل خصوصية حياتك تتمثل بخلوها من تلك الأمور.

- إنها أول مرة أسمع فيها بالسلبيات وقد انقلبت إلى ايجابيات!

علّقتُ ضاحكاً. لكنه أصرّ على رأيه، بل طعّمه - بعد إطلاقه صرخة انتصار لأن رمية نرده جاءتْ في صالحه - بالاستشهاد برأي واحد من كبار الروائيين العالميين - أظنه ذكر همنغواي - عن ضرورة ألا يكتب الروائي إلا عما خبره وعرفه جيداً في حياته.

لم آخذ تلك النصيحة على محمل الجد؛ فالأعوام التي قضيتها في تدبيج رواياتي حددتْ مسار عملي الإبداعي بطريقة لم يعد يسعني الخروج عنها متى ما رغبتُ في ذلك. كنت ملزماً بمواصلة الكتابة بالطريقة التي ألفتها أو... التوقّف عنها!.. نعم.. لِمَ لا؟ فالكتابة ليست قدَراً يتحكّم بنا إلى الأبد؛ إنما هي رغبة شخصية تدفعنا إلى الإنتاج ما ظلّتْ تدفعنا إلى ذلك، حتى إذا ما انحسرت توقّف ذلك الإنتاج.

اقتنعتُ بهذه الفكرة، وبذلك خففت من ذلك القلق الذي كان يجعلني دائم الشكوى، فتركتُ للزمن مهمة شحذ همّتي من جديد لأعاود سيرتي القديمة في الكتابة. وانصرفت إلى متابعة حياتي على وتيرتها المعهودة التي لا تكاد تخرج عن ممارسة عملي الروتيني محرراً في واحدة من تلك المجلات الصادرة عن إحدى المنظمات الحكومية التي تتخذ من الثقافة وسيلة لمهام لا علاقة لها، في الغالب، بالثقافة.

كان ما يهمني آنذاك يتمثل بقراءة المزيد من الكتب.. كتب في الفلسفة والتراث والمسرح والشعر، مع تخصيص الجانب الأكبر للروايات.. الروايات المترجمة لكبرى النصوص العالمية، مع العودة إلى نماذج معدودة لازمتني منذ أول عهدي بالقراءة.

هل كنت بذلك أعمل على شحذ مقدرتي الروائية سعياً مني إلى مضاهاة تلك الروايات العظيمة؟

لا أعلم؛ فالقراءة تبدأ، بحسب ظني، في أول الأمر بريئة من أي غرض لتتحول فيما بعد إلى وسيلة لتحسين المقدرة على الكتابة لتنتهي بالنتيجة إلى شغف يلازم حياتنا حتى النهاية.

وسط تلك الهواجس جاءت نصيحة صديقي زاهد بضرورة استثمار حياتي في كتابة سيرتي الذاتية سعياً مني إلى تخطي ذلك الشعور المحبط بالتكرار والاجترار، وهي نصيحة لم تشغلني طويلاً، بيد أن الغريب في الأمر أنني لم أقف، هذه المرة، ساكناً في انتظار حصول تغيير ما في حياتي يضمن لي الكتابة بطريقة مغايرة مكتفياً بالقراءة ولعب الطاولة؛ بل وجدتني أفكر باقتراح زاهد بشكل جدي، ولكنْ ليس بكتابة سيرتي الذاتية، بل استثمار ذكرياتي عن مدينة بدرة التي سبقت استقراري بأسرتي في بغداد في كتابة روايتي القادمة.

وكان يُفترض بي، في هذه الحالة، استنهاض تلك الذكريات بالقيام بزيارة مدينتي تلك بعد مرور أعوام على آخر زيارة قمت بها إليها بسبب حرب السنوات الثماني مع إيران، وكان ما يعزز فكرة الإسراع بالقيام بهذه الزيارة احتمال نشوب حرب جديدة على أثر احتلال الكويت في الثاني من آب.

ويوم طلبتُ من زوجتي التهيؤ للتوجّه إلى هناك، لإزجاء بضعة أسابيع في ربوع مدينة الطفولة والصبا، رحّبتْ بالفكرة، ووجدتها فرصة مناسبة لتفقّد من صمد من أهلها وصديقاتها ومعارفها فلم يهجر تلك المدينة الحدودية التي كادت تفرغ من قاطنيها. وسعدتْ بناتي الثلاث، بطبيعة الحال، بهذا القرار: فها هي فرصة نادرة تتاح لهن لنسيان أجواء الحرب المقيتة التي هيمنت على بغداد على مدى سنوات مرعبة حيث صافرة الإنذار كانت تتحكم بطفولتهن حينما كانت تطلق، على غير توقّع، ذلك الدوي المتقطّع المنذر بقرب حصول غارة سرعان ما كانت تعلن عن نفسها بارتفاع دوي انفجار في أحد أحياء العاصمة ليخلدن بعدها إلى النوم على وقع صافرة الإنذار نفسها وهي تبشّرهن بانتهاء الغارة وأن في وسعهن التمتع بيوم آخر من حياتهن!

لقد سعدن كثيراً بتمضية بعض الوقت في بدرة، حالمات بمعاودة التجوال في تلك البساتين التي سبق لها أن سحرتهن بكل شيء ولا سيما أنها وفّرتْ لهنّ شتى صنوف الفاكهة وفي مقدمتها ثمار الرمان الناضجة المدلّاة من أغصانها.

هكذا شددنا الرحال إلى هناك حيث بات من دأبي القيام بجولات يومية في مقاهي المدينة القليلة، وحوانيتها البائسة، وبساتينها الضاجّة بأصوات أصناف الطيور، دون أن أنسى المرور بالقرى الموزّعة على أطرافها متفقّداً، في طريقي، بقايا المطاحن الحجرية التي لا تزال شاخصة على ضفة وادي الكلال.

وكان ما ينغّص عليّ جولاتي ذكرى الحرب التي كان قد مر عامان على انتهائها، فبقيت الجبال الشاخصة على امتداد الأفق الشرقي تذكّرني بها وبسيول الدماء التي ضمختِ الحدود الفاصلة بين البلدين، ومعها كنت أستعيد ذكريات أبعد حينما كان يسود الأمن والسلام فكان معلمونا يجتازون بنا، ونحن أطفال، تلك الحدود في سفرات مدرسية إلى مخافر "كاني سخت" أو "تك تك" أو "زالي آب". وكان آخرون يتوغلون أبعد، دون أن يعترضهم أحد، للتبرك بزيارة مقام "السيد حسن" القائم في مدينة مهران الإيرانية.

على تلك الوتيرة كنت أتابع جولاتي لأعود منها إلى بيت الأسرة القديم، الذي شهد طفولتي وصباي، وأنا أتضوّر جوعاً؛ فألتهم ما يوضع أمامي بشهيّة أخذتْ تلفتُ نظر زوجتي حتى أنها سألتني، ذات يوم، عن سرّ (غرامي) الجديد بالقيام بهذه الجولات التي تبدو دون نهاية؟ فأجبتها ضاحكاً بعدما أجهزتُ على إستكان الشاي:

- لا أعلم.. كأنني أحاول التكفير عن طول إهمالي لمدينتي المسكينة الآيلة إلى الاندثار!

- وهل اكتشفتَ ذلك الآن؟

سألتني متهكّمة وهي ترفع صينية الطعام من أمامي، فأجبتها متعقّباً إياها بعينيّ وهي تبتعد عني بحملها:

- لا بطبيعة الحال، لم أكتشفه الآن؛ فمن منا يجهل أن بدرة، على النقيض من غالبية المدن، تزداد تدهوراً بمرور الزمن؟

واستعدتُ، بلمحة خاطفة، أحاديث أبي وأمي التي كانت تطرق سمعي في طفولتي، والتي لم تكن تخرج عن ماضي المدينة المجيد؛ فيتبارى الاثنان في ذكر عدد المقاهي والأسواق العامرة والعلاوي الملأى حتى السقف التي كانت منتشرة في المدينة، فضلاً عن عدد القرى المحيطة بها، وكيف أنها في انحسار دائم بسبب الهجرة إلى بغداد.

- فما سر حرصك الجديد إذن على تفقّد ما كان معروفاً لديك؟

سألتني زوجتي وقد خرجتْ من مطبخها، وعادت لتجلس في مواجهتي، فتأمّلتها لحظات وأنا أفكر بزاهد الذي أقترح عليّ فكرة كتابة سيرتي الذاتية؛ لعله باقتراحه ذاك نبّهني على وجود عالم بكر بين يديّ لم استثمره بعد بالطريقة المناسبة.

- قد يعود الأمر إلى شعور مبهم بأن اندثار هذه المدينة قد بات وشيكاً بسبب تلك الحرب التي تسببت في هجرة خيرة شبابها، شأنها شأن العديد من المدن الحدودية، فضلاً عن احتمال نشوب حرب جديدة ستعمم المزيد من الخراب، ولذلك يفترض بي أن أكرّس لها رواية وداع هي مزيج من تاريخ وسيرة ذاتية.

أجبتها لأنصرف بعدها إلى تأمّل هذه الفكرة الجديدة التي أخذتْ تشغلني: فكرة الانطلاق من مدينتي في كتابة عملي القادم.

منذ ذلك اليوم عززتُ وجودي في المدينة بمواصلة التجوال فيها فضلاً عن سؤال كل من حولي، من أفراد أسرتي وأقربائي ومن الأصدقاء والمعارف، عن أمور معيّنة لا مفرّ لي من الإلمام بها قبل الشروع في العمل، وهذا أمر كان يحصل مع كل رواية سبق لي كتابتها، لكن الغريب في الأمر، هذه المرة، أن أسئلتي تلك أخذت تنحو منحى شخصياً يتداخل فيه ماضي مدينتي بطفولتي.

وهنا تذكّرتُ مجدداً والديّ، أبي وأمي؛ فأبي كان محمّلاً بهموم تاريخية تبدأ بأواخر الفترة العثمانية حتى سقوطها على أثر نشوب الحرب العظمى: لا يملّ من التحدث عن "الأفراريه"، هذه التسمية التي أطلقت على مجموعة من شباب المدينة رفضوا الانخراط في التجنيد الإجباري، فاضطروا إلى الهرب والتحصّن ببساتين النخيل حيث دارت معارك بينهم وبين الجندرمة العثمانية لا تزال جذوع عدد من أشجار النخيل تحمل آثار الطلقات التي تبادلها الطرفان. أما أمي فقد كانت مسكونة بمخيّلة خرافية خصبة حافلة بأساطير الجن وكرامات الأولياء.

ترى أي خزين من المعلومات القيّمة عن المدينة كان يملكه هذان الراحلان فرطّتُ به لعدم استثماري إياه قبل أن أفجع برحيلهما؟ لقد ملأني الأسى لهذه الخسارة، فحاولت التعويض عنها بملاحقة من أعرفهم من الطاعنين في السن ليس في المدينة فحسب، بل في الريف المحاذي لها وفي القرى المتناثرة هنا وهناك لأجد ضالّتي، في خاتمة المطاف، عند نديم إسكندر بيك.

وكان نديم يعدّ ظاهرة استثنائية في تاريخ المدينة؛ ذلك لأنه مرّ بتجربة غريبة في الحياة تثير شهيّة أي روائي يحلم بكتابة رواية متفرّدة: إذ يكفيه أنه أحتجز في الشماعية شهوراً بسبب اتهامه بجريمة قتل، حتى إذا ما أخلي سبيله وعاد إلى مدينة بدرة لم يجد، عقب مرور أعوام، إلا قريبتي بتول – أول فتاة أحببتها وأحبتني – زوجة له!!

لقد بدتْ تلك التجربة مادة خصبة لعمل روائي تمنيتُ استثمارها برغم يقيني باستحالة ذلك؛ إذ إن نديم كان آخر من في وسعه أن يعينني؛ فمنذ خروجه من الشماعية عمد، على مدى أعوام طويلة، إلى اعتزال الناس. كما أنه عُرف، ومنذ صباه، بتحفّظه الدائم وعزوفه عن الكلام؛ لذلك صرفتُ النظر عن هذا الأمر لولا أن مصادفة جمعتني به على غير توقّع: فبحكم القرابة التي تربطني بزوجته بتول زارني، ذات يوم، في بيتي على أثر سماعه بوجودي في بدرة، وهي زيارة مضت على الوتيرة التي تمضي بها الزيارات عادة لولا سؤاله إياي، وهو يتهيّأ للانصراف، عن آخر كتاباتي؟ فحدثته عن فكرة روايتي القادمة التي ستكون مزيجاً من رواية وسيرة شخصية، فسألني وقد أثرتُ اهتمامه كما يبدو:

- كيف ذلك؟ أفي وسع الروائي الجمع بين هذين الجانبين في روايته؟

- طبعاً، بل إن أغلب الروايات التي كسبت قلوب قرائها سارت على هذا المنوال.

- هذا أمر لم يسبق لي السماع به برغم إدماني قراءة الروايات منذ صباي!

علّق متأمّلاً إياي بتلك الطريقة المثيرة للقلق: يمعن النظر في وجهك مطوّلاً لا كمن يهدف إلى أن يدقق النظر في ما يراه أمامه قدر انصرافه إلى الاستغراق في فكرة تشغل ذهنه!

- ليتني كنت ملمّاً بهذه الطريقة الروائية لاستثمرها في الكتابة عن تجربتي الشخصية.

قالها بأسى مواصلاً تحديقه في وجهي، فوجدتها فرصة سانحة لأبدي له استعدادي لاستثمار تجربته الفريدة تلك في روايتي القادمة، وتابعتُ بحماسة:

- لقد خضت تجربة ليس من اليسير تكرارها، وهي تشكّل مادة روائية متكاملة لا تتطلب ممن سيتصدى للخوض فيها جهداً يذكر.

فسألني وقد أثرت فضوله:

- أأنت على ثقة مما تقول أم أنك تجاملني؟

- كل الثقة؛ إذ يكفيك أن تأذن لي باستثمارها – مع مساعدتي بأن ترفدني ببعض ما خفي عني من أسرار - لتجدني أخرج من كل ذلك بعمل متكامل.

فقاطعني بخشونة مفاجئة:

- وكيف تتوهم أنني سأفرّط بمعاناتي الشخصية – عذاب شهور من الحجز والنبذ والألم – لتحوّلها إلى عمل روائي يحمل اسمك أنت؟!

بادلته النظر لحظات وأنا في حيرة من كيفية الخروج من هذا المأزق الذي وضعت نفسي فيه، لكنني سارعتُ إلى طمأنته مؤكداً له أنني سأشير في الرواية، وبالصيغة التي سيقترحها عليّ، إلى استفادتي من تجربته الشخصية، فسألني بفضول:

- هل في وسعك مثلاً أن تشير إلى أن الرواية من تأليف شخصين على شاكلة رواية عربية قرأتها مؤخراً أظن عنوانها "عالم بلا خرائط"؟

يا له من اقتراح عجيب: أصدر رواية وقد اقترن اسمي على غلافها باسم مجنون متهم بالقتل!!

- كل شيء ممكن.

أجبته متهرّباً، فعلّق وهو ينهض:

- سنرى.

فرافقته مودّعاً حتى باب البيت حيث وقف لحظات وقد استغرق في تفكير عميق قبل أن أفاجأ به يسألني:

- هل يسعك موافاتي عصر الغد في بيتي في تمام الساعة الرابعة؟

- سأكون عندك وقتما تشاء.

أجبته وأنا غير مصدّق أن ما حلمت به مطوّلاً آن له أن يتحقق. وكان آخر ما قاله وهو يودعني مصافحاً:

- سأطّلعك على أمر على جانب كبير من الأهمية.

(أيها الأعسر الأبله!)

أمران اثنان عانى منهما نديم طوال خضوعه لتلقّي الصدمات الكهربائية: الأول الألم الذي تغلغل في عضلاته كلها، ولاسيما في مفاصله، والثاني النسيان.

أما الألم فقد أفلح في التخفيف منه بتعاطي العقاقير الكفيلة بذلك. ويبقى النسيان؛ فما من علاج له: إذ كيف السبيل إلى استعادة ذاكرة ظن أنها خُرّبتْ إلى الأبد فباتت أشبه بصفحة بيضاء لم يُخط فيها حرف واحد؟

- اطمئن؛ ستتذكر كل شيء، فكل ما هنالك هو أنك لا تزال تحت تأثير نوبة الصرع التي فاجأتك وأنت وسط مخاضة المياه حتى كادتْ تودي بك غرقاً لولا انتشالك وأنت في الرمق الأخير، كما أن الصدمات الكهربائية وتعاطي العقاقير عززت حالتك مؤقتاً. لكن كل شيء سيعود بعد مرور أسابيع أو ربما أشهر في أبعد تقدير.

ذلك ما كان الأطباء والمعالجون يرددونه على مدى الفترة التي قضاها في تلقّي الصدمات الكهربائية. حتى إذا ما تحسّنتْ حالته الصحية بعض الشيء - فجرتْ محاكمته، ونجح محاموه في إثبات براءته من التهمة المنسوبة إليه وعدّ ما حصل حادثاً وقع بسبب جهله السباحة؛ فاقتصر الحكم عليه بإيداعه الشماعية لغرض تلقّي العلاج - بات هو مَن ينشد النسيان هذه المرة ليفلح في العيش وسط حشد مجانين جيء بهم من شتى المدن العراقية ليحشروا في مصح قد لا يصلح أن يكون زريبة للحيوانات برغم أنه كان قد أنشأ حديثاً.

وبرغم أن فترة بقائه في الشماعية لم تتخطَ بضعة شهور بيد أنه كان من المحال عليه أن يفلح في أن يمضيها بسلام – فلا يجنّ بشكل حقيقي – لولا تعرّفه إلى اثنين يدين إليهما بالكثير: عيسى وحكمت الكردي؛ فقد وجد في عيسى صديق العمرالذي يسعى جهده إلى إسعاده: لا يكاد يراه واجماً حتى يبذل ما في وسعه لتبديد حزنه؛ فيروي له شذرات من حياة بائسة مارس خلالها مهناً لا تعد ولا تحصى لم توفّر له لقمة خبزه، بل إنها أفضت به في النهاية إلى اللجوء إلى هذا المستشفى سعياً منه للشفاء من علّة لم يعرف يوماً ما كنهها.

كان يروي لنديم مآسيه تلك ليبرهن له أن هناك من هو أكثر بؤساً منه. كما كان يقنعه أحياناً بمغادرة الردهة والتجوال مطوّلاً في حدائق المستشفى؛ حتى إذا ما عادا إلى ردهتهما استسلما للنوم حال استلقائهما على سريريهما.

أما حكمت الكردي فقد أخذ على عاتقه مهمة أن يبرهن لزملائه نزلاء الردهة الثلاثة الآخرين – نديم وعيسى ومريض صامت لا يكاد يغادر سريره إلا لتلّقي الصدمات الكهربائية - أن كل ما يحيط بهم يستدعي الفرح لا الحزن:

- كاكه أنت يعرف أين أنت؟

سأل حكمت بعربيته الركيكة نديم في أول يوم التقاه فيه في الردهة، فأجابه نديم بشيء من حذر خوفاً من أنه يسخر منه:

- يا له من سؤال!... وأين تراني أكون في غير الشماعية؟

- غلط.. قد تكون أنت في الشماعية أما أنا فلا!

فخاطبه نديم بدهشة:

- وكيف أكون أنا في الشماعية وأنت لا ونحن نزلاء الردهة نفسها؟!

- خوش سؤال.

أثنى حكمت على سؤال نديم ليسترسل بعدها وهو يشير إلى أحد جدران الردهة:

- كاكه أنت لا يعرف شكو وراء هذا الحايط.. أما أنا فيعرف: يوجد جبل.. وخيط ماء نحيل ينحدر منه إلى نبع في الأسفل... ويوجد طائر قبج.. أنت يعرف طائر القبج؟ طائر كردي جميل جداً.. وتوجد أشجار جوز ولوز... وتوجد كذلك نركس..

وعاد يسأله:

- كاكه أنت يعرف نركس؟

وسرعان ما أجاب حكمت على سؤاله بنفسه وهو يقهقه بانطلاق:

- لا.. أكيد أنت ما يعرف نركس.. لأن نركس حبيبه مال آني.

على هذه الوتيرة مضى حكمت في طرح أسئلته الطريفة ليس في الردهة فحسب، بل في حدائق المستشفى وهما يتجولان؛ فقد يصادف أن يلتقط من الأرض قطعة حجر يمدها تحت أنف نديم وهو يطرح سؤاله التقليدي:

- كاكه أنت يعرف ما هذا؟

- صخرة.

يجيبه نديم، لكن حكمت يعيد طرح سؤاله بصيغة أخرى:

- أي شيء تشبه هذه الصخرة؟

فيمعن نديم النظر إلى تلك الصخرة مديراً إياها إلى مختلف الجهات قبل أن يجيب:

- تشبه طائراً.

- أحسنت... تماماً كاكه.. تشبه طائراً... هيا بنا إلى المشغل لنحرر ذلك الطائر فلا نبقيه أسير الصخر إلى الأبد.

وفي مشغل الخياطة والتحف الفنية يتجه حكمت بصخرته إلى المنضدة الخاصة بأعمال النجارة فيدسّها بين فكي تلك الكماشة الحديدية المثبتة إلى تلك المنضدة لينهال عليها ضرباً بالمطرقة مستعيناً أحياناً بالمبرد ليحرر عمله في النهاية من بين فكي الكماشة رافعاً إياه تحت أنف نديم طارحاً عليه سؤاله المعهود:

- كاكه يعرف هذا الشيء الآن أم لا يعرف؟

فيجيبه نديم بدهشة:

- إنه طائر.. سبحان الله!.. لقد حولت هذه الحجارة كاكه حكمت إلى طائر!

فيصيح حكمت محتجّاً:

- غلط.. لم أحوّل الحجارة إلى طائر.. بل أطلقت سراح الطائر الذي كان حبيس الحجر!

على يدي حكمت ذاك، وفي مشغل الخياطة والتحف الفنية نفسه، تلقّى نديم أول دروسه في فن النحت مستلهماً موهبة غريزية رافقته منذ طفولته حينما كان يعشق النحت بالطين برغم استياء أبيه من تلويث يديه بهذه المادة القذرة!

ويوم أكّدت "اللجنة العدلية النفسية" شفاءه فتقرر إخلاء سبيله، غادر الشماعية مودعاً من قبل عيسى بالدموع، في حين طرح عليه حكمت آخر أسئلته المحيّرة لحظة معانقته إياه:

- كاكه نديم إنت يعرف أين ذاهب؟

- إلى مدينتي بدرة طبعاً!

- غلط... بل ذاهب إلى فردوسك الأرضي!

وهكذا عاد نديم إلى مدينته الحدودية ليبدأ أولى محاولاته للتعرّف إلى نفسه مستبقاً ذلك باعتزال الناس؛ إذ بات موصوماً بأمرين لن يتركه الآخرون بعدهما يقضي حياته على هواه: اتّهامه بالشروع في القتل، ووصمة الخروج من الشماعية!

قضى الأعوام الأولى بين جدران مكتبته التي تشغل غرفة واسعة من البيت أقرب ما تكون إلى قاعة، حيث اعتاد الانفراد بتلك الكتب التي شكّلت نواة المكتبة في زمن المرحوم أبيه: روايات الهلال، ومجلة الهلال، وكتاب الهلال، فضلاً عن سلسلتي حلمي مراد المعروفتين بـ"كتابي" و"مطبوعات كتابي".

كتب كانت تذكّره بالماضي الذي ولّى إلى الأبد: فلكل كتاب ذكرى عزيزة إلى قلبه أعادت إليه شذرات من سنوات عمره التي تشظّتْ صباح ذلك اليوم المشؤوم الذي انفرد فيه بتلك المرأة المنكودة وسط مخاضة المياه!!

كانت المكتبة خليطاً من دواوين الشعر والروايات العالمية المترجمة وسلسلة روايات تاريخ الإسلام كاملة لمؤلفها جرجي زيدان. وكانت هناك كتب التراث وبضمنها كتب معيّنة كان أبوه يحظر على غيره الدنو منها مثل كتاب "عودة الشيخ إلى صباه" و"الروض العاطر" و"نواضر الأيك" و"زهر الربيع" وغيرها. وكانت من بين تلك الكتب المحظورة الطبعة الشعبية غير المهذّبة من "ألف ليلة وليلة" بأجزائها الأربعة والتي تتصدرها عبارة (تُطلب من مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده بميدان الأزهر بمصر).

في تلك الزاوية الحافلة بتلك الكتب كان يجد، في فترة مراهقته، ضالته: لا يكاد يتأكد من أن أباه خارج البيت، يتابع شؤون أملاكه الشاسعة الموزّعة بين أراضٍ زراعية وبساتين فضلاً عن مطحنة، حتى يهرع إلى هناك لينفرد بألف ليلة وليلة مطالعاً بشغف تلك الحكايات - ولاسيما حكايات النساء ومكائدهن - التي ترد فيها الأفعال الجنسية بألفاظها على النقيض من الكتب المحتشمة، تتخللها أبيات شعر حافلة بألفاظ فاحشة ألف استظهارها غيباً ليرددها مع نفسه فيما بعد مستمتعاً استمتاع مراهق يكتشف مثل هذه الأجواء الحسّيّة المفعمة بالشهوة!

حينها كان في نهاية المرحلة المتوسطة من دراسته، يبذل جهده ليتوّجها بعد سنتين بحصوله على البكلوريا؛ إذ كانت المرحلة الثانوية آنذاك خمس سنوات لا ستاً، يعفى من يجتازها من خدمة العَلَم.

ذات يوم، وهو مأخوذ بقراءة إحدى حكايات ألف ليلة وليلة، جفل على صوت أبيه يتردد فوق رأسه:

- ألم أحظر عليك الدنو من هذه الزاوية؟

فوثب من السجادة التي كان متربّعاً عليها وذلك الجزء من ألف ليلة وليلة في يده.

- إيّاك من إطباق الكتاب... دعني أرَ ما الذي جعلك لا تحسّ بوجودي لحظة دخولي لشدة استغراقك في قراءته!

أردف أبوه محذراً قبل أن يختطف الكتاب منه ليستغرق في قراءة الصفحة التي كان نديم منكبّاً عليها لحظة دخوله، تاركاً إياه يتأمّله واجف القلب وهو بكامل أناقته: حيث الطربوش - آخر رمز من رموز انتمائه إلى سلالة العثمانيين - يعلو رأسه الحليق، في حين ترفل قامته الفارعة بصايته الكحلية، وقد انتعل حذائيه اللذين هما من عمل سرّاج بغدادي أشتهر بعمل الأحذية للوجهاء، وسوطه المشهور، الذي ندر أن نجا فلاح من فلاحيه من تذوّق ضرباته، مستقر تحت أبطه.

- ما شاء الله ما شاء الله!... (فأولجتُ فيها نصفه فتأوّهتْ).. ألا تخجل من قراءة شعر على هذه الشاكلة من البذاءة؟

صاح الأب دون أن يرفع عينيه عن الكتاب. ومضى يواصل القراءة غير آبه بعذاب نديم الذي بقي يتأمّل، خافق القلب، وجهه المتورّد المزدان بلحية وخطها الشيب، وثمة عِرْق في صدغه ينبض بشكل يبعث على الرعب.

- هكذا إذن تنفرد بهذه الكتب لحظة مغادرتي البيت!

عاد الأب يصيح وقد أمسك السوط من مقبضه ناخساً إياه في صدره بطرفه الآخر.

- تقرأ أكثر الأمور بعثاً على الغثيان معوّضاً بذلك حبك للانفراد والانزواء وعجزك عن محاورة الآخرين كما يقتضي العرف والأصول.. الآن فقط.. نعم الآن اكتشفت سر هزالك وشحوب وجهك وتدنّي مستواك في الدروس كلها خلا الفن؛ إذ بقيتَ مأخوذاً باللعب بالطين:

تقضي ساعات في ذلك العبث لتزدرد بعدها إحدى وجبات الطعام وقد فاتك أن تغسل يديك .. الآن اكتشفت كل هذه الأمور أيها الأعسر الأبله الصموت...

وبقي، أثناء كلامه، يواصل نخسه في صدره بطرف سوطه مع كل كلمة ينطق بها وقد عزم، كما بدا له، على الاستمرار في تعذيبه لولا مقدم أمه على صراخه؛ فاستدار نحوها وقد ازداد صوته ارتفاعاً:

- تفضّلي يا علوية وانظري بنفسك ما يقرؤه ابنك (التحفة) بغيابي من بذاءات... انظري.. انظري.. أيعقل أن تربيتي معه ذهبت هدراً؟

واستدرك وقد تحوّل بغضبه نحو أمه:

- لكنه ليس الملوم لانحداره إلى هذا الدرك، أبداً ليس وحده الملوم في ذلك، بل أنتِ.. نعم أنتِ؛ فقد كان عليك إيقافه عند حده منذ تنبهّتِ إلى مدى تعلّقه المرضي بكِ: لا ينام ليلاً إلا بمشاركتكِ في فراشكِ.. ذلك الفراش الذي كان يُحتّم عليكِ نشره صباح كل يوم تحت أشعة الشمس وثمة بقعة بول تتوسطه!

وعاد يقرّع نفسه هذه المرة:

- وأنا بدوري أسهمتُ في إفسادكَ حينما انهزمتُ أمام عنادك فاعترفت بفشلي في تلقينك كيفية استعمال يدك اليمنى مثل خلق الله؛ فقد بقيتَ أعسر: تسارع بالتقاط القلم بشمالك وأنت لا تزال في الصف الأول الإبتدائي. بل بلغ الأمر بك أنك انقطعتَ عن الذهاب إلى المدرسة على مدى سنة دراسية كاملة، والسبب؟ لأنه كان يحتّم عليك – حينما تخطيتَ الصف السادس إلى الأول المتوسط - ارتداء البنطال بدل التشبث بدشداشتك اللعينة؛ فجنّ جنونك وأخذت تعول مثل كلب مسعور رافضاً ارتداء البنطال بأي شكل من الأشكال!

هكذا واصل أبوه، دون رحمة، تقريعه المخيف. بيد أن أمه عرفت كيف تهدّأه بحجة حرصها على صحته لأنه كان يعاني من ضغط الدم؛ فتناولت برفق السوط منه، وواصلت مداهنتها إيّاه بكلمات رقيقة حتى نجحت على أثرها في إخراجه من المكتبة.

منذ ذلك اليوم دأب أبوه على إقفال باب مكتبته بالمفتاح، كلما كان بصدد مغادرة البيت، حارماً بذلك نديم من نعمة الانفراد بتلك الكتب.

(٣)

يوم توجهتُ إلى بيت نديم، في لقائنا الأول، حرصتُ على أن أكون هناك عصراً في تمام الساعة الرابعة وذلك لمعرفتي بمدى التزامه المرَضي بدقة المواعيد.

استقبلني غريب عند باب البيت الخارجي، وتقدّمني وهو يتمتم بطريقته المبهمة المشفوعة بإشارات يديه.

قادني نحو القسم الخلفي على وقع دقات ساعة غرفة الاستقبال وهي تعلن الرابعة. وكان نديم واقفاً في انتظاري عند باب غرفته المحاذية لحديقة مهملة غزتها الأعشاب، فوجدتني أقف مذهولاً، لحظة دخولي، وقد عقدتِ الدهشة لساني؛ ذلك لأنني فوجئت بالجدران الأربعة مزدانة بقطع من النحت البارز فضلاً عن خليط عجيب من منحوتات مستقرة على قواعدها هنا وهناك!

لحظتها لم أؤخذ بجمال تلك المنحوتات قدر ذهولي لانطوائها على طابع غريب لا تخطئه العين المتمرّسة بتذوّق الفن؛ فقد بدت ذات طابع شخصي يجمع بين الفن الفطري والفن الحديث: فمع غلبة العفوية والتكرار والمشاهد الأسطورية على العديد من المنحوتات – شأن الفن الفطري – كانت هناك قطع أخرى ذكّرتني بأسلوب الفنان السويسري جياكومتي في تجسيده الإنسان في أقصى لحظات توحّده وقطيعته مع العالم. كانت التماثيل كلها تتميز بنحافتها واستطالتها سواء بأجسادها أم بوجوهها وأفواهها المفغورة على صرخات تبدو كأنها على وشك الانطلاق!

- لمن هذه الأعمال؟

سألته بعدما طالت وقفتي، فأجابني مستنكراً:

- لي طبعاً!

- لا أقصد مالكها بل مبدعها.

- إنها من عمل يدي!

- لا يعقل ذلك!... معذرة؛ أقصد لم يسبق لي أن سمعت يوماً ما بتمرّسك بالفن!

- مارستُ النحت بشكل جدي في مشغل مستشفى الرشاد تحت إشراف نزيل غريب الأطوار اسمه حكمت الكردي، حتى إذا ما عدت إلى بدرة واصلت العمل؛ وما تراه هو نتاج سنوات انفرادي الطويلة بنفسي في هذا البيت الموحش!

أدهشتني عبارته الأخيرة؛ فقد قالها متجاهلاً وجود زوجته بتول!

قادني نحو أريكة منزوية في جانب من تلك الغرفة الواسعة حيث لاحظت نسخة من رواية دستويفسكي المشهورة "الجريمة والعقاب" مهملة على إحدى الطاولات، فتناولتها متصفّحاً إياها وأنا أقول:

- يبدو أننا نتماثل في ذائقتنا بالإعجاب بهذا الروائي العبقري.

- لقد لعبت هذه الرواية دوراً غريباً في حياتي.

تكلّم وقد جلس على كرسي بجواري.

- وكان لها أثرها المشؤوم عليّ، ولعلها هي التي حددت مصيري دون أن أدري!

واستطرد في حديثه فتطرق إلى ما جرى قبل ثمانٍ وثلاثين سنة خلت حين أعاره إياها شخص اسمه فريد عمران كان من ضمن السياسيين المنفيين إلى بدرة في تلك الفترة التي أختيرت المدينة خلالها منفى للمناوئين للسلطة، وكانت الرواية آنذاك بترجمة مختصرة بعنوان "المرابية العجوز" صدرت ضمن تلك الترجمات التي كانت سلسلة "روايات الهلال" المصرية تدأب على نشرها من عيون الأدب العالمي في الخمسينات بعد تغيير عناوينها بما يلائم الذوق السائد.

وختم كلامه قائلاً:

- لذلك حرصت على أن أقرأها مجدداً بترجمتها الكاملة لأعرف سر تأثيرها الغريب عليّ آنذاك.

وتابع بعد لحظات مغيّراً الموضوع:

- دعنا الآن من دستويفسكي واسمح لي أن أكشف لك جانباً آخر من اهتماماتي لم يسبق لك الاطلاع عليه.

واسترسل وقد عاد يتأمّلني بنظرته المعهودة:

- أتدري؟ لقد سبقتك بفكرتك الروائية منذ سنوات بعيدة، لكن ما خذلني وجعلني أكفّ عن تحقيقها عجزي عن التعبير بطريقتك الروائية.

وتلفتَ حوله بنظرة مستطلعة سائلاً إياي همساً:

- أسبق لك السماع بخبر ذلك الدفتر المشؤوم الذي تسبّب في حصول القطيعة بيني وبين أبي؟

فأومأتُ برأسي إيجاباً؛ فأمر ذلك الدفتر بات معروفاً لأنه كان السبب المباشر في حصول تلك القطيعة التي اضطرته إلى الهرب إلى مدينة مهران الإيرانية ليمكث هناك أسابيع عاد بعدها على أثر إصابة أبيه بشلل نصفي.

- ومن الذي لم يسمع بخبر ذلك الدفتر نديم بيك؟

سألته لاسترسل بعدها قائلاً:

- الجميع سمع به برغم أنه ما من أحد رآه عياناً!

- ذلك أمر بديهي؛ كيف تريدني أن أسمح لمخلوق بأن يطّلع على دفتر تسبّب بمقتل أبي؟!

تساءل هامساً وقد نهض عن كرسيه ليسير بقامته الطويلة المفرطة في نحولها نحو باب الغرفة حيث استرق السمع لحظات عاد بعدها متابعاً الهمس:

- ستكون أول شخص.. بل ستكون الإنسان الوحيد الذي ستتسنى له رؤية هذا الدفتر!

واتخذ سبيله، هذه المرة، نحو خزانة خشبية أنيقة انتصبت في جانب من الغرفة التقط من أحد رفوفها الدفتر المنشود الذي عاد به إلى كرسيّه وهو يقول:

- ها هو دفتري المشؤوم!

ووضع دفتراً بغلاف أسود بين يديّ لأتصفّحه على مهل متوقفاً عند مقاطع معيّنة كنت أقرؤها باهتمام، فكان نديم يمد رأسه مشاركاً إياي في القراءة ليسألني بعدها بقلق عما حفّزني على التوقّف عند تلك المقاطع على وجه التحديد؟ وبعدما أجيبه يتركني أواصل تصفّحي دون أن ينسى الالتفات نحو الباب، من حين إلى آخر، ليطمئن إلى أننا بمنجاة من أية عين متلصصة!

وأوقفني، في إحدى المرات، عند صفحة معينة طالباً مني قراءتها بتمهّل؛ وكان قد خصصها لأخبار المنتحرين والمنتحرات في المدينة، وتطرق فيها إلى زيارته لبيت رجل سبق له أن شنق نفسه، وكيف أنه أصيب بحالة اختناق وهو يتأمل بقايا الأنشوطة المدلاة من السقف، فأوشك على الموت لولا إسراع أصحاب البيت بإسعافه!

- تجربة فريدة تستدعي التأمّل!

علّقت وأنا أعيد قراءة تلك الصفحة، فأجابني بحزن:

- حينها تمنيت لو أنني تُركت لأموت عوضاً عن إسعافي!

- لماذا؟

- لأنه لا معنى للحياة ما دمنا سنفارقها ذات يوم.

وتابع رامقاً إياي بنظرة شاردة:

- هل تجرّعتَ مرارة فقْد أناس أحبّاء إلى قلبك؟ فقد أبيك وأمك اللذين لم يخطر لك قط أنك ستبقى على قيد الحياة بعدهما؟

واستطرد وهو يجيل عينيه في أنحاء الغرفة:

- نعم .. لقد تذوّقت تلك المرارة ولم أمت... ما زلتُ أتنفّس...

وأضاف بعد لحظات:

- ثم هناك المعاناة الطويلة من الشعور بالذنب؛ فهي بدورها تسمم عليك حياتك حتى تجعلك تتمنى الموت بأي شكل من الأشكال!

وفوجئتُ به يسألني على غير توقّع:

- وهاجر؟ أسبق لك أن سمعتَ بحكايتي معها؟

- وكيف لم أسمع بها وهي السبب المباشر لكل ما جرى لك؟

وأضفتُ وقد أحيا بسؤاله فضولي القديم الذي لازمني منذ طفولتي:

- بيد أن المحيّر في الأمر يتمثّل بحقيقة ما جرى على وجه التحديد.

- وهل تتوقع مني أن أكشف لك ذلك منذ أول لقاء؟ ما الذي نبقيه إذن للقاءات القادمة؟

سألني متهكّماً ليفاجأني بعدها بأغرب سؤال:

- أيُعدّ الإقدام على الانتحار جبناً أم شجاعة؟

- يا له من سؤال كبير شغل فلسفات كاملة!

- دعك من تلك الفلسفات وإفصح لي عن رأيك أنت بالانتحار.

- لا علم لي بذلك لأنني لم أجرّب الانتحار يوماً ما.

أجبته محاولاً إضفاء جو من المرح على حوارنا، ولكنْ عبثاً؛ فقد مضى يحدثني، هذه المرة، عن سنوات الحرب الثماني مع إيران – ولا سيما الفترة الأخيرة منها حينما شرع الطرفان بقصف المدن – وكيف أنه فكّر أكثر من مرة بوضع حد لحياته، فسارعت بمقاطعته:

- وها هي تلك الحرب وقد انتهت وأنت لا تزال حياً ترزق.

- ولكنّ هناك حرباً قادمة على الأبواب، وهي حرب مع العالم كله هذه المرة. أنسيت ذلك؟

حاولتُ أن أغيّر موضوع الحديث؛ فاقترحت عليه السماح لي باستعارة دفتره لأعيده إليه في موعد لقائنا القادم؛ ذلك لأن ما دوّنه فيه أوسع من أن يُقرأ في جلسة واحدة.

- محال!

أجابني وقد سارع في اختطاف الدفتر ليسترسل مؤكداً كل كلمة ينطق بها:

- ذلك أمر مستحيل؛ فما أدراني بأنك ستعيده لي؟ فقد يضيع منك .. يُسرق أو يحترق.. كل شيء متوقع في هذه الدنيا!

تأملته حائراً وأنا أفكر باستحالة تمكّني من ثنيه عن قراره؛ فقد اشتهر بعناده منذ صغره. سألته:

- كيف لي أن أساعدك في صياغة ما ستسرده عليّ عما جرى لك ما دمت لا تثق بي؟

- لا تتعب نفسك. ما من قوة تقسرني على أن أسلّمك الدفتر ما دمت حياً أرزق!

قالها بنبرة حاسمة وقد اربدّ وجهه وازرقّ حتى أنني خشيت أن يصاب بنوبة صرع من تلك النوبات التي سبق لي السماع بها.

- أتدري ما الذي يمثّله هذا الدفتر عندي؟

سألني بغتة وقد هدأ ليتابع بعدها قائلاً:

- إنه يمثّل الكثير مما ضاع من عمري ولا سيما صباي الذي شغلت ذكرياتي عنه جانباً واسعاً منه.

- وهل ضمّنته مغامرتك المشهورة بالهرب إلى مهران على أثر النزاع الذي حصل بينك وبين المرحوم والدك؟

- طبعاً ضمنته، كما ضمنته ذكرياتي السعيدة مع أبي حينما كان يصطحبني في جولات إلى حقوله وبساتينه ومطحنته حيث كان الجميع يحتفون بمقدمنا، بل كان الفلاحون يسارعون إلى نحر الذبائح احتفاء بقدومي بصحبة أبي.

واستدرك وقد أشرق وجهه فجأة بفرح داخلي:

- أتدري أنني كشفت عن ميولي الفنية مبكراً – ولا سيما النحت – عقب قيامنا بواحدة من تلك الجولات؟

ومضى يتحدث بحماسة عن ذلك النموذج المصغّر لمطحنة أبيه والذي نفذه عملياً بالطين وفي حديقة البيت حيث جلب الماء إليه بربط أنبوب مطاطي بصنبور الماء مجسداً بذلك مطحنة بقي مدار أحاديث الأقارب فترة طويلة من الزمن.

لكن وجهه سرعان ما أظلم حينما شرع يحدثني عن ذكريات تلك الشهور المعدودة التي قضاها في مستشفى الرشاد. قال متأمّلاً إياي بنظرته الثاقبة:

- كانت فترة مرعبة قضيتها وسط حشد من المجانين، حتى إذا ما غادرت المستشفى بقيت موصوماً بوصمة الجنون برغم أنني لم أخرج إلا بقرار طبي موقّع من قِبَل لجنة مختصة بهذا الشأن!

وعاد يفاجئني بأحد أسئلته غير المتوقعة:

- وأنت؟ ما رأيك بي؟ أتعدّني مجنوناً شأنك شأن الآخرين؟

أجبته مفتعلاً الضحك مشيراً إلى منحوتاته المحيطة بنا:

- حاشاك من ذلك!.. كيف يكون مجنوناً من يبدع كل هذه المنحوتات الرائعة؟

- أعلم أنك تجاملني.. لكن لا ضير من ذلك؛ فقد وجدت بك مثالاً للصراحة والمشاعر المرهفة.

وتابع مجيلاً النظر في منحوتاته:

- كان من المحال عليّ مواصلة الحياة في المستشفى خلال تلك الشهور المعدودة لولا صداقتي لذلك النحات الفطري حكمت الكردي الذي كان يستلهم – دون أن يدري بطبيعة الحال – طريقة النحات العظيم مايكل أنجلو؛ فيحثّني على أن أنهال بمطرقتي دون تردد على الصخرة المراد

نحتها سعياً مني لتحرير التمثال الحبيس فيها؛ فكانت مفارقة أن أجد عزائي في أحلك أيامي بممارسة النحت الذي كان مصدر نقمة أبي؛ لا يكاد يكتشف أن كفيّ ملوثتان بالطين، لحظة تناولي الغداء أو العشاء، حتى يفقد السيطرة على نفسه فينعتني بأسوأ النعوت ويعاقبني بحرماني من تلك الوجبة التي كانت أمي تعوّضني عنها خفية بكل ما لذّ وطاب!

واستدرك وقد عاد يحملق بي عن كثب:

- لقد كتبت عن كل هذه الأمور في الدفتر، كما كتبت عن شخص آخر أدين له بالكثير.

وتأمّلني لحظات قبل أن يسألني:

- أتدري من هو؟

ومضى يتصفّح الدفتر لحظات قبل أن يسترسل في كلامه:

- إنه عيسى الذي كان الجميع يناصبه العداء برغم أنه كان معي مثال الصديق المخلص الخدوم.

واستطرد متحدثاً عن عيسى، وكيف أنه كان يسعى إلى التخفيف عنه - وهو الذي كان ينفر من مخالطة الآخرين - فيكلّف زوجته مثلاً – حين مرورها بالمستشفى - بإعداد أكلات معيّنة سبق له أن ذكرها في أحاديثهما العابرة، أو يوصيها بغسل ملابسه وكيّها؛ ذلك لأن نديم كان يحرص على ألا يتجول في المستشفى إلا وهو بكامل أناقته!

وأكد أنه لا يزال يرتبط بعيسى بصداقة استمرت حتى الآن: لا يكاد يقرر السفر إلى بغداد حتى يتّصل به عن طريق الهاتف ليراه في انتظاره في "كراج النهضة"؛ يختطف حقيبته منه لحظة مغادرته السيارة ليتولّى منذ تلك اللحظة رعايته رعاية أخ لأخيه: إذ يكون قد هيّأ إحدى غرف بيته لينزل فيها طوال فترة مكوثه في بغداد عوضاً عن الإقامة في أحد الفنادق.

وأنهى حديثه قائلاً:

- لذلك أحرص على عدم التفريط بهذا الدفتر الذي سجلت فيه كل هذه الأمور؛ فآمل أن تتفهّم سبب حرصي عليه.

ومرّت لحظات صمت أنهاها بأن اقترح عليّ ضرورة موافاته عصر كل يوم في بيته - طوال مكوثي في بدرة - ليحدثني بما جرى له فأتولّى كتابته في الدفتر.

- أي دفتر تعني؟

سألته مغالباً دهشتي، فأجابني وهو ينقر على دفتره العتيد:

- وهل هناك دفتر سواه؟!

واستدرك في محاولة منه لإفحامي:

- الأحداث التي سأسردها لك جرتْ لي؛ فما من موضع يفترض أن تكتب فيه سوى دفتري!

فعدت أبادله النظر وقد تفاقمت حيرتي مدركاً استحالة ثنيه عن قراره.

- ستكتب ما أمليه عليك على مدى جلسات متعاقبة، حتى إذا ما انتهيتَ من الكتابة سنمضي المدة اللازمة لقراءة ما كتبته مع احتفاظي بحقي المطلق في حذف ما أرى ضرورة حذفه دون أن تبدي أيما اعتراض.. اتفقنا؟

أنهى كلامه بالنهوض عن كرسيّه ليتجه نحو الخزانة حيث أودع الدفتر في موضعه السابق.

(باقة ورد على قبر)

- لماذا لا يحبني أبي؟

كان نديم لا يكفّ عن طرح هذا السؤال على أمه كلما واجهه باب مكتبة البيت المغلق، فكانت تجيبه مستنكرة:

- ما من أب لا يحب ابنه.

فكان يعود ليسألها مجدداً وهو يهزّ مقبض الباب:

- فلماذا يحرمني إذن مما يعرف عمق شغفي به: قراءة الكتب؟

فكانت تجيبه مبتسمة:

- لا تعوزك الكتب حسبما أعلم؛ فمدرستك تزوّدك، مع كل موسم دراسي جديد، بالمزيد منها.

- للكتب القابعة خلف هذا الباب المغلق مذاق غير مذاق الكتب المدرسية الباعثة على الضجر.

وكانت المدرسة - الجاثمة ببنايتها الجهمة ذات الطابقين عند مدخل "بدرة الجديدة" من جهة الشمال - مصدر سأم نديم الدائم؛ لا يتوجه إليها صباح كل يوم إلا مرغماً، حيث يقضي دروسه الخمسة قابعاً على آخر مقعد في الصف، لا يكاد يولي ما يجري عند السبورة اهتماماً يذكر قدر ما ينصرف بكل انتباهه إلى بلبل قد يحط على غير توقّع على أحد أغصان شجرة السدر المعمّرة المحاذية للنافذة، التي تشغل مساحة واسعة من جدار الصف القائم في الطابق العلوي، ليطلق سلسلة تغريدات عذبة قبل أن ينخطف ليختفي في زرقة السماء.

كان ما يجري خارج المدرسة مبعث فضول نديم أكثر مما يجري في داخلها: فما من مرة توجّه فيها إلى هناك إلا وتأمّل بفضول تلك البيوت التي تقع في صفين على جانبي الشارع الرئيس الذي يبدأ بالسراي لينتهي بالمدرسة، مستعيداً حكايات هؤلاء المنفيين الذين تأتي الشرطة بهم مخفورين من شتى المدن العراقية لتسكنهم في هذه البيوت حيث يحق لهم التجوال في المدينة مطلقي السراح شريطة أن يثبتوا وجودهم مرتين في اليوم وذلك بالتوقيع في سجل خاص بهذا الشأن في السراي صباحاً وقبل غروب الشمس.

وكانت مدينة بدرة قد أُختيرتْ منفى للسياسيين المناوئين للسلطة وذلك لموقعها النموذجي الذي يضمن للأجهزة الأمنية السيطرة على هؤلاء المنفيين الذين يستحيل عليهم التسلل هاربين؛ فأقرب مدينة – وهي مدينة الكوت – تبعد عنها أكثر من سبعين كيلومتراً.

كانت تلك البيوت المتراصّة واحداً جنب الآخر تتشابه بصغر حجمها وبحدائقها الخلفية المهملة وبقاطنيها من المنفيين الذين كان معظمهم يحرصون على الوقوف بمناماتهم عند الأبواب، متأملين مبتسمين الطلاب في مرورهم الصباحي بهم نحو مدرستهم، مبادرين إياهم بتحية الصباح.

وقد يحدث أن ينفح هؤلاء المنفيون الطلاب هدايا من صنع أيديهم: محافظَ نقود وحقائبَ صغيرة وصوراً محبوكة من الخرز وما شاكل ذلك. وقد بادر أحدهم نديم، ذات يوم، بسؤاله عن الهدية التي يود تقديمها له؟ فأخبره محرجاً بشغفه بالكتب، فابتسم الرجل له، وأثنى على هوايته، معتذراً إليه لعدم تمكّنه من مساعدته بهذا الشأن.

آنذاك حدث أن واحداً منهم مات بصعقة كهربائية، فتهيّأ صحبه المنفيون لدفنه في مقبرة المدينة، بيد أن الأمر لم يتم لهم كما أرادوا؛ فقد اعترض المسؤول عن الجامع بحجة أن المتوفي شيوعي لا يؤمن بالله، فتصدى له واحد منهم مؤكداً أن الله وحده الذي يحكم على الناس بحقيقة إيمانهم من عدمها وذلك لأنه الأعلم بالسرائر.

وسرعان ما شاع الأمر في المدينة؛ فاحتشد عشرات الأشخاص عند باب المتوفي وقد انقسموا إلى مجموعتين: تتحمس إحداهما – وغالبيتها من الشباب - لدفن المتوفي في مقبرة المدينة، في حين تعترض الأخرى – وهم من الكبار في السن والمتمسكين بأهداب الدين – فحاول نديم أن ينأى بنفسه من الانضمام إلى أية مجموعة منهما لولا أنه جوبه باصرار زملائه على ضرورة الاختيار انطلاقاً من كونه بات رجلاً بعدما أوشك أن ينهي دراسته الثانوية، وأنه من العار عليه التردد في اتخاذ القرار الذي يحبذه؛ فلم يجد نديم بداً من الاختيار وذلك بالانضمام إلى المجموعة الأولى.

وكان لغط المحتشدين قد ارتفع منذراً باحتمال حصول تصادم بين المجموعتين لولا أن ضابط الأمن حسم الموقف بمساندة المجموعة التي رفضت دفن المتوفي في مقبرة المدينة.

- وأين يدفن في هذه الحالة والمقبرة واحدة تضم الموتى جميعاً دون استثناء؟!

ارتفع صوت معترض من الحشد، وسرعان ما جاء الرد بارتفاع صوت آخر يرتجف غضباً واستنكاراً:

- فليدفن في أقرب مزبلة؛ إذ لا فرق ما دام مأواه جهنم وبأس المصير!

فتعالت الأصوات وتداخلت بين مؤيد ومعترض. بل تبودلت اللكمات بين أكثر من واحد؛ فعمد رجال الشرطة إلى التدخّل وذلك بتفريق المتجمّعين عنوة.

يومذاك عاد نديم إلى البيت وهو، على غير مألوف عادته، يغلي غضباً. وحينما سألته أمه عن الأمر حدّثها بما جرى، فتأمّلته باشفاق دون أن تحير جواباً.

ليلاً، وهم يتناولون العشاء، تطرّق أبوه بدوره إلى الأمر متمثّلاً بما حصل على تردي الأخلاٌق، وكيف أن الناس لم يعودوا يأبهون بالأعراف والتقاليد؛ وإلا كيف يصحّ دفن غريب منفي بتهمة انتمائه إلى حزب لا شأن له بالإسلام في مقبرة خاصة بالمسلمين؟ فاعترضت أمه على استحياء منوهة بأن غربة المتوفي تقتضي من المسلمين احتضانه لا نبذه. فعلّق أبوه متهكماً وهو يمعن في تقطيع قطعة اللحم التي في صحنه بالشوكة والسكين:

- لو كان الأمر كذلك أدعوا الله إلى أن يحشركِ معه!

فنفض نديم يده عن طبقه، ونهض محاولاً مغادرة المائدة لولا أن أباه رمقه بنظرة صارمة وسأله بين لقمتين:

- لماذ تغادر المائدة وأنت لم تكد تمس طبقك؟

- شبعتُ.

فسأله أبوه مشيراً بسكينه إلى طبقه:

- ما بال فخذ الدجاجة ذاك وكأني به لم يمس؟

- لا أحب اللحم.

- تناولْ طبق الخضر المسلوقة إذن.

- والخضر لا أحبها كذلك.

- في هذه الحالة يفترض بك الانتظار حتى أنهي عشائي.

فتهالك نديم على كرسيه رامقاً أباه بنظرة طويلة وهو ماضٍ في صراعه مع محتويات صحنه الآخذة بالتناقص على مهل.

- قيل لي إنك شوهدتَ ضمن هؤلاء الذين أثاروا اللغط بشأن هذا الذي توفي اليوم؟

سأله أبوه وهو يواصل تناول طعامه ليستطرد حينما وجده لا يحير جواباً:

- وعلمت أنك كنت من ضمن المحبذين دفنه في مقبرة عبد الله الصالح!

وتابع الأب مستنكراً:

- أتعلم أن هؤلاء الشيوعيين يعدّونك من ضمن خصومهم دون أن يشفع لك تملّقك الذليل إياهم؟

واستطرد وهو يتفنن في طريقة فصل قطعة لحم عن عظمتها:

- وليس هذا فحسب؛ بل إنهم يعملون إلى أن يجردوني – أنا والدك – ليس من حقولي وبساتيني ومطحنتي وبيتي فحسب، بل حتى من هذه السكين والشوكة اللتين بين يدي!

واستمر أبوه في مواصلة أسئلته التي لم يحظّ عنها بالأجوبة المطلوبة:

- أتعلم لماذا؟ لأنني إُقطاعي، وأنك بالتالي سليل إقطاعي؛ ولذا يفترض بهم تجريدك من كل شيء.. كل شيء حتى من دشداشتك هذه!

صباح اليوم التالي توجّه نديم إلى مدرسته وهو متلهّف لمعرفة نتيجة ما حصل البارحة، حتى إذا ما اتخذ مجلسه على مقعده في نهاية الصف لاحظ من خلال النافذة قبراً أقيم فوق قمة تل محاذٍ لسور المدرسة الخارجي!

منذ ذلك اليوم بات القبر مصدر اهتمام نديم الدائم: لا يكاد يدخل الصف صباحاً حتى يتفقّده وكأنه يخشى أن يختفي فلا يجد له أثراً، بيد أن ذلك القبر بقي على حاله هناك: فبعدما طلي بلون أبيض أهمل تحت وهج الشمس صيفاً وسيول الأمطار شتاء، لا شيء تغيّر فيه سوى بياض لونه الذي أخذ يعتكر رويداً رويداً ليغدو بلون التراب في خاتمة المطاف.

وكثيراً ما فكّر نديم بأن يزور ذلك القبر، ولم يمنعه عن تنفيذ ذلك سوى يقينه من أنه سيكون في مرمى أنظار زملائه كلهم؛ وبذلك يتيح لهم فرصة ذهبية للسخرية منه، فاستعاض عن ذلك بالتفكير بأسرة المتوفي، وهل أبلغوهم بنبأ موته؟ أم أنهم لا يزالون مطمئنين إلى أنه يواصل حياته في أحد المنافي؟

وكانت الفكرة التي كثيراً ما شغلت نديم تتلخص بأن هذا المنفي عاش حياته وتنقل بين سجون متعددة دون أن يخطر له يوماً بأنه سيموت في هذه المدينة، وسيدفن وحيداً فوق تل.

وحدث أن فوجئ نديم، ذات يوم، بسيارة صغيرة تقف عند سفح التل لتغادرها امرأة سافرة شدّت من فورها انتباهه؛ إذ لم يكن من المألوف أن تتجول النساء في المدينة سافرات!

تعقّب تلك المرأة بعينيه وهي ترتقي بصعوبة سفح التل، حتى إذا ما بلغت القبر وضعتْ شيئاً ما فوقه ووقفت هناك دقائق قبل أن تنحدر عائدة إلى السيارة!

تُرى ما هو ذلك الشيء الذي وضعته فوق القبر؟

ثم من تكون هذه المرأة؟

أهي زوجته؟

أم أمه؟

أم .. ما المانع من أن تكون حبيبته؟

عقب انتهاء الدوام تلكّأ نديم في مغادرة صفه. انتظر حتى خفتت الضجة وساد السكون بناية المدرسة ليخرج بدوره، لكنه انحرف عن الشارع ليستدير جانباً متخذاً سبيله نحو التل ليرتقيه بدوره، حتى إذا ما أشرف على القبر المهمل لاحظ باقة ورد مستقرّة فوقه!

(٤)

ودّعتُ نديم وقد اتفقت معه على موافاته غداً في بيته في الموعد نفسه. وبقيت، على مدى ساعات تلك الليلة، نهباً للقلق مما أنا مقدم عليه: فهل يعقل أن أنساق لقرار رجل لا يؤمن جانبه سبق له أن كان أحد نزلاء الشماعية؟ ثم كيف لي أن أجازف بكتابة فصول روايتي في دفتر لن يبقى في حوزتي يوماً ما؟ ألا يعني ذلك المجازفة بضياع جهدي؟ ثم هناك بتول: ترى كيف سأسوّغ لها سر انفرادي بزوجها يومياً وعلى مدى ساعات دون أن أسأل عنها؟ أتدينني؟ أم ستتفهّم هدفي من هذه اللقاءات؟!

أسئلة محيّرة سلبتني رغبتي الشديدة بالنوم، حتى إذا ما حان موعد اللقاء في اليوم التالي وجدتني أطرق باب بيت نديم دون تردد تاركاً غريب يقودني نحو الغرفة المنشودة؛ فتجربة نديم الاستثنائية مع الجنون كانت أهم بكثير من أن أفرّط بها مهما انطوى عملي ذاك على مجازفة؛ فيومها تذكرت حواري السابق مع صديقي زاهد سلمان عن ضرورة خوض تجربة جديدة في الكتابة بعدما استنفدت جدة تجربتي السابقة... حسن .. ها هو ذلك الجديد يأتيني على طبق من (جنون)، فكيف يسعني التفريط به؟!

استقبلني نديم بوجوم مكتفياً بمدّ أطراف أنامله ليصافحني ببرود، أهملني بعدها في جلستي على أحد الكراسي، تحيط بي تماثيله الغريبة، ليواصل ذرع الأرض جيئة وذهاباً.

- ألا ترى أنه لا يصحّ أن تنوب عني في كتابة أمور وقعت لي أنا شخصياً؟

سألني وقد وقف بقامته الطويلة النحيلة فوق رأسي. واستطرد قبل أن يتيح لي الوقت اللازم للرد:

- ماذا لو تبيّن لك أن جانباً مما سأرويه قد ينطوي على ضرب من اعتراف خطير يترتّب عليه إجراء جزائي؟

ما معنى تساؤله الغريب هذا؟ وعن أي إجراء جزائي يتحدث؟ أجبته مفتعلاً الضحك:

- ما يعنيني نديم بيك لا يتخطى كتابة ما ستقصّه عليّ بأفضل أسلوب ممكن؛ ذلك لأنني روائي ولست شرطياً!

- أعلم.. أعلم.. بيد أنه يفترض بمن يكتب سيرته الشخصية ألا يخفي شيئاً؛ بل يكشف الأمور على حقيقتها.

- وما الذي يمنعك عن ذلك؟

- ما يمنعني كون بعض الحقائق صادمة.

بادلته النظر وأنا في حيرة مما يعنيه بكلامه الغريب. وكان قد عاد يذرع الأرض لحظات ليضيف بعدها معتذراً:

- أرجوك لا تغضب؛ فأنا لا أستطيع أن أولي الآخرين ثقتي بيسر، والأمر لا يقتصر عليك وحدك؛ بل قد لا تصدقني لو اعترفت لك بأن الشخص الوحيد الذي أستطيع أن أثق به دون تردد هو غريب.. أتدري لماذا؟ لأنه أخرس وأصمّ!

وتابع بعد لحظات:

- وقد يكون الإنسان الوحيد الذي يحبني بصدق!

ومضى يحدثني بحكاية غريب حينما كان صبياً، يصطحبه أبوه من قريته إلى المدينة، ويتركه في السوق لغرض التسوّل؛ فيكتفي بالوقوف في موضعه ذارفاً الدموع؛ ذلك لأنه كان يجهل الطريقة التي تكفل له استدرار عطف الآخرين. وحدث أن تنبّه نديم، ذات يوم، إليه وهو في طريقه إلى المقهى؛ فنفحه بمبلغ ضئيل. وتكرر الأمر على امتداد أسابيع بات غريب في ختامها يلاحق نديم أينما مضى لينوب عنه في حمل ما يصادف له أن يبتاع من بضائع من أصحاب الدكاكين أو من محلات البقالة. ولم يتوقف غريب عند هذا الحد؛ بل طوّر تعلّقه بنديم بأن لم يعد يكتفي بإيصال ما يحمل إلى البيت؛ بل دخل، في إحدى المرات، في أعقابه إلى الحديقة لينصرف من فوره إلى العناية بها بخبرة فلاح يتقن عمله.

- وهنا ينتهي دوري ليبدأ دور أمي.

استدرك نديم ليتابع بعدها متحدثاً عن أمه التي وجدت أمامها فرصة لا تُعوّض سارعت باغتنامها على أفضل وجه؛ فاتفقت مع والد غريب، لقاء مبلغ مغرٍ، على أن يترك ابنه يعمل في خدمة بيتها؛ إذ بات من المألوف أن يُشاهد والد غريب، كل بضعة أشهر، قادماً بملابسه الخلقة من قريته ليخطر في الشارع الرئيس متخذاً سبيله نحو بيت العلوية محيياً في طريقه رواد المقاهي وأصحاب الحوانيت مردداً، دون مناسبة، أنه جاء لتفقّد أحوال ابنه الحبيب غريب!

وفي بيت العلوية لم يكن ينسى أن ينكبّ على كفّ أم نديم مقبّلاً، متوسلاً إليها أن تدعو له ولغريب المسكين - وهنا كان يصطنع البكاء - عند جدها رسول الله عساه أن يفك عقدة لسانه. بعدها كان يقضي نهاره في أكل وشرب ليقفل مع غروب الشمس عائداً إلى قريته بعدما يجد مبلغ من النقود سبيله إلى أحد جيوب سترته الخلقة.

حينها فقط كان غريب يتنفس الصعداء وقد اطمأن إلى أنه نجا بجلده؛ فمع كل زيارة يؤديها والده إلى بيت العلوية كان يعيش رعباً حقيقياً ظناً منه أنه لم يقدم إلا لاسترداده.

وختم نديم حكايته مع غريب بجلب دفتره من الخزانة والجلوس على أحد الكراسي لننصرف بعدها إلى مهمة تدوين جانب من سيرته الشخصية.

على هذا المنوال بدأنا العمل لنواصله بشكل يومي في تلك الغرفة الخلفية المطلّة على حديقة مهملة حيث التماثيل تحيط بنا من كل جانب، فأصغي ساعات إلى نديم وهو يحدثني - بطريقته البطيئة في الكلام والتي كان يتلعثم بها أحياناً بشكل يستحيل معه إدراك مغزى ما يعنيه - عن أمور أسمع بها أول مرة. بيد أن المشكلة تمثّلت بأنه لم يكن يسترسل في حديثه بالطريقة التي أتمناها؛ فقد يحدث أن يحجم عن مواصلة الكلام فجأة ليدير عينيه في محجريهما بشكل يبعث

على الخوف - يكفي أنه كان موصوماً بوصمة الجنون الفارقة! - طالباً مني - وقد صالب سبابته على فمه - الصمت. بل كان يعمد أحياناً إلى النهوض عن كرسيه على حين غرّة ليسير على أطراف أصابعه نحو باب غرفته الموارب حيث يرهف السمع لحظات!

هكذا انهمكنا، على مدى أسابيع، في كتابة تلك الفصول العشرة القصيرة، حتى إذا ما آن الأوان لكتابة الفصل الحادي عشر – وهو الفصل الذي وقع فيه الحادث الذي كان السبب في إيداعه الشماعية – حصل ما كنتُ أخشاه: فيوم حملتني لهفتي إلى بيته فوجئت بأنني لم أجد غريب في استقبالي – كما كان يحدث في كل لقاء – وليس هذا فحسب؛ بل كان الباب مغلقاً!

ما الذي حصل على مدى الساعات الماضية؟

سألت نفسي وأنا أطرق ذلك الباب الحديدي دون أن أحظى بجواب.

أأكون قد جئت في يوم لم نتفق على اللقاء فيه؟

وانشغلت لحظات بمراجعة حساباتي مع نفسي لأتيقن من أننا أكدنا أهمية هذا اللقاء لأهمية الفصل الذي كنا نروم كتابته!

عدتُ أواصل الطرق بعزيمة أشدّ حتى أن أحد الجيران قدم على الضجة التي أثرتها منتشلاً بذلك إيّاي من حيرتي؛ فقد أنبأني بأن الجميع سافروا البارحة على عجل إلى بغداد. وحين سألته عن سبب هذه السفرة المفاجئة؟ أجابني بصوت خفيض:

- ألم تسمع بما حصل البارحة؟ لقد حاول نديم بيك الانتحار لولا أنه أُنقذ في آخر لحظة وهو في الرمق الأخير!!

لم أحر جواباً، إنما بقيت أرمق الرجل مطوّلاً بنظرة حائرة لأعود بعدها إلى بيتي في "بدرة القديمة" وأنا لا أكاد أبصر طريقي؛ حتى أن زوجتي سألتني مرتعبة إن كان أحد أقربائنا قد مات؟! فأخبرتها بالأمر، فسألتني بمكر:

- وهل أنت جزع إلى هذا الحد لقلقك على مصير نديم أم مصير الرواية؟

- أنا قلق على الاثنين؛ ذلك لأن مصيرهما بات واحداً!

بعد أيام عدت بأسرتي إلى بغداد، بعدما تبيّن لي ألا طائل من وراء انتظار عودة نديم، لأعمد، في اليوم نفسه، إلى الاتصال بزاهد لأخبره بنجاحي في إقناع نديم بالإسهام في رفدي بجانب من ذكرياته، فصاح وقد اشتعل حماسة:

- ممتاز.. إنها فرصة لا تعوّض لتخرج عن النمط الذي استهلكته بأكثر من رواية: فهي أول مرة سيكون فيها بطلك المحوري خليطاً من مجنون ومتهم باقتراف جريمة قتل!

- وفنان أيضاً!

- وما علاقة نديم بالفن؟ فلم يسبق لك أن أخبرتني أن له ميولاً فنية.

- ذلك لأنني لم أكتشف هذا الجانب فيه إلا في سفرتي الأخيرة.

ولخّصت له كل ما جرى بيني وبين نديم ونجاحي في كتابة عشرة فصول قصيرة من سيرته، فقاطعني مستبشراً:

- عظيم.. أهنئك على نجاحك.

- انتظر.. لا تستبق النتيجة؛ فقد ضاع كل شيء!

وتابعت فحدثته عن محاولة نديم الانتحار وسفره بصحبة بتول إلى بغداد، فعاد زاهد يقاطعني:

- في هذه الحالة ما الذي يمنعك من لقائه بأقرب فرصة ما دام موجوداً هنا في بغداد؟

- وما أدراني في أي موضع هو من بغداد الآن؟

- والعمل؟

- لا أملك سوى الاتصال برقمه في بدرة؛ إذ لا يعقل ألا يعود هو أو بتول إلى بيتهما في النهاية.

بيد أن اتصالاتي اليومية برقم نديم لم تسفر عن نتيجة؛ فقد كان الهاتف يواصل رنينه وقتاً طويلاً، ومعه كنت أتخيّل أصداء ذلك الرنين وهي تتردد في ذلك البيت الواسع بحديقتيه وبغرفه العديدة التي ترجّع، على مدى أربع وعشرين ساعة، أصداء ساعة غرفة الاستقبال في دقاتها الأبدية.

لكنني كوفئت أخيراً على إلحاحي بصوت بتول وهي ترد عليّ. أخبرتني أنها عادت ذلك اليوم من بغداد بعد توجهها إلى هناك ثانية، وحينما سألتها عما حصل؟ ردت قائلة إن نديم كاد ينجح في الانتحار لولا أن نوبة صرع ألمّتْ به في اللحظة التي أدخل رأسه في أنشوطة كان قد عقد طرفها الآخر بواحد من عوارض السقف؛ إذ ما كاد يركل الكرسي الذي اعتلاه حتى أطلق ذلك الصراخ المخيف الذي يسبق عادة نوبات صرعه؛ فسمعته وهي في المطبخ، فهرعت نحو غرفته، وغريب يجري في أثرها، لتفاجأ بمنظره المفزع وقد تدلّى جسده من الحبل وثمة تشنجات قد أخذتْ بأطرافه، فانقضّ غريب على ساقيه ممسكاً بهما بإحكام مخففاً بذلك من ضغط الأنشوطة على عنقه، في حين عادت هي مهرولة إلى المطبخ لتلتقط سكيناً قطعت بها الحبل.

- وأين هو الآن؟

سألتها وأنا أدعو الله في سري أن يكون نديم قد رافقها في عودتها إلى بدرة، لكنها خيّبتْ أملي؛ فقد أجابتني قائلة:

- في مستشفى الرشاد طبعاً؛ إذ أكّد الأطباء أن إقامته هناك ستطول حرصاً منهم على مراقبته ردحاً من الزمن ليطمئنوا إلى أنه لن يعاود الكرّة مجدداً.

- وكم تظنين أن إقامته ستطول؟ أياماً أم أسابيع؟

فأجابتني متهكمة:

- الأمر مرتهن بإرادة أطبائه.. ويبدو أنه ليس في عجلة من أمره؛ فقد عمد إلى الاتصال بصديقه القديم عيسى ليتكفّل بتوفير ما ستمسّ به الحاجة إليه، كما زوّدني بقائمة بعدد من كتب مكتبته أوصاني بجلبها إليه فضلاً عن دفتره القديم.

وبقيتُ في حيرة من كيفية التصرّف؛ فوسط أجواء محتقنة تنذر بحتمية نشوب حرب جديدة كان يُعدّ لها على قدم وساق ها هي آمالي وقد أوشكت أن تتبدد بالحصول على تلك الفصول العشرة التي دوّنتها في الدفتر. وبقي زاهد يصرّ – في كل اتصال أو لقاء – على ضرورة التوجّه إلى الشماعية للقاء نديم ولتكن النتيجة ما تكون.

وهكذا شددت عزمي ذات يوم فذهبت إلى هناك في سيارة أجرة كدتُ أتورط مع سائقها في مشادّة؛ فقد بقي يلومني، على مدى الوقت الذي استغرقته رحلتنا، على توريطه بالتوجّه إلى (تلفات الدنيا)، حتى إذا ما اقتربنا من الوصول إلى المستشفى أخذ يقرّعني هذه المرة لكون الشوارع تكاد تكون غير معبّدة مملوءة بالمطبّات والحفر!

وزاد موظف استعلامات المستشفى من توتر أعصابي حينما أخذ يدقق متسائلاً بإلحاح غريب عن الصلة التي تربطني بالنزيل والدافع إلى زيارتي إياه، مسوّغاً عمله ذاك بحرص الأطباء على تجنيبه ما يثيره بسبب حرج وضعه النفسي، حتى إذا ما اقتنع بحجة قرابتي له بعث أحد العاملين لاستدعائه. بيد أن ذلك الرجل سرعان عاد معلناً رفض نديم القدوم!

- لماذا؟

سأله موظف الاستعلامات مستغرباً.

- قال إنه لا يستطيع ترك العمل الذي بين يديه!

- وأي عمل هذا الذي يشغل نزيلاً في الشماعية؟!

- إنه في المشغل منهمك بنحت تمثال صخري!

- حقاً إنه مجنون!.. عد إليه واخبره أن في وسع تمثاله الانتظار بعض الوقت!

والتفت نحوي مخاطباً إياي وهو يضحك:

- هذه أحدث تقيلعة للجنون: رفض مجنون القدوم لانشغاله بنحت تمثال!!

ومرت دقائق قبل أن يظهر نديم بصدرية عمل متسخة. وكان عنقه ملفوفاً بضماد وكفاه ملوثتين بمسحوق أبيض. استقبلني ببرود غريب اضطرني معه إلى أن أذكّره من أكون، فأجابني بكل برود:

- أعلم.. أعلم.. لا مسوّغ لتعرّفني بنفسك.

قبع بعدها صامتاً على كرسيّه، يسعل بين فينة وأخرى متحسساً، في الوقت نفسه، ضماد عنقه. وبقي طوال الدقائق التي قضاها معي، وأنا أحدّثه بغرضي من زيارته، لا يوليني انتباهاً؛

فقد بدا منصرفاً إلى مراقبة موظف الاستعلامات في حركاته وسكناته حتى أنني اضطررت إلى أن أسأله عما يقلقه؟ فأجابني بصوت خفيض وهو يومئ بحركة من رأسه نحو الموظف:

- ألا ترى أنه لا يكفّ عن ترصّدي لحظة واحدة؟!

- دعك منه وليترصّدك قدر ما يشاء.

- كيف أدعه وشأنه؟ والدفتر؟ هل تضمن لي أنه لا يفكر بسرقته مني؟

سألني وقد اربدّ وجهه وازرقّ غضباً. ونهض عن كرسيّه على غير توقّع مقترحاً عليّ التجوال في حدائق المستشفى، فتعقبته إلى هناك لأشاركه في ذرع الأرض.

ظننته قلقاً بسبب الأخبار التي تشير إلى حتمية نشوب الحرب؛ فخاطبته في محاولة مني لتهدئته:

- لا مسوّغ للقلق؛ هناك جهود تُبذل لتلافي نشوب الحرب.

لكنه أجابني من فوره:

- الحرب حاصلة لا محالة، بيد أن ذلك ليس مصدر قلقي الوحيد؛ بل ما يرعبني أكثر كوننا مقبلين على أمر آخر أكثر جسامة من الحرب!

- وما هو هذا الأمر الذي نحن مقبلون عليه؟

- لا أعلم.

- أحدث تغيير ما بشأن المستشفى.. اعني مستشفى الرشاد؟

- وما شأن مستشفى الرشاد بكلامي؟ ما نحن مقبلون عليه سيتخطى بخطورته هذا المستشفى البائس بمراحل ومراحل..

توقف لحظات قبل أن يتابع مستدركاً:

- قد يكون المستشفى منطلقاً لما سيحصل بحكم كونه ببساطة مستشفى للمجانين، بيد أن النتيجة ستكون أشمل بشكل لا يصدّق، ستكون كارثية بمعنى الكلمة!

لم أجبه بشيء، إنما بقيت أجاريه في ذرع الأرض في انتظار أن يفصح عما يعنيه. وكان قد توقّف عند صنبور منتصب في جانب من الحديقة لينهمك لحظات بغسل يديه، حتى إذا ما انتهى عاد يسألني:

- هل سألت نفسك عن معنى هذه الاجراءات الشاذة التي تجري منذ أسابيع على قدم وساق؟

- أية إجراءات؟

- غلق الحدود كلها شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً وما شاكل ذلك.

- حصل ذلك تحت الفصل السابع للقرار الصادر عن الأمم المتحدة عقب احتلال الكويت.

- يا له من استنتاج ساذج!

صاح متهكماً. وتابع وقد عدنا نواصل ذرع الأرض:

- فُرض الحصار تلافياً لأمر بالغ الخطورة لا يمكن تداركه.

دهشت لما يقول؛ فتحصّنت بالصمت في انتظار ما سينتهي إليه الأمر.

- هل سبق لك أن سمعت أو قرأت في التاريخ القديم أو الحديث عن إجماع العالم كله في حصار شعب معين؟

سألني ليسترسل في كلامه:

- لم تسمع طبعاً؛ ذلك لأنه لم يحدث على امتداد التاريخ سوى حصارات معروفة لهذه المدينة أو تلك... أما حصار على هذه الشاكلة.. فأمر لم يسبق له مثيل قط.

- والسبب؟

- السبب معروف: إحكام العزلة علينا حرصاً على أنفسهم من أن نصيبهم بالعدوى.

وفاجأني بأن سألني منفعلاً:

- واضح أنك لا تصدقني وتظنني أهذي!

وحينما وجدني لا أحير جواباً غادرني دون وداع. حتى إذا ما ابتعد توقف فجأة ليهتف بي وقد استدار نحوي:

- إيّاك من زيارتي مرة أخرى!

وامتنعت عن زيارته بطبيعة الحال مؤمّلاً نفسي باحتمال أن يغيّر موقفه في النهاية فيتصل بي، بيد أن آمالي كلها تبددت؛ فبعد مرور أسابيع قامت القيامة فاندلعت حرب "عاصفة الصحراء"!

(فريد عمران)

كانت الكتب وحدها التي قادت نديم إلى التعرّف إلى فريد عمران؛ فقبلها كان يتجنّب الدنو منه ليس لكونه مصدوراً لا يكفّ عن السعال والبصق في منديله فحسب، بل لأنه كان يُعدّ واحداً من أبعد المنفيين صيتاً: اشتهر بأنه لم يترك سجناً من سجون العراق لم يمر به قبل أن يستقر به المقام في منفى بدرة.

وكان المقهى مركز تجمّع غالبية هؤلاء المنفيين: يقضون فيه سحابة نهارهم بالثرثرة بآخر أخبار الساعة والإصغاء إلى المذياع. وكان عدد منهم ينهمك بلعب الطاولة والدومينو حيث كان يطيب لنديم مراقبتهم ولا سيما حينما يتورّط اثنان منهم – أحدهما منفيّ والآخر أحد رجال الأمن – بمشادّة كلامية بسبب لجوء أحدهما إلى الغش في اللعب؛ فيتصايح الاثنان، وقد يعمد أحدهما إلى إطباق علبة الطاولة بعنف أو يبعثر قطع الدومينو احتجاجاً، فلا يملك نديم سوى الانحياز إلى النزيه منهما في اللعبة سواء أكان المنفي أم رجل الأمن.

على هذه الشاكلة ألف نديم أن يزجي وقته في المقهى، ملاحظاً واحداً من المنفيين شذّ عن زملائه بحرصه المبالغ فيه على الابتعاد عنهم والانزواء في أبعد موضع لينفرد بكتاب ما. كان ضئيل الحجم، بوجه هضيم وعينين معتكرتين، يميل شعره القصير الخفيف إلى الشقرة. وكان نديم ينسى وجوده لانصرافه إلى مراقبة لاعبي الطاولة والدومينو لولا أنه كان يلفت الأنظار إليه مرغماً حينما يقع أحياناً أسير نوبة سعال مؤلمة تكاد تجهز عليه؛ فكان نديم يراقبه بإشفاق وهو يواصل السعال مطوّلاً قبل أن تنحسر النوبة عنه إذ يعمد إلى مسح فمه بمنديله ليعود بعدها إلى كتابه مواصلاً القراءة فيه من جديد.

- اسمه فريد عمران، يعدّ واحداً من أخطر المنفيين برغم سمات المرض الغالبة على هيئته.

أسرّ صاحب المقهى إلى نديم بهذه المعلومات رداً عن سؤال طرحه عليه، فعاد نديم يسأله:

- وكيف يتأتى له الحصول على كل تلك الكتب التي لا يملّ من قراءتها في زاوية مقهاك إذا كان واحداً من أخطر المنفيين كما تقول؟

- هؤلاء المنفيون أبالسة بهيئة بشر: لهم وسائلهم الخاصة التي تكفل لهم الحصول على ما يريدون برغم أعين الشرطة التي تتعقبهم في كل خطوة يخطونها!

آنذاك كان نديم قد أنهى دراسته الثانوية. وكان قد مرّ عامان على حرمانه من الدنو من مكتبة البيت بعدما أمسك به والده بـ(الجرم المشهود) وهو يقرأ في واحد من الكتب المحظورة، فكانت النتيجة إغلاق المكتبة في وجهه مانعاً إياه الدنوّ منها.

لم تكد تمضي أيام حتى تنبّه نديم إلى فريد عمران يحييه مبتسماً لحظة مروره به في المقهى متخذاً سبيله بكتابه نحو زاويته المعهودة، حتى إذا ما انصرم أسبوع فوجئ نديم به يتوقف في مروره به مستأذناً إياه للسماح له بمشاركته في جلسته حيث ركن كتابه الذي كان يحمله معه على الطاولة المبقّعة بآثار أعقاب إستكانات الشاي.

- أخبرني صاحب المقهى أنك سألته عن المصدر الذي يزوّدني بكل هذه الكتب.

قالها فريد. واستطرد وهو يشير إلى اسم مؤلف الكتاب:

- إنها إحدى روايات الروائي الفرنسي أميل زولا، وهي، كما ترى، لا تدخل في خانة الكتب الممنوعة.

- لا شأن لي بالكتب الممنوعة ولا السياسة عموماً؛ فأنا لا أشتريها بفلسين!

أجابه نديم بحسم وهو يدقق النظر في وجهه الشاحب الهضيم.

- لعلك معذور في ذلك؛ فدنانير أبيك الإقطاعي توفّر لك الرفاهية بمعزل عن التورّط بالسياسة!

رد فريد شافعاً كلامه بابتسامة خففت بعض الشيء من خشونة ما انطوت عليه كلماته من مغزى. وتابع بعد لحظات:

- في وسعي أن أعيرك قدر ما تشاء من الروايات الصادرة ضمن سلسلة "روايات الهلال" ولا سيما الروايات البوليسية التي ستمسك بأنفاسك كما هو شأن روايتي "آرثر كونان دويل" "الخيط الدموي" و"الكلب الجهنمي" مثلاً.

بدا الإغراء أكثر إثارة من أية مكابرة أو لا مبالاة؛ فنديم كان يتحرّق رغبة لقراءة هذا النمط من الروايات بعدما تشبّع بقراءة كتب التراث وروايات جرجي زيدان عن تاريخ الإسلام.

- ولماذا تخصّني بهذا الجميل دون غيري؟

سأله نديم مستنكراً، فردّ فريد ضاحكاً وقد خفّض صوته:

- لعلني أحاول بذلك كسبك إلى جانبنا؛ فلا يضيرنا في شيء كسب ولاء البرجوازيين؛ ألم تسمع بأنجلز؟ كان بالغ الثراء، إلا أن ذلك لم يمنعه من أن يصبح رفيق ماركس في النضال!

- لكنك لم تخبرني بالمصدر الذي يزوّدك بكل هذه الكتب برغم أنك مراقب من قبل رجال الشرطة والأمن!

- لا عليك صديقي الشاب؛ فبقدر ما تعجّ هذه المدينة الطيبة بهؤلاء الزبانية من شرطة وأمن هناك جنود مجهولون يشاركوننا في تحمّل همّ النفي وذلك بالتخفيف عنّا بوسائل شتى منها تزويدنا بالكتب.

هكذا بدأت صداقة نديم لفريد، هذه الصداقة التي عمد فريد إلى تعزيزها بإعارة نديم روايات بوليسية في الغالب باتت زاده اليومي: يقرؤها تباعاً بسرعة مخيفة دون أن يكفّ عن سؤال فريد، كلما التقاه، عن خاتمة الرواية التي يكون منهمكاً بقراءتها يومذاك؛ فقد كان في عجلة دائمة من أمره: لا يكاد يشرع في قراءة الصفحة الأولى من أية رواية حتى يتحرّق لهفة لمعرفة خاتمتها، ويوم أعاره فريد رواية دستويفسكي "المرابية العجوز" احتار في ما يقرأ؛ فعلى النقيض من الروايات البوليسية التي تحتفظ بالسر حتى آخر صفحاتها، كشف الروائي في روايته تلك عن الجريمة وعن دوافعها منذ الفصول الأولى؛ وبذلك بات نديم في حيرة مما يقرأ: إذ لا

يعقل أن يعدّ هذه الرواية بوليسية، كما أنها، في الوقت نفسه، رواية محورها حصول جريمة؛ فكيف له أن يصنّفها في هذه الحالة؟

سؤال سارع بطرحه على فريد حال لقائهما في اليوم التالي، فقضى فريد لحظات في سعال مؤلم خيّل لنديم أنه سيجهز عليه، حتى إذا ما انحسرت النوبة أجابه وهو يمسح فمه بمنديله:

- أعترف بأنني لم أقرأ هذه النسخة التي بين يديك؛ ذلك لأنني سبق لي أن قرأتها في ترجمة كاملة صدرت بعنوانها الأصلي "الجريمة والعقاب"، وكانت ضخمة بمئات الصفحات وليست على شاكلة هذه الترجمات المختصرة التي تصدر ضمن سلسلة "روايات الهلال"... أمهلني أسبوعاً أو اثنين وسآتيك بتلك الترجمة الكاملة؛ وحينها سنتحدث عنها ما طاب لنا الحديث.

بيد أن ذلك اللقاء المرتقب لم يحصل بسبب حدث استثنائي هزّ مدينة بدرة على أثر وصول السينما السيّارة التي تقرر أن تبثّ عرضها مساء اليوم نفسه.

وكانت السينما السيّارة لا تقدم عادة إلا في أعقاب أحداث سياسية بالغة الأهمية تحرص السلطات الحكومية على تعريف بسطاء الناس بها والترويج لها، وكان الحدث الرئيس الذي توقّع نديم عرضه تلك الليلة يتعلق بتسلّم ملكة بريطانيا الجديدة أليزابيث الثانية السلطة قبل أشهر، في السادس عشر من شباط على وجه التحديد.

وكانت هذه العروض السينمائية تستقطب عادة فضول الناس برغم أنها – كما لاحظ نديم ذلك في أكثر من عرض سابق – ليست أفلاماً روائية تستدعي الاهتمام قدر ما كانت خليطاً من أخبار سياسية وإجتماعية تتخللها عروض رياضية وسباقات خيول، فضلاً عن الإعلان عن أحدث الابتكارات التكنولوجية والدعاية لآخر المنتوجات الأجنبية وما شاكل ذلك.

وكانت واجهة دائرة البريد الواسعة قد أختيرت كشاشة للعرض؛ فتقاطر الناس إلى هناك بالمئات مع غروب الشمس. وكان صاحب المقهى قد أخرج تخوته كلها موزّعاً إيّاها على الرصيف بادئاً استثمار المناسبة بالشروع في توزيع إستكانات الشاي – وقبل موعد العرض المرتقب - لمن يحرص على حجز موقع له سلفاً.

- تمنيتُ لو كان فريد ضمن الحاضرين لكي (يتمتع) بتتويج ملكة الدولة التي يناصبها العداء!

أسرّ بها نديم متهكّماً إلى صاحب المقهى لحظة وضع إستكان شاي على طاولته، فأجابه هذا وقد أخذ السؤال على محمل الجد:

- وكيف يحضر وهو ملزم بأن لا يكون خارج البيت مع غروب الشمس والتوقيع في سجلّ الشرطة؟

وكان اللغط في تصاعد مستمر بمضي الوقت؛ إذ لم يقتصر الحضور على قاطني المدينة فحسب، بل شمل حشود الفلاحين الموزعين في القرى المجاورة. بيد أن الصمت سرعان ما خيّم لحظة انصبّتْ، مع دفقة موسيقى، حزمة ضوء على واجهة دائرة البريد مصدرها جهاز العرض المنتصب فوق السيارة. وأخذت الصور تتلاحق حيث لاح أحد شوارع لندن وقد غصّ بجمهور مترقّب. وسرعان ما ظهرت العربة الملكية المذهّبة – التي سبق لنديم أن قرأ الكثير عنها - من

يمين الشاشة تسحبها ثمانية خيول مطهّمة، يعتلي صهواتها فرسان إنكليز بكامل زينتهم. وظهر وجه الملكة الشابة الجميل يملأ نافذة العربة وهي تحيي المحتفين بها بإبتسامة فاتنة تصحبها حركة رشيقة من كفها الغارقة بقفّاز أبيض.

في تلك اللحظة جفل نديم على صوت يرتفع، من وسط الحشد المتطلّع إلى الشاشة، يهتف بسقوط الاستعمار، ومعه مرقت حصاة صافرة في الهواء قبل أن ترتطم بواجهة دائرة البريد التي سرعان ما أُمطرتْ بسيل من الحصى على وقع هتافات جماعية مناوئة للبريطانيين!

وكان الظلام قد ساد بعدما قطع جهاز السينما العرض، وبدا ذلك حافزاً مضافاً إلى التحدي؛ فقد ازداد الهتاف بسقوط الاستعمار ارتفاعاً، ومعها أزّت أولى الرصاصات. وكانت الصرخات وكلمات الاحتجاج قد أخذت تنطلق من الحشود وهي تتراجع متلاطمة وكل واحد يبحث لنفسه عن ملاذ.

- نديم بيك.. تحصّن بالداخل؛ فردّ الشرطة والأمن على ما يحصل لن يتأخر طويلاً!

أهاب صاحب المقهى بنديم ناصحاً؛ فمرق داخلاً مع آخرين كانوا قد سبقوه بالتحصّن هناك. ومن الخارج ظلت أصوات الرصاص وصرخات الهاربين في كل اتجاه تتردد بعض الوقت قبل أن يعمّ الصمت.

- ما حدث هو من فعل المتعاونين مع المنفيين!

سمع نديم صوتاً يرتفع في ظلام المقهى، وسرعان ما أعقبه آخر:

- ذلك أمر مؤكد؛ فترْكهم أحراراً في تجوالهم في المدينة ساعدهم على عقد صلات مع العديد من المتعاطفين معهم.

وتذكّر نديم ما حصل قبل عامين على أثر رفض دفن ذلك المنفي في مقبرة المدينة واضطرار رفاقه إلى دفنه فوق ذلك التل المحاذي لسور المدرسة الخارجي.

يبدو أن ما يحصل الليلة أخطر بكثير، ومن المؤكد أنه سيسفر عن اعتقال العديدين!

صباح اليوم التالي تقاطر الجيران على نديم، لحظة وقوفه دقائق عند باب الحديقة، منبئين إياه بأسماء من تمّ اعتقالهم، حتى إذا ما قارب النهار على الانتصاف فوجئ بباب بيتهم يدقّ وبرجل أمن يرجوه (التفضّل) للمثول عند ضابط الأمن!

- وما شأني أنا بضابطك؟ ألا يحتمل أن تكون قد أخطأت في العنوان يا هذا؟

صاح نديم بالرجل مقرّعاً. وكان أبوه قد حضر على صراخه سائلاً عما يجري؟ وحينما علم بالأمر طلب من الرجل العودة إلى السراي معاهداً إياه أنه سيصل إلى هناك في أعقابه مصطحباً ابنه، فغادره الرجل وهو يقول بكل احترام:

- تأمر إسكندر بيك.

وصاح نديم منفعلاً حال انصراف رجل الأمن:

- ولماذا تصحبني إلى هناك يا أبي؟ ما شأني أنا بما حدث؟

- منذ رأيت الكتب تنهال عليك بشكل يومي أدركت أنك بصدد توريطي بأمر ما سيسبب في الانتقاص من هيبتي... هيا استبدل ملابسك وانتظرني ريثما استبدل بدوري ملابسي لنذهب إلى السراي.

ولم يمضِ سوى دقائق حتى تقدّم الأب ابنه مغادراً البيت وقد ارتدى أفخر ملابسه معتمراً طربوشه الأحمر، ورائحة عطره تفوح من حوله. اتخذ الاثنان سبيلهما نحو السراي حيث كان المارّة وأصحاب الدكاكين والمخازن ومحلات البقالة يهبّون واقفين على امتداد الشارع، محيين إياهما باحترام وقد ارتسمت في أعين معظمهم نظرات فضول وترقّب وكأن كل واحد منهم يسأل نفسه عن كيفية تمكّن أكبر وجهاء المدينة من التنصّل من هذا المأزق الذي وضعه ابنه فيه!

- أتلاحظ كل هذا التبجيل والاحترام اللذين يبديهما لنا هؤلاء المتراصفون على جانبي الشارع؟ ثق يا بني أنهم يتحرّقون لهفة لرؤيتنا مهانين ذليلين على أيدي الشرطة لينالوا منّا بدورهم لا لذنب اقترفناه سوى أن الله فضّل علينا بما حرمهم منه!

تكلّم إسكندر بيك دون أن يلتفت نحو ابنه، فسارع نديم يؤكد أنه لا شأن له بما جرى ليلة البارحة من قريب أو بعيد، فعاد الأب يخاطبه مواصلاً التحديق إلى بعيد:

- دعك من هذا الكلام واسمعني جيداً: سأتكفّل بغلق الموضوع شريطة ان تعاهدني على تجنّب توريطي بمواقف مماثلة في المستقبل.

وشقّ الاثنان سبيلهما، عند باب السراي، وسط عشرات تجمّعوا هناك ممن ألقي القبض على أبنائهم أو أقاربهم على أثر ما حصل البارحة. وأهاب الأب بابنه، قبل أن يدخل إلى إحدى الغرف، طالباً منه انتظاره ريثما يتفاهم مع ضابط الأمن.

وعلى مدى الدقائق التي قضاها نديم في وقفته، موازناً ثقله على رجليه بالتناوب، راقب بقلق رجال الأمن وهم يتعاقبون في دخول السراي مصطحبين شباباً سرعان ما كانوا يودعونهم غرفة "التوقيف" القائمة في الجانب الآخر حيث كان عشرات الموقوفين يتزاحمون على نافذتها الوحيدة محاولين الإطلال منها دون أن يبخلوا على نديم بأقبح النعوت التي كان من ضمنها (بزر الجكليت)!

- تفضّل نديم بيك.

تنبّه نديم على صوت شرطي وهو يدعوه إلى دخول الغرفة التي سبق لأبيه أن دخلها، فتوجّه إلى هناك وهو لا يكاد يبصر سبيله وقد ارتفع وجيب قلبه. وأمامه لاحظ ضابط الأمن متصدّراً مكتبه العريض المثقل بسجلات وجهاز هاتف، وقد جلس والده على كرسي إلى يمينه، تعلو رأسيهما صورتا ولي العهد الأمير فيصل والوصي على العرش الأمير عبد الإله.

- أهلاً بالبيك الفتيّ .. تمنيتُ لو أن أستقبالي إياك جرى في ظرف آخر.. لكن ما العمل لمن تحكّم برأسه طيش الشباب؟!

كلّمه ضابط الأمن بقسوة. وتابع وقد دفع نحوه عبر المكتب سجلاً مفتوحاً على إحدى الصفحات:

- وقّع هنا.. وحذار أن تضطرني إلى استدعائك في المستقبل للتوقيع مرة أخرى.. أتسمعني؟

وسمع نديم، وهو يسارع بالتوقيع على الصفحة المنشودة، والده ينوب عنه في الرد:

- فليثق جنابكم أن ابني لن يعيد التوقيع في هذا السجلّ كرة أخرى؛ وأنا الضامن لكم ذلك.

ونهض أبوه مصافحاً الضابط مكرراً له شكره. وفي مرورهما قرب غرفة التوقيف تناهت صرخات الاحتجاج إلى سمعه تخللتها كلمات أحدهم الساخرة:

- تيتي تيتي مثل ما رحتي جيتي!

وفي الطريق عاد أبوه يحذّره من تكرار الأمر، وحينما أكّد نديم براءته مما جرى البارحة قاطعه الأب محدثاً إياه عما أخبره به ضابط الأمن بشأن تحقيقه الذي أسفر عن اكتشاف خليّة للحزب الشيوعي كان المنفي فريد عمران قد نجح في تشكيلها من أبناء المدينة وعدد من فلاحي القرى المجاورة، خليّة عُدّ نديم أحد مناصريها!

- لا صحة لذلك؛ فأنا لا علم لي بهذا الأمر!

رد نديم مستنكراً، فزجره الأب دون أن يلتفت إليه:

- وهل ظننتَ أن هذا الشيوعي المسلول كان يعيرك كل تلك الكتب لوجه الله؟!

(٥)

هكذا جرت الأحداث التي سبقت عودتي بأسرتي مجدداً إلى مدينة بدرة لاجئاً هذه المرة بسبب اندلاع "عاصفة الصحراء"، حيث كلّفتني بتول بضرورة السفر إلى بغداد للبحث عن نديم على أثر شيوع أنباء تشير إلى هرب النزلاء من مستشفى الرشاد بعدما استحالت الحياة فيه. وكانت الساعة في حدود الحادية عشرة ضحى لحظة وصولي إلى بغداد وعثوري على سيارة رضي سائقها بإيصالي إلى العنوان المنشود.

- احمد ربك للقائك إياي؛ ذلك لأنه ما من سائق كان سيجازف، والطائرات الأمريكية قد تغير في أية لحظة برغم هذا الجو العاصف، بسلوك شوارع غير معبّدة للوصول بك إلى هذه المنطقة النائية!

خاطبني السائق لحظة تهالكتُ على المقعد الخلفي لسيارته مخلّفاً ورائي ضجة حشود المسافرين في كراج النهضة؛ فاستعذتُ بالله وقد تذكّرتُ تورّطي بمشادة كلامية مع السائق الذي حملني بسيارته في هذه الطرق نفسها في رحلتي السابقة؛ فقررت التحصّن بالصمت هذه المرة تجنّباً لما لا يُحمد عقباه، بيد أن السائق بقي، على مدى الوقت الذي استغرقته رحلتنا، يشكك بجدوى رحلتي إلى هناك مؤكّداً أن المستشفى، كما يشاع، قد يكون أخلي من نزلائه.

- هل أنت متأكد مما تقول؟ أم أن كلامك لا يتخطى الظن والتخمين؟

سألته مستاء وقد فاض بي الكيل، فصاح في محاولة لئيمة منه للإجهاز على آخر آمالي:

- عمي أي ظن وتخمين وأنا خير العارفين بما جرى في هذا المستشفى البائس؛ فبيتي يقع على بُعد بضعة شوارع منه؟!

وأردف، وسيارته تسير بأقصى سرعتها وسط الجو العاصف، معززاً كلامه، هذه المرة، بذكر شواهد عما جرى. وختم حديثه الطويل بقوله:

- يقال إن العشرات من المرضى ماتوا بسبب انعدام الخدمات حتى أن الأطباء ومساعديهم عجزوا عن إيجاد الأماكن اللازمة لدفنهم!

قلتُ بعناد، وأنا أتزحزح في المقعد سعياً مني للتخلّص عبثاً من عينيه الجاحظتين اللتين كان يتابع بهما حركاتي وسكناتي من خلال المرآة الداخلية التي تعلو رأسه:

- لا بدّ من وجود شخص ما هناك: طبيب، موظف صحي، كاتب.. لا بدّ من وجود جهة معنيّة بهذا الأمر في الوسع مراجعتها عند الحاجة.

- وجود جهة معنيّة بهذا الأمر؟ هل أنت جاد في كلامك هذا؟

ردد كلامي ساخراً، وأردف وهو يحاول أن يتخطى سيارة كانت تسير أمامه ببطء قاتل برغم أن الشارع كان خالياً:

- عمي أية جهة معنيّة هذه التي ستسألها والدنيا، كما ترى، مقلوبة وكأن القيامة قامتْ؟!

وواصل كلامه الغاضب، وعيناه الجاحظتان تلاحقانني بنظراتهما في مرآته اللعينة، في حديث طويل تخللته إشارات من سبابته نحو الأعلى في دعوة منه لأتنبه لعصف الريح. وكان الغبار قد بلغ من كثافته أنك لا تكاد تبصر أبعد من بضعة أمتار منك؛ حتى أن معالم الشوارع من حولي، من محلات وبيوت وعمارات، كانت تظهر بصورة غريبة توحي لي بأنني أجتاز شوارعَ مجهولةً في مدينة أدخلها أول مرة لا مدينة بغداد!

- عمي لقد ضيّع العقلاء، وسط كل هذه المحن والكوارث، عقولهم؛ فكيف يكون الأمر مع المجانين؟

أنهى السائق حديثه الطويل، فأجبته بأكثر الكلمات بروداً مردداً، بعدوى منه، كلمة (عمي) التي كان يبالغ في تكرارها:

- عمي لا مفر للإنسان من أن يتفقّد أحوال أقاربه ومعارفه في الأهوال والمحن برغم كل شيء؛ ألسنا بشراً؟

- ألسنا بشراً؟.. نعم وثلث أنعام!!

عاد السائق يردد كلماتي بطريقته الساخرة ليستغرق من جديد في (منلوج) لم أفقه منه سوى كلمة (عمي) التي كانت تطفو على السطح من حين إلى آخر. وكنا قد اقتربنا من المكان المنشود؛ فطالعتني المشاهد نفسها التي تأمّلتها بيأس في رحلتي السابقة حيث برك المياه الآسنة تحيط بالشوارع المحفّرة المملوءة بالمطبات، وثمة تلال من الأزبال تلوح هنا وهناك، فضلاً عن أبقار سارحة وحمير مشدودة إلى عربات نفط، وأطفال لم يمنعهم الجو العاصف من أن يتراكضوا حفاةً وسط أسراب الدجاج.

- وصلنا.

أعلن السائق بطريقة احتفالية ساخرة وهو يقود سيارته بمحاذاة سور المستشفى المديد. وأشار إلى تلّ في الجانب الآخر من الشارع قال إن مقبرة للأطفال تمتد خلفه فضلاً عن مجمع لهياكل السيارات المهملة. وكان ثمة برج يطل علينا لأحد معامل الطابوق.

- انظر!.. هل تأكدتَ الآن أنك جئتَ متأخراً؟

قالها السائق وهو يوقف سيارته مشيراً بحركة من ذقنه نحو البوّابة الحجرية الشاهقة التي توسّطها الباب الصغير الذي كان قد حُطّم!

وغادر سيارته صافقاً بابها وراءه بعنف، وفتح صندوقها ليلتقط منه مفكّ صامولات ضخماً وهو يقول:

- لا أملك سلاحاً غيره للدفاع؛ فضربة سديدة منه تنيخ ثوراً في موضعه!

- وما حاجتنا إلى سلاح؟ فنحن لسنا بصدد الدخول في ساحة معركة، بل مستشفى لا أكثر!

سألته مستنكراً والريح العاصفة تكاد تجرفني شأنها مع عشرات الأكياس البلاستيكية والأوراق المتطايرة هنا وهناك، فأجابني وهو يهزّ مفكه العتيد تحت أنفي:

- عمي إنه مستشفى المجانين (الشمّاعية) لا حديقة الزوراء!... أنسيت ذلك؟

وتخطّينا الباب المائل جانباً والذي أوضح السائق أنه تحطم على أيدي اللصوص الذين هاجموا المستشفى. وعلّق بمرارة:

- تخيّل وجود ناس عقلاء يهاجمون مستشفى يأوي ناساً فقدوا عقولهم لأجل السرقة!.. أتسمعني يا أستاذ؟ لأجل السرقة لا أكثر!!

وكانت غرفة الاستعلامات خالية وقد تهشّمت زجاجات نوافذها المشرعة؛ فدخلنا دون أن يعترضنا أحد حيث امتدت أرض معشبة تخللتها أشجار شبه متيبّسة توزّعتْ بين اليوكالبتوس والرمان التي تساقطت أوراقها فضلاً عن شجيرات الآس، وهنا وهناك كلاب ضالة تنبش بحمية في النفايات المبعثرة في كل موضع.

- انظر .. هناك شخص منشغل بعمل ما قرب السور.

قالها السائق وهو يشير بالمفكّ إلى رجل بدشداشة وطاقية وقد انهمك بحشّ العشب في طرف مهمل من الأرض العراء. كان كهلاً في حدود الأربعين من عمره، شدّ أذيال ثوبه المبقّع إلى حزامه وقد قرفص وسط بساط من الأعشاب الصفر المتيبسة التي كان يحشّها بمنجله مكوّماً إياها في عباءة صوفية مفروشة بالقرب منه.

- من المؤكد أنكما تبحثان عن أحد النزلاء.

تساءل الرجل لحظة دنونا منه وقد نهض مادّاً إلينا ساعده عوضاً عن كفه المتسخة ليصافحنا معرّفاً باسمه "غافل".

- نعم... أبحث عن نزيل اسمه نديم إسكندر.

أجبته وقد انتعشتْ آمالي، فعلّق غافل وهم يتأملني بنظرة شاردة:

- خالي ما من نزيل هنا يُعرف باسمه الحقيقي؛ إذ يكفيه أن يتخطى أهله البوابة الخارجية داخلين به ليتوجّب عليه نسيان اسمه؛ ذلك لأنه سرعان ما يعرف بالاسم الذي سيشتهر به بين زملائه: الطويل أو القصير أو الأشول أو أبو قمبورة وما شاكل ذلك.

واستطرد، وقد قرفص من جديد مواصلاً مهمته بحماسة :

- وعلى كل حال لن تقعا على بغيتكما؛ فالمستشفى فرغ من النزلاء منذ الأيام الأولى للحرب.

وفوجئت بالسائق ينبري له معترضاً برغم أن ما قاله الرجل جاء مطابقاً لما ردده على سمعي على مدى الوقت الذي استغرقته رحلتنا إلى هنا؛ فقد صاح وهو ينقل المفك من يد إلى أخرى:

- عمي على مهلك لا (تظلّمها) علينا!

فأجابه غافل بكل هدوء وهو يتفنن في طريقة حش العشب بضربات خاطفة لن يجارى فيها :

- خالي هي (مظلّمه) بالأساس ولا شأن لي بذلك.

واسترسل الرجلان في جدال طويل حول ما جرى منذ ليلة السابع عشر من كانون الثاني حرصا خلاله على تطعيمه بكنيتي (خالي) و(عمي). وسرعان ما انفرد غافل بالكلام فمضى يتحدث، وهو يواصل حشّ العشب بضربات متقنة من منجله، عن فوضى ما حدث بعدما لم تعد الحياة ممكنة في المستشفى ولا سيما بعد انقطاع الكهرباء والماء فضلاً عن عدم وصول الأرزاق.

وتابع مشيراً بمنجله إلى ساقية جافة تشقق مجراها:

- لقد أضطر النزلاء إلى اللجوء إلى برك المياه الملوثة الراكدة في هذه الساقية وفي غيرها لإرواء عطشهم.

بدا ما تحدث به غافل مبعث يأس مطبق آمنت معه باستحالة العثور على أثر لنديم إسكندر؛ فشكرته وأنا أودّعه راجياً السائق أن يعود بي، فتقدمني هذا دون أن يكف عن لومي لأنني لم أصدّقه حين صارحني باستحالة العثور على صاحبي.

- ألم أؤكد لك استحالة وجود جهة معينة قد تساعدك في هذا الأمر؟

تساءل وهو يضرب بالمفك جذع شجرة يوكالبتوس عملاقة صادف مرورنا بها.

***

غادرتُ السيارة وقد أوشك النهار على الانتصاف، فعرجّتُ، قبل التوجّه إلى البيت، على أسواق "الشورجة" التي بدتْ، بسبب الحرب، هادئة تكاد تخلو من زحام المتبضعين الذي كان من سماتها المعروفة. انزويتُ على أحد تخوت مقهى صغير، وانصرفت إلى تناول وجبة مشويات مصحوبة برشفات شاي متأمّلاً الساحة الواسعة، المحاطة بالعلاوي والفنادق والمخازن ومحلات البقالة، وقد توزّعت فيها ثلاث أو أربع بسطات فضلاً عن بضع عربات لباعة متجوّلين، وثمة متسوّل كان صوته يأتيني من موضع ما وهو يردد كلمات الاستعطاف المعهودة بإلحاح، داعياً كل عابر سبيل إلى التكرّم عليه بنزر من (مال الله).

فكّرتُ بأن ليلة موحشة ستكون في انتظاري في بيتي الذي خلا من أفراد أسرتي، يعقبه نهار عليّ استثماره بالمرور بالمصرف لغرض سحب آخر مدخّراتي قبل العودة إلى بدرة وإبلاغ بتول بالنبأ المحزن.

وفي سيارة الأجرة التي حملتني إلى جانب الكرخ زاد السائق من تعكير مزاجي حين أخبرني بأن الأمريكان يوفّرون جهدهم لما بعد غروب الشمس؛ إذ يحرصون عادة على أن ينكّدوا على الناس ليلهم الطويل بشتى فنون القصف التي لا تبقي ولا تذر.

بدا شارعنا شبه خالٍ بعدما غادره معظم قاطنيه ليلجأوا بأسرهم إلى إحدى المدن الحدودية البعيدة، وأطلّ جاري المصري بوجهه الشاحب من باب بيته مرحباً بعودتي، سائلاً بقلق:

- أمالْ العيالْ فين يا أستاذ؟

طمأنته عليهم، وأخبرته بأنني سأغادر بغداد مجدداً يوم غد، فعلّق بحزن:

- العيشهْ بأتْ وحشه يا أستاذْ والبيوتْ بتخلو يومْ بعدْ يومْ من الكِران.

واسيته ببضع كلمات وأنا أودّعه، ملاحظاً حديقتي الصغيرة وقد تشققتْ أرضها عطشاً؛ فسارعتُ بفتح الصنبور الذي خيّب أملي؛ فالماء كان مقطوعاً، وكذلك كان شأن الكهرباء والهاتف؛ فلحظة دخولي البيت عمدتُ، بحركة تلقائية، إلى كبس زر النور الذي لم يفضِ إلى نتيجة، وكذلك كان شأن الهاتف: لم تصدر عنه نأمة لحظة رفعتُ السماعة.

استثمرتُ ضوء أواخر النهار في القيام بجولة شملت البيت بطابقيه حيث الكتب كانت تلوح لي أينما توجهت ليس في المكتبة التي تشغل أكبر غرف الطابق العلوي فحسب، بل في كل موضع.

كان كل شيء على حاله خلا طبقة غبار تتصاعد مع أدنى لمسة. وفي المطبخ كانت الثلاجة مشرعة الباب؛ فقد أدركتْ زوجتي أن الكهرباء ستكون في مقدمة أهداف الأمريكيين التي يفترض بهم ضربها؛ فعمدتْ إلى إفراغ الثلاجة من محتوياتها وترك بابها مفتوحاً. نبشتُ في الرفوف والخزانات طويلاً لأفوز بكيس مكسّرات عدت به إلى الصالة عودة الظافر بكنز وقد اطمأننت إلى أنه سيعوّضني عن وجبة عشاء يُفترض بي الاستغناء عنها.

وكان القصف قد بدأ - كما تنبأ سائق سيارة الأجرة - مع اشتداد الظلام؛ فتداخل دوي الانفجارت مع عويل سيارات الإسعاف على مدى ساعات كنتُ قد أحكمت خلالها من لف الغطاء حول جسدي وكأنني أنا وبيتي مستهدفان بكل تلك ضجة، وأنني قد أجفل في أية لحظة على إحدى القذائف وقد فجّرتْ كل ما حولي.

كانت صافرات الإنذار قد فقدت دورها المتوقع في التحذير؛ ذلك لأنه بات من المستحيل التمييز بين العويل الذي ينذر بقرب حصول غارة والعويل الذي يعلن عن انتهائها، وكانت المدافع المضادة للجو تمارس مهمتها في الغالب بعد انتهاء غارة هزّتِ الأرض من تحتي هزّاً!

لم يكن الأمر جديداً عليّ؛ فسبق لي أن مررت بحالات مماثلة أثناء الحرب الطويلة مع إيران، ولاسيما في الفترة الأخيرة منها حينما شرع الطرفان في قصف المدن، فكنتُ أجد العزاء آنذاك بتجاهل ما يجري من حولي وذلك باستعادة أجمل ذكرياتي، وكان لبتول النصيب الأوفر منها؛ فكنت أستعيد ذكرى تلك الليلة البعيدة حينما جفلتُ من نومي - في بيتنا القديم في بدرة - على أمر ما لم أعرف ما هو على وجه التحديد!

ترى أحدث ما حدث بالطريقة التي أتذكرها الآن؟ أم أن مخيّلتي تكفّلتْ، بعد مرور كل هذه الأعوام، بإضفاء أجواء (درامية) على الأمر؟ ما أتذكّره الآن هو فزعي مقروناً بحيرتي مما أحسستُ به؛ فطرفتُ بعينيّ وسط الظلام الدامس فاغراً فمي ببلاهة في انتظار أن يجلو الأمر على حقيقته. وسرعان ما تأكدت من وجود كائن ما وقد تسلل تحت لحافي؛ فكان رد فعلي المباشر ضرورة الإسراع بإطلاق صرخة تحذير:

- فأرة!!

لكنني عمدت إلى كتمان صرختي دون أن أعرف السبب. أيعود ذلك لإدراكي المبكّر بأن تلك الصرخة قد تسبب بحدوث فضيحة في بيت يغصّ بحشد من أفراد أسرتي المستسلمين للنوم على الأرض وقد التفّ كل واحد منهم بغطائه؟

مددتُ يدي بدوري وأنا أزدرد لعابي بصوت مسموع؛ فالتقيت يداً دافئة... خمسة أصابع أطبقتْ على كفي برجاء.. بتوسل. كانت حركة خرساء، لكنها تستجدي الصمت في دعوة مبطّنة للمزيد من المتعة!... لم تكن غير يد بتول، قريبتي التي اعتادت النوم بجواري، على بُعد أشبار مني فقط.. بتول التي ألفت، منذ وفاة أمها، القدوم إلى بيتنا كلما كان والدها بصدد التوجّه إلى بغداد في إحدى رحلاته التجارية.

حررتُ يدي من تلك الكف المتوسّلة بحركة حاسمة.. وتركتُ أصابعي تزحف على امتداد ساعد بتول في رحلة فضول مجهولة الهدف، فاذا بي أفاجأ بيد بتول الدخيلة وقد عادت تمسك بكفي بإحكام لتقودها بإلحاح إلى فتحة ثوبها حيث انغمرتْ أصابعي بسخونة نهد متعطش للضمّ والشدّ!!... وكان لهاثي قد تصاعد دون أن أدرك حقيقة ما يجري؛ فتلك كانت أول مرة ألمس فيها نهداً حقيقياً يصرخ بالرغبة!

وكانت بتول قد عادت تقحم يدها تحت لحافي لتزيح ما يعترض سبيلها قبل أن تنقضّ على الهدف المنشود بحركة حاسمة لا خلاص منها.. قبضتْ عليه وهو في ذروة توتره.. وأخذتْ تخضّه بحركات مجنونة وكأنها تحاول أن تقلعه من موضعه، فحاولتُ عبثاً كتم أنفاسي وفي ظني أننا تسبّبنا في إيقاظ النائمين كلهم.. وكانت تلك الأصابع لا تكفّ عن تحركّها جيئة وذهاباً يرافقها صدور همس مبهم.. كلمات مصحوبة بنشيج مكتوم. وفجأة أحسستُ بانفجار ما يحدث في أحشائي.. انفجار مصحوب بلذة محمومة لم أتذوق مثلها من قبل قط ومعها انطفأ كل شيء وقد امتلأت بشعور اشمئزاز مفاجئ أدّى بي إلى إبعاد تلك الأصابع المصرّة على الإمساك بصيدها .. أبعدتها .. أبعدتُ تلك اليد الدخيلة بعنف وقد تفاقم شعوري بالاشمئزاز.. وكنت على استعداد لأصرخ هذه المرة بأعلى صوتي لا بسبب فأرة، بل بسبب أنثى تكبرني بثلاث أو أربع سنوات - أنا الذي كنت في حدود الثالثة عشرة من عمري - وقد اغتالتْ طفولتي إلى الأبد!!

(قتلتَ أباك!)

كان ما يؤلم نديم يقينه أن أباه لم يغفر له علاقته العابرة بالمنفيّ فريد عمران؛ فمنذ عودتهما من السراي، في ذلك اليوم المشهود، أيقن أن ثمة شرخاً حصل بينهما لا سبيل له إلى ردمه؛ فقد بات والده يراقبه بعين متشككة؛ يستعين بأمه أحياناً للسؤال عنه وعن تحركاته اليومية غير مدرك أن فريد عمران كان قد أمسى عند نديم محض ذكرى عابرة – ذكرى مضيئة في حياته – يستعيدها بأسى حينما كان يتصفّح رواية "المرابية العجوز" التي بقيت في حوزته بعدما انتهى فريد إلى مصير مجهول: يحرص على أن يعيد قراءتها من حين إلى آخر.

آنذاك كان نديم قد أصبح مأخوذاً بأمر جديد كان السبب المباشر لاصطدامه بأبيه: ففجأة بات مأخوذاً بتتبع أمور جرتْ في مدينته في الماضي كان نصيبها التجاهل والإهمال مثل أخبار المنتحرين، وحكايات الأشقياء والمجانين، وجرائم القتل التي روّعتِ المدينة، وقصص النساء المشبوهات اللائي يتعاطين البغاء سراً. وكانت هناك أيضاً أحلامه، أو الأدق كوابيسه التي كانت تنغّص عليه نومه!

وكان قد عمد، بكل جدّية، إلى ملء صفحات دفتر بغلاف أسود بتلك الأمور دون أن يمنحها الصيغة الروائية المتعارف عليها؛ فبرغم أنه سبق له أن قرأ أغلب الروايات المتوفرة في مكتبة أبيه فضلاً عن الروايات البوليسية التي أعاره إياها فريد على مدى علاقتهما العابرة، بيد أنه لم يكن قد أتقن صياغة الأحداث بالطرق الروائية المألوفة؛ وما كتبه في الدفتر بدا خليطاً متنافراً من كل تلك الأمور.

وكانت حوادث الانتحار قد شغلت صفحات عديدة من دفتره؛ إذ إنه عمد إلى ذكر أسماء من أنتحر في مدينة بدرة وكيفية حصول ذلك، مكتشفاً تقارب عدد المنتحرين من الرجال إلى المنتحرات من النساء. وكان الرجال يتخذون أسلوب شنق أنفسهم في الغالب على العكس من النساء اللائي يفضّلن إحراق أنفسهن بالنار!

وكان الفضول قد دفع به، ذات يوم، إلى اجتياز وادي الكلال نحو "بدرة القديمة" ليزور بيت منتحر كان يمت إليهم بصلة قربى، فاحتفت أسرة المنتحر بمقدمه محيطة إياه برعايتها وهم ينادونه بابن "إسكندر بيك" و"العلوية"، تاركين إياه يدخل إلى الحجرة التي شنق الرجل فيها نفسه حيث بقيّة الحبل كانت لا تزال معلقة بواحد من عوارض السقف.

كادتِ الغرفة تكون مظلمة، لا ضوء يأتيها إلا من كوّة في أعلى أحد الحيطان، فرفع نديم وجهه ينظر باستغراق إلى ذلك الحبل المتأرجح، سائلاً نفسه عن سر الإبقاء على هذا الجزء من الحبل الذي لا شك أنه يذكّرهم بالمنتحر كلما وقعت أبصارهم عليه!

وبقي دقائق يتأمّل مأخوذاً ذلك الحبل، متخيّلاً جسد المشنوق المدلّى منه، وكيف أن زوجته كانت أول من وقع بصرها عليه حينما دخلت تلك الغرفة لجلب حاجة ما؛ فأطلقت صرخة ثاقبة قبل أن يغمى عليها، وهنا لم يشعر نديم إلا وقد اختنق وكأن ثمة أنشوطة أطبقتْ على عنقه؛

فتعسّر عليه التنفّس حتى أنه أخذ يتلوّى في موضعه رافساً الأرض، فكان أن تنبه بعض أفراد الأسرة إلى الضجة التي أثارها؛ فسارعوا بإسعافه قبل أن يموت اختناقاً!

حينما عاد إلى البيت تلقّتْ أمه خبر ما حصل له بفزع حقيقي. قالت وهي تتفرس في وجهه مشفقة:

- أخشى أن نوبات الصرع ستعاودك مجدداً بعد الآن.

وتابعتْ محذّرة:

- يكفيك الآن أن تنفعل بشدّة لتصبح عرضة للإصابة بإحدى النوبات... هذا ما كان يحصل لك في طفولتك.

وهكذا مضى في الكتابة في دفتره متنقلاً كالعادة بين المواضيع التي شغف بها، دون أن ينسى التطرّق إلى ذكر عدد من أحلامه، قبل أن يعود إلى حوادث الانتحار ليسهب، هذه المرة، في ذكر ما جرى لامرأة أحرقت نفسها، وقد حصل ذلك في بيت أقرب ما يكون إلى فناء مسوّر مملوء بأكوام الحطب وحزم السعف، أقيم في جانب منه تنور اعتادت نساء الزقاق عمل الخبز فيه. وكانت المنتحرة قد عمدت إلى غمس كيس خيش بالنفط قبل أن تنسلّ فيه بعلبة ثقابها لتعمد إلى خياطة فتحة الكيس على نفسها من الداخل لكي لا تضعف لحظة تأكل النار لحمها فتحاول الإفلات من مصيرها التعيس!

تأمّل دقائق البقعة السوداء التي خلّفتها المنتحرة وراءها، سائلاً نفسه إن لم تكن قد عمدت إلى الصراخ لحظة شبّت النار في جسدها؟ وألم تندم في تلك اللحظة؟ ومتى ماتت والنار ماضية في عملها؟ وتذكّر ما أشاعه ذلك الرجل الذي كان أول من تنبّه إلى الدخان المتصاعد المصحوب برائحة شواء فزعم أنه أبصر، لحظة دخوله ذلك البيت، الدخان يتسرّب من جمجمة المرأة المنتحرة حيث المخ كان يفور في داخلها فوران قدر ماء موضوعة على النار!

على هذا المنوال مضى في تسطير تلك الحوادث في دفتره مضمّناً إياها أخبار الأشقياء والمجانين التي كانت لا تخلو من طرافة على النقيض من أخبار الانتحار والقتل: فثمة واحد منهم، عرفه شخصياً، كان يتّصف بالرزانة، ندر أن يتبادل الكلام مع غيره، مكتفياً بالابتسام عند الضرورة. وكان قد اشتهر بقوته الخارقة، يتجنّب الشباب استفزازه، وكان من المتعارف عليه أن قوّته تلك تشكّل مصدر رزق له: يجنّده أغنياء المدينة، لقاء مبلغ معيّن، لإذلال خصومهم.

وكان قد عُرف بعشقه للتحدي والمجازفة: يعمد، لقاء مبلغ ضئيل، إلى ارتقاء أطول نخلة معروفة في المدينة وفي يوم عاصف، أو يذهب، بعد منتصف الليل، إلى ضريح عبد الله الصالح القائم في مقبرة المدينة التي تتوسط بساتين النخيل، أو يجازف، وقد ضاقت ضفتا وادي الكلال عن استيعاب أحد السيول الهادرة المنحدرة من الجبال الإيرانية، إلى الخوض فيه نحو الضفة الأخرى!

وكان ثمة مجنون آخر غريب الأطوار، يختفي عن المدينة شهوراً ليظهر ذات يوم على غير توقّع في سوق المدينة بالهيئة المعهودة التي عرف بها: يرتدي ملابس خلقة مرقّعة برقع متعددة

الألوان، وثمة عصا مستقرة في يده، وقد اعتمر طاقيته العجيبة المزدانة بعشرات الخرز الملونة والتي كان لكل واحدة منها قصة: فثمة خرزة حمراء يزعم أنه نالها بعد خوضه نزالاً مريراً مع جنيّ شرير، وأخرى زرقاء جاءته على أثر تصدّيه لأحد الوحوش الخرافية التي لا يرد لها ذكر إلا في الحكايات والأساطير!

على هذا المنوال لخّص حكايات عشرات المجانين الذين عرفهم أو سمع بهم. وبعد سرد عدد من أحلامه وكوابيسه تطرق، هذه المرة، إلى أخبار النساء المشبوهات وأبرزهن واحدة ألف أن يمر بها من حين إلى آخر وهي جالسة عند عتبة بيتها، تدخّن السجائر وتتابع السابلة بفضول في مرورهم بها.

كانت امرأة عجوزاً متهدمة لم يبقَ ما يشير إلى ماضيها الحافل بالأسرار غير عينين ذابلتين كانت تحرص على أن تكحّلهما كما كان شأنها في شبابها.

وكانت هناك نساء أخريات مضى في تتبّع تاريخ ماضيهن الحافل بالمغامرات ليقف عند واحدة اسمها فردوس بدت حياتها على شيء من الغموض، لا يكاد يتذكرها إلا اثنان أو ثلاثة لم يسعفوه إلا بالنزر اليسير متحججين بأن فترة طويلة مضت على تلك الأيام التي اشتهرت خلالها تلك المرأة، وهذا أمر شحذ خيال نديم وجعله يجزم بوجود سر ما في حياتها يدفع الآخرين إلى تجنّب الخوض في سيرتها؛ فخصص لها فصلاً في دفتره تحت عنوان (فردوس.. العاهرة الغامضة) لخّص فيه معاناته الطويلة في تتبع حياتها بالشكل الذي لم يفضِ به إلى نتيجة؛ فكل ما توصل إليه أنها خلّفت ابنة وحيدة اسمها هاجر سارت على نهجها في غموض حياتها.

تُرى ما سر تجنّب الجميع مكاشفته بتاريخ هذه المرأة دون النساء الأخريات؟!

سؤال شحذ همّته لمواصلة البحث والتقصّي دون أن يخطر له أنه يقدم بذلك على نفض الغبار عن فضيحة مزلزلة طال التكتّم عليها في أسرته ستقلب حياته فيما بعد رأساً على عقب؛ فصباح ذات يوم، وهو بصدد الخروج من البيت، فوجئ بأمه تعترض سبيله سائلة إياه هلعة عن سبب إساءته إلى أبيه؟ فسألها بحيرة:

- وكيف أسأت إليه وهو يتجنّب محاورتي في أي شأن من شؤوني كما هو دأب غالبية الآباء مع أبنائهم؟

- يبدو أنه ناقم عليك لسبب من الأسباب؛ إذ طلب مني إعلامك بضرورة موافاته فوراً ودون تأخير.

وتوسّلت إليه، وهي تسير في أعقابه، راجية إيّاه أن يتحصّن بالصمت في انتظار انحسار نوبة غضبه الطارئة.

دخل غرفة الاستقبال حيث كفّ أبوه عن ذرع الأرض جيئة وذهاباً ليقف في مواجهته برأسه الحليق العاري وبثوبه الذي كان قد تبقّع بالعرق عند موضع الإبطين والكتفين. تأمّله لحظات بدت أطول من دهر قبل أن يسأله وهو يلوّح بدفتر كان يمسك به:

- ألم تقتنع بفضيحة عشقك الكتب الحافلة بكل ما هو بذيء، لتلوّث بعدها سمعتي بانضمامك إلى الشيوعيين ومن على شاكلة ذلك المنفي المسلول فريد عمران، لتسوّد، هذه المرة، صفحات هذا الدفتر بما ألهمك به خيالك المريض من بذاءات؟

لم يفقه نديم، لشدّة ارتباكه، ما الذي كان يعنيه أبوه بكلامه الغريب؛ فبقي يبادله النظر وهو في حيرة من أمره.

- أيعقل أن يعمد ابني - ابني أنا إسكندر بيك - إلى التشهير بي أنا شخصياً؟!

صعق نديم بهذا الكلام الذي لم يفهم مغزاه؛ فالتفتَ إلى الخلف رامقاً أمه بنظرة متوسلة، لكنها بدت أكثر جهلاً منه بما يجري.

- ما مسوّغ تجميع هذه الأمور الشاذة وتسطيرها بين دفتي هذا الدفتر القذر؟ أخلتِ المدينة مما يستدعي الفخر والاعتزاز غير أخبار المنتحرين والمجانين والعاهرات فضلاً عن سرد كوابيسك؟

يا للهول!.. كيف وقع دفتره بين يديه؟

سأل نديم نفسه وهو يبادل أباه النظر.

- انطق!.. لن يجديك الصمت نفعاً.

- إنه... إنه دفتر...

- أنا لا أسألك إن كان دفتراً أم لم يكن، بل أسألك عما دفعك إلى تجميع هذه الأمور الشاذة للتشهير بالناس؟!!

ازدرد لعابه بصعوبة وقد التفت نحو أمه ثانية قبل أن يقول:

- هي أمور حدثت.. وهؤلاء ناس عاشوا في المدينة...

- ومن قال لك خلاف ذلك؟

زأر أبوه وقد خرج عن طوره. واسترسل قاذفاً الدفتر في وجهه:

- ولكن ما الدافع إلى التطرّق إلى حكايات العاهرات... وما مسوّغ ذكر بعض الأسماء دون رويّة أو حذر؟

- الجميع يتداولون أسماءهن!

- وفردوس؟!.. وهاجر؟ هل عرفتهما على حقيقتهما لتفرد لهما فصلاً تحت عنوان (فردوس.. العاهرة الغامضة)؟!

لم يحر نديم جواباً، إنما بقي يبادل أباه النظر مفكّراً بسر هاتين المرأتين الغامضتين اللتين أثار ذكرهما أباه بهذا الشكل غير المفهوم!

- هل خطر لك لحظة واحدة مقدار ما ستسبّبه لي من ألم وأنت تدوّن دون تردد ما أسعى إلى نسيانه منذ عقود من الزمان؟!

أجاب نديم بشيء من التردد:

- وما شأنك أنت بهاتين الاثنتين تحديداً يا أبي لتثيرا غضبك بهذا الشكل؟!

- اخرس يا ابن الـ... علوية!

صاح أبوه وقد وثب نحو الجدار القريب ليختطف السوط الذي كان معلقاً هناك، وقبل أن يتسنى لنديم الوقت اللازم ليحمي نفسه كانت يد أبيه قد ارتفعت بالسوط لتهبط بضربة انصبّت على وجهه فتطاير الشرر من عينيه تطاير البرق!

- لا!!

صاحتْ أمه باكية، في حين واصل أبوه جلد وجهه بضربات صافرة من سوطه كانت تزداد ضراوة بمضي الوقت؛ فلم يشعر نديم إلا وهو يمسك بالسوط، في إحدى المرات، قبل أن يصيبه في وجهه. ومرتْ لحظات والاثنان يناضلان للاستحواذ على السوط وقد أمسك كل واحد منهما بأحد طرفيه.

- نديم.. اهدأ.. لا تنسَ أنه أبوك!

صرختْ أمه محذّرة. لكن الأمر كان قد خرج من يده. وكانت تأتيه ضجة طاولات تتحطّم تحت ثقليهما وهما يتقلّبان هنا وهناك على وقع صليل أشياء زجاجية تتهشم. وفجأة جفل نديم على زعيق ثاقب يطلقه أبوه مفلتاً، في الوقت نفسه، السوط. وراقبه نديم بدهشة وهو يهوي ليتقلّب وسط الحطام وقد أخذ جسده يهتز بفعل تشنجات متلاحقة، وكان الزبد قد علا شدقه الذي كان ينفتح وينطبق مثل فم سمكة أخرجتْ من الماء!

- نديم... لقد قتلته.. قتلتَ أباك!!

صرخت أمه معولة، فرمق أباه بنظرة خاطفة، وهو يلهث، فلمحه مضطجعاً على ظهره وسط عشرات الأشياء المحطّمة وقد سكن سكون الموت. وخامرته فكرة مفاجئة مفادها أن كل شيء قد انتهى فلا موضع له في هذا البيت بعد الآن. وشرعت الساعة الجدارية تدقّ في تلك اللحظة معلنة الوقت؛ فألقى نظرة سريعة عليها - برغم كل ما جرى! - ليكتشف أنها التاسعة صباحاً حثّ بعدها خطاه مغادراً البيت على عجل!

(٦)

كانت ليلة مؤرقة تلك التي قضيتها وحيداً في بيتي في بغداد، وأنا استعيد ذكرى ما جرى لي مع بتول في الماضي، متوقّعاً الموت في أية لحظة بفعل قصف الطائرات الذي لم ينقطع لحظة واحدة. حتى إذا ما انتبهتُ إلى ضوء الصباح وقد ملأ نافذة الصالة الواسعة سارعتُ بالخروج بعد استبدال ملابسي وأنا أتضور جوعاً حيث وجدت ضالتي في أحد المطاعم الصغيرة.

توجهتُ إلى المصرف القريب لأفاجأ بحشد تجمّع عند الباب المغلق المحروس من قبل عدد من رجال الشرطة، وحينما سألتُ عن الأمر أخبرني عجوز غاضب وقد تورّد وجهه المملوء بالتجاعيد بأنه "لا توجد سيولة"، فعدتُ استفسر عن معنى كلامه؟ فأجابني موضحاً:

- ممنوع سحب أي مبلغ من المصرف!

واستطرد وقد أدار وجهه جانباً خوفاً من أن يسمعه أحد حسبما ظننتُ:

- يسرقون بلداً كاملاً ويعجزون عن توفير السيولة اللازمة لمواطنين هم بأمسّ الحاجة إليها!.. سبحان الله!

لم أيأس؛ فقد سمعتُ أكثر من واحد يؤكد أن المصرف سيفتح بابه في أية لحظة؛ فانتظرت مع المنتظرين، مصطلياً على نار أشعلها أحدهم على الرصيف المواجه للمصرف. بيد أن الساعات تعاقبت دون أن ينفرج ذلك الباب، وكان الحشد قد تضاعف؛ فارتفع اللغط من حولي، وتجرأ عدد من المنتظرين على ترديد كلمات استياء كانت تتحول بالتدريج إلى ضرب من احتجاج ينذر باحتمال حدوث ما لا يحمد عقباه، حتى إذا ما تخطت الساعة الواحدة بعد الظهر ولم يبقَ على انتهاء الدوام الكثير أدركتُ أن انتظاري ضرب من عبث؛ فقررتُ الاستغناء عن فكرة الحصول على مدخراتي التي كان يُفترض بي سحبها قبل نشوب الحرب، فسارعت بالبحث عن سيارة أجرة لأتوجّه إلى كراج النهضة على أمل العثور على آخر السيارات المسافرة إلى بدرة قبل حلول الليل.

وكان الزحام على أشدّه في الكراج: يتقاطر الناس بالمئات على السيارات المغادرة إلى مختلف المدن العراقية وكأن الجميع يحاولون الفرار من بغداد. وكان الموقف الخاص بسيارات مدينتي الوحيد الذي شذّ عن ذلك الزحام بخلوّه من أيما سيارة، وثمة بضعة مسافرين يعانون مثلي قلق الانتظار؛ فانضممتُ إليهم وأنا أغالب نعاسي ببطولة حذراً من أن أنام على الرغم مني وأنا واقف، حتى إذا ما قدمت سيارة، وقد آذنت الشمس بالغروب، تنفّس الجميع الصعداء، فعمدت من فوري إلى الانزواء في أحد المقاعد الخلفية لأعوّض عن نومي المضطرب ليلة البارحة؛ إذ لم أكد أغمض عينيّ حتى استغرقت، على هدهدة حركة السيارة الرتيبة، في نوم عميق لم استيقظ منه إلا ونحن على مشارف بدرة؛ فغادرتُ السيارة عند الزقاق الذي يقوم فيه بيت بتول حيث الظلام كان يسود البيوت، وثمة خيوط ضوء شاحبة تتقاطع هنا وهناك مصدرها الفوانيس النفطية التي آن لها أن تستعيد مجدها الغابر بعد غيبة طويلة!

طرقتُ الباب دقائق قبل أن أحظى بهمس بتول وهي تسأل، من الجانب الآخر، عمن أكون؟ وحين أخبرتها انفرج الباب عن قامتها، فتسللتُ داخلاً إلى الحديقة الواسعة الغارقة في الظلام،

في حين تابعتْ بتول همسها معتذرة لتأخّرها في الاستجابة لطرقاتي لكونها لم تألف زيارات ليلية فضلاً عن أن من دأب غريب الاستغراق، مع غروب الشمس، في نوم ثقيل لن يستيقظ منه حتى لو دوّت المدافع فوق رأسه.

انتظرتُ منها أن تدعوني إلى غرفة الاستقبال الدافئة، منتشلة بذلك إياي من برد الحديقة القارس، وحينما وجدتها لا تفعل اضطررتُ إلى إخبارها بفشلي في مهمتي. قلتُ إن المستشفى، كما سبق لها أن أخبرتني قبل سفري إلى بغداد، كان قد خلا من نزلائه كلهم.. ما من أحد هناك سوى مجموعة كلاب ضالة تنبش في النفايات باحثة عما تقيت به نفسها.

كنا نتكلّم - لا أدري لماذا - همساً قبل أن تخيّم علينا لحظات صمت ملأها جدجد في أقصى الحديقة بصوته الرتيب. مددتُ يدي لأمسك بكفها، فمنحتني إياها بحركة استسلام أوجعتْ قلبي. كانت باردة على النقيض مما كانت عليه في تلك الليلة الغابرة. سحبتها نحوي فانقادت لي، ألقت برأسها على كتفي. أبقته كذلك دقائق لم يكف ذلك الجدجد الوحيد خلالها من الاسترسال في أنينه الرتيب. كانت بطولي تماماً.. تذكرت مباهاتها في مراهقتها من أنها أطول بنات الأسرة..

- (قامتي بطول عود خيزران!.. ولكن ما جدوى ذكر ذلك وثمة عيون يُفترض بها الاستعانة بنظّارات طبية لتبصر بشكل جيد)!..

تذكّرت كلماتها تلك التي كانت تتهكم بها مني في تلك الأيام السعيدة.. الأيام العزيزة التي ذهبت دون رجعة.

احتويت وجهها بين كفّي، ورفعته نحوي لأقبلها في فمها الشهي. تركتني أفعل ما أشاء دون أدنى مشاركة منها. تلمّستُ بفمي تينك الشفتين المكتنزتين اللتين كانتا تجيدان التقبيل، حاولتُ أن أقتحمهما بلساني لولا أنها تراجعتْ خطوة إلى الوراء. وعلى ضوء نجم قادم من مجرّة ما لمحتُ لمعان الدموع وهي تسيل على خديها.

- بتول.. أتبكين؟

سألتها وقد ضاقتْ حنجرتي بنوبة بكاء على وشك الانفجار.

- اذهب الآن يا أغلى الناس..

قالتها متوسلة، وأردفتْ وهي تمسك بكفي:

- اذهب وسنلتقي فيما بعد.. ولكن لا تنسني.. أتعاهدني على ألا تنساني؟ لا أطلب من هذه الدنيا سوى وعدك.. يكفيني أن تعدني بأنك لن تخذلني أبداً بعدما خذلني كل من حولي..

ودّعتُ بتول وأنا أفكر بهذه المفارقة المتمثلة بمقدار تغيّرها عما كانت عليه في الماضي؛ فعلى النقيض مما هي عليه الآن من رقة كانت في مراهقتها بالغة الشراسة، تبدو عدوانية كأنها في صراع دائم مع الآخرين: فعقب ذلك الحدث المزلزل الذي وقع بيني وبينها ليلاً جفلتُ، صباح اليوم التالي، على ضجتها وهي ترفع الأغطية والأفرشة من حولي، حتى إذا ما دنت مني سحبتْ غطائي بعنف مخاطبة اياي بغضب مكتوم:

ـ انهض... فقد قارب النهار على الانتصاف!

قالتها متجنّبة مبادلتي نظرة واحدة، ومضت بخطى واثقة ـ كأنها نسيتْ ما حدث بيننا منذ ساعات معدودة فقط! ـ لتؤدي الأعمال التي اعتادت أمي أن تكلّفها بأدائها من كنس وغسل وطبخ!

ذلك الصباح بدا كل شيء وقد تغير من حولي؛ فحتى البيضة المقشّرة، التي قدّمتها أمي لي فالتقطتها بأطراف أنامل، بدت لي ملوثة.... وتناولتُ فطوري على عجل دون أن أجازف بمبادلة أمي نظرة واحدة خوفاً من أن تفتقد نظرة الطفولة التي ألفتْ أن تراها في عيني طفلها المدلل آخر العنقود!

وطوال ذلك اليوم لازمتني مشاعر قلق بشأن اكتشافي هذه العلاقة الملتبسة بجسد أنثى ستظل ترافقني على مدى مراهقتي وشبابي وكهولتي وحتى هذه اللحظة التي أكتب فيها هذه الكلمات.

لم أغادر البيت على مدى ذلك اليوم ـ وكان يوم جمعة ـ فبقيت أتجول على غير هدى في ذلك البيت البدائي الواسع بغرفه التي لا تعد ولا تحصى، متتبعاً بأذني تحركات بتول وهي تتنقل هنا وهناك محمّلة تارة بالغسيل، لأسمع صوتها طوراً يأتيني من قرب التنور القائم في إحدى زوايا البيت وهي تساعد أمي في عمل الخبز.

كان ما يشغلني باستمرار هذا الأمر الجديد الذي سبق لي أن تطرقت إليه مع من هم بسني من الصبيان الذين كانوا على أعتاب المراهقة، مكتشفاً البون الشاسع بين أحاديثنا البلهاء عن تصورات وأوهام العلاقة بالجنس الآخر قياساً بحقيقة نهد.... نهد دافئ وطري يفيض من بين الأصابع.... أما الشعور بتلك النشوة الصاعقة بين أصابع أنثى ...أصابع تتمسك بإلحاح بذلك الجزء المتوتر من جسدك والمتعطش بدوره لتلك الحركات فكان فوق ما أتصور جمالاً وغموضاً... بيد أن ما كان يحيّرني هو ذلك الشعور المفاجئ بالاشمئزاز الذي أعقب تلك المتعة... لماذا انطفأتْ تلك الرغبة فجأة؟ أيعود ذلك لخلل في جسدي؟ أم لأمر آخر لم أكتشفه بعد؟

وصادف أن وجدتُ نفسي على غير توقع، وأنا مستغرق بتلك الأفكار المحيّرة، مع بتول في جانب منعزل من البيت، فمددتُ يدي، دون لحظة تردد، نحو صدرها لأمسك بنهدها، فرمقتني بنظرة ضارية وهي تفحّ من بين أسنانها بصوت مسموم:

ـ أبعد يدك والا سأملأ البيت صراخاً!

جفلتُ من ردّ فعلها الغريب؛ فتراجعتُ إلى الوراء مكتفياً بتتبعها بنظرات حائرة وقد عادت تواصل أعمالها هنا وهناك دون أن توليني أدنى انتباه!

منذ ذلك اليوم ترسّختْ حيرتي تجاه الأنثى: فبتول التي حذرتني من أنها ستملأ البيت صراخاً إن لم أرفع يدي عن صدرها بدت فتاة أخرى لا تمتّ بصلة بتلك التي تركّز وجودها كله في أصابعها الخمسة التي تشبثت بي في ظلام الليلة الماضية بحركة توسّل صامتة تدعو بإلحاح إلى أن نطيل متعتنا الغامضة لحظات أخرى!

صباح اليوم التالي وجدتُ في ليث، المعروف بيننا في المدرسة بلقب (السرسري)، خير من أبثّه همّي. وكان ليث أكبر التلاميذ سنّاً؛ ذلك لأنه أعاد سنوات الدراسة أكثر من مرة، كما أنه اشتهر بيننا ـ نحن المقربين إليه ـ بتدخين السجائر: لا تكاد تبدأ الفرصة الكبيرة حتى يقودنا إلى خلف المرافق الصحية ليرينا تفننه في كيفية تدخين السجائر وطريقة إطلاقه الدخان من أنفه. وكان يحدثنا أحياناً ـ ولا سيما أنا شخصياً ـ عن مغامرات جنسية (حقيقية) يزعم أنه يخوضها من أسبوع إلى آخر مع امرأة مطلّقة من أقارب الأسرة، ألفت أن تبعث في طلبه لتلقّنه دروسه المنهجية التي كان مستواه فيها كلها متدنياً بشكل مروّع خلا درس الرياضة؛ فقد كان من أبرز أعضاء لاعبي الوسط في فريق كرة القدم في المدرسة.

وكما هو متوقع؛ سرعان ما تطورتْ علاقته بتلك المطلّقة إلى علاقة جسدية كان يرويها لنا بكل تفاصيلها ونحن نصغي إليه بأفواه مفغورة وأعين ساكنة لا تطرف.

يومذاك لم أكد أطلب منه الانفراد به بعيداً عن الآخرين لأمر بالغ الأهمية حتى تأفف مستاءً:

ـ اسمع... إن كنت بصدد أن تسألني عن أمر يتعلق بالدروس فسأشبعك ركلاً في مؤخرتك...

فطمأنته، مؤكدا أن ما سأحدّثه به مشابه لأحاديثه عن (صاحبته) المطلّقة!

ـ مستحيل!.... أنت المدلل أجبن من أن تفعلها!

صاح وقد فتح عينيه على سعتهما، فسحبته من يده لأنزوي به بعيداً عن حشد التلاميذ حيث اعتدنا الانفراد قرب السور الخلفي لساحة المدرسة، فجلسنا على حافة ساقية جافة، تعلو رأسينا أشجار اليوكالبتوس التي لا تكفّ عن إرسال حفيف أوراقها مع أضأل نسمة.

لم أكد أشرع في الكلام، بعد لحظة تردد، حتى استحوذتُ على اهتمامه؛ فأخذ يرمقني بعينيه السوداوين الصغيرتين ليطبق كفه على فمي فجأة طالباً مني الانتظار لحظات ريثما يشعل سيجارة. وبعدما تطلّع إلى الخلف ليطمئن إلى عدم وجود أحد المدرسين في الجوار استلّ سيكارة وعلبة ثقاب من مكمنهما السري بين ثنايا ملابسه ليعلّق مع أول نفثة دخان كثيفة:

ـ لا أجمل من الإصغاء إلى مثل هذه الأمور المثيرة بصحبة سيجارة!

وبقي يتابع فمي باهتمام وأنا أحدّثه عما جرى مع بتول دون أن يكفّ عن نفث الدخان، حتى إذا ما صارحته بشعوري بالاشمئزاز عقب تلك الهزّة التي أخذتْ بجسدي أول مرة في حياتي فاجأني بأن ضربني على أم رأسي وهو يصيح مع نفثة دخان جديدة:

ـ أثول!

وحينما رآني أتطلع إليه بدهشة سألني بغضب:

ـ لماذا تقول إنك شعرت بالاشمئزاز؟

فأجبته بعد تردد:

ـ لأنني.. لأنني خجلت.... خجلت كمن يبول على نفسه!

فانفجر مقهقهاً حتى استلقى على ظهره وهو يردد:

- عن أي بول تتحدث يا غبي؟ ما حصل هو أنك أصبحت رجلاً....أتسمع؟ أصبحت رجلاً وبأعظم طريقة: بين أصابع أنثى!...إنه أمر نادر لم يحصل حتى لهرقل نفسه!!

فسألته مأخوذاً عن سر تأكيده أن ما جرى بيني وبين بتول لم يحصل حتى لهرقل نفسه؟ فأجابني وهو يسحق عقب سيجارته ويتهيأ للوقوف مع شروع جرس المدرسة بالرنين معلناً بدء درس جديد:

- ذلك لأن هرقل أحبّ أبطال السينما لي: لم يفتني فيلم من أفلامه؛ فقد خاض شتى المغامرات خلا مغامرة مثل مغامرتك بين أصابع صاحبتك!

منذ ذلك اليوم - وعلى امتداد سنوات العمر ونحن نكبر ونطعن في السن رويداً رويداً - ما من مرة التقيت ليث إلا وتحدثنا عن بطله المفضّل هرقل واقترانه بذكرى تلك الليلة الاستثنائية من حياتي مع بتول!

والغريب أن ذكرى تلك الليلة لم تفارقني قط حتى هذه اللحظة التي أكتب فيها هذه الصفحات، وبقيتْ محتفظة بلذّتها الفريدة التي لم تتكرر حتى مع بتول نفسها برغم أن علاقتنا تطورت إلى علاقة جسدية كاملة استمرت على مدى أعوام!

وكانت بتول قد غادرتنا على أثر عودة أبيها من بغداد؛ فبقيتُ طوال الأيام اللاحقة أفكر بها، لا أكاد أعود من المدرسة حتى أتنقل على غير هدى بين غرف البيت كمن أضاع شيئاً ما. وصادف أن عثرت، في إحدى المرات، على منديل أبيض منسي على صندوق في إحدى الغرف تذكرت أنني وجدته بين أصابع بتول ذات يوم؛ فالتقطّه وقربّته من أنفي لأتشممه قبل أن أجهش في البكاء!!

وكان من البديهي أن أحتفظ بذلك المنديل، مستعيداً من خلاله ذكرى تلك الليلة.

وكثيراً ما كنت أمر بالقرب من بيتها في انتظار أن تسنح لي فرصة الوقوع على عذر مناسب يكفل لي دخول ذلك البيت بغياب والدها بطبيعة الحال. وصادف أن لمحت الرجل، ذات يوم، وهو يغادر بيته وقد ارتدى ملابسه الأنيقة يعلو العقال والكوفية رأسه ليجلس في المقهى القريب دقائق احتسى خلالها إستكان شاي قبل أن يذهب في حال سبيله، فاغتنمت الفرصة بالانطلاق نحو بيته لأطرق الباب وقد أخذ الاضطراب مني كل مذهب.

- ما بك؟ ولماذا أنتَ بهذا الشحوب؟

سألتني بتول وقد شقّت الباب لتطلّ عليّ بنصف وجهها قبل أن توسع لي المجال للدخول.

- جئتكِ بمنديلك!

تكلمتُ حال دخولي وإطباقي الباب خلفي. وكنت قد أخرجت المنديل من جيبي عارضاً إياه عليها، فاختطفته مني بحركة سريعة لتلقي عليه نظرة عابرة وهي تسألني بخبث:

- أحقاً جئتني لأجل إعادة هذا المنديل... فقط؟

وحينما لاحظتني وقد ازداد اضطرابي وحيرتي شكرتني وهي تضحك، فأسقط في يدي؛ فقد فقدت مسوّغ قدومي فلم أملك إلا الانسحاب، لكنني فوجئتُ بها تقول قبل أن أفتح الباب:

- أعلم سبب قدومك...

وأضافت بعد لحظات صمت محاذرة مبادلتي النظر هذه المرة:

- ما حصل حصل وأنا شبه نائمة.. والظلام مخيّم.

وصمتت من جديد قبل أن تسترسل:

- فلا تحكم عليّ من خلال سلوكي ذاك..

(مهران)

اندفع نديم مغادراً البيت، لا يلوي على شيء وقد أيقن باستحالة العودة، تتعقبه أمه بعويلها وهي تكرر بنبرة هستيرية:

- قتلت أباكَ.. قتلتَ أباك!!

يا إلهي!.. أية أرض ستسعه الآن إذا كانت أمه تحمّله جريرة أمر بهذا الحجم؟ كان واثقاً من أن أباه لم يمت؛ فكل ما حصل هو أنه وقع ضحية إحدى نوبات صرعه المروّعة، لكنه أدرك أن ما سيترتّب على ما حصل سيكون بالغ الجسامة!

بدا اللجوء إلى بيت أحد أقاربه في بدرة حلاً غير معقول؛ فغضب أبيه القادم سيكون مزلزلاً لن يجرؤ معه أي قريب على المجازفة بمدّ يد العون إليه.. كما أن الهرب إلى الكوت أو بغداد أمر لا معنى له لأنه لا يعرف أحداً هناك... فلا مفر له إذن من اختيار المكان الوحيد الذي سيوفّر له الأمن والمأوى برغم صعوبة الوصول إليه.. نعم لا مفر من اجتياز الحدود واللجوء إلى مدينة مهران الإيرانية القريبة حيث يقوم بيت خالته تلك التي هي زوجة وكيل المرجع الديني المعيّن هناك من قَبَل الحوزة في النجف.

ذرع الشارع بعض الوقت وهو يقلّب هذه الفكرة في ذهنه مدركاً صعوبة تنفيذها؛ فبرغم أن الحدود مفتوحة مع إيران - حيث من المألوف توجّه الزوّار إلى مدينة مهران للتبرّك بزيارة مقامي الوليين "سيد حسن" و"إبراهيم القتّال" – وبرغم أنه سبق له أن رافق أمه، أكثر من مرة، في زيارات متباعدة إلى شقيقتها، بيد أن ثمة سيارة كانت تتكفل عادة بإيصالهما، فكيف يقوم اليوم بالمغامرة ساعياً على قدميه؟

كان الوقت قد تخطى التاسعة صباحاً، وأغلب الدكاكين فتحت أبوابها، وكذلك المستشفى ودائرة البريد. اتجه نحو المقهى الذي كان صاحبه منشغلاً بترتيب التخوت ورشّ الرصيف بالماء.

- صباح الخير نديم بيك.. إنها أول مرة أراك فيها تبكّر بتشريف مقهاي بقدومك!

رحّب به صاحب المقهى، وتعقّبه إلى الداخل حيث تهالك جالساً على تخت منزوٍ بعيداً عن الباب، فسارع الرجل بسحب طاولة ليضعها أمامه. وسأله وهو يمعن النظر في وجهه:

- ما الذي جرى لوجهك؟

- لا شيء.. لا عليك.

تكلّم نديم وهو يتحسس وجهه متهرّباً من الإجابة. واستعاد ضربات سوط أبيه في لسعها الصاعق لوجهه. كيف له الآن تلافي هذا العارض الذي لم يخطر له ووجهه سيكون عرضة للأنظار أينما توجّه؟

- أريد منك تزويدي بما تحمل من نقود.

خاطب نديم صاحب المقهى؛ فتأمّله الرجل بشيء من الدهشة عمد بعدها، وهو يجفف كفيه بالمئزر المشدود إلى وسطه، إلى النبش في جيب دشداشته المتسخة ليستلّ من هناك مبلغاً نقدياً وضعه صامتاً في كفه، فدسّه نديم في جيبه دون أن يعدّه مطمئناً إياه بقوله:

- في وسعك استرداد نقودك من أمي وذلك بالمرور ببيتنا بعد يوم أو يومين.

- وهل تنوي السفر إلى مكان ما نديم بيك؟

- لم أقرر بعد... ما أطلبه منك، في حالة غيابي، أن تطمئن أمي عليّ... قل لها إنني بأمان.

ودّعه ليمرّ، في طريقه، بالمخبز حيث استقبله الخبّاز مرحّباً دون أن يفلح في الامتناع عن تأمّل وجهه بشيء من الدهشة. اقتنى بضعة أرغفة أودعها كيساً ورقياً اتخذ بعدها سبيله جنوباً نحو وادي الكلال ليلازم ضفته الشمالية متجهاً شرقاً متأمّلاً برهبة الجبال الإيرانية البعيدة وقد بدت له عند حافة الأفق وردية اللون بفعل شمس الصباح، تكتنفها زرقة الظلال. وإلى يمينه لاحتْ له بيوت "بدرة القديمة" تعلو الضفة الجنوبية للوادي العريض الذي كانت مياهه قد انحسرت كما هو شأنها صيفاً، فلم يبقَ من أثر لسيول الشتاء الجبارة سوى مخاضات موزّعة هنا وهناك وسط القاع المزدان بالحصى وشجيرات الطرفاء.

لم يصادف في طريقه سوى بقّالٍ قادمٍ من الحقول تتقدمه دابته المحمّلة بالخضروات. وبقيتْ بساتين النخيل تواكبه مسافة من الطريقِ قبل أن تتراجع إلى الوراء تاركة إياه وحده مع الخلاء اللانهائي الذي تنتصب فيه، هنا وهناك، أشجار الأثل والصفصاف والغرب، وثمة طيور جارحة تلوح له في تحليقها الشاهق وسط زرقة السماء.

ترى ما الذي جرى لأبيه؟ ألا يحتمل أنه تسبب بمقتله فعلاً دون أن يدري؟

بقيتْ هذه الفكرة المؤرّقة تقرع ضميره وهو يواصل السير مكتشفاً بمرور الوقت أن مغامرته ليست باللعبة التي تخيّلها، وأن الوصول إلى الحدود لن يكون سهلاً على غرار تلك الزيارات بصحبة أمه. وكان قد مضى عليه ما يقارب ساعة وهو يواصل السير دون توقف مطمئناً إلى أن ما يحمل معه من أرغفة ستردّ عنه غائلة الجوع، كما أن وادي الكلال سيكفل له حاجته إلى الماء.

وكان النهار قد قارب الانتصاف حينما لاح له المخفر العراقي الذي بدا أشبه بقلعة قائمة على حافة وادي الكلال، يعلوها العلم العراقي، وثمة سيارة عسكرية صغيرة جاثمة قرب البوابة المشرعة.

واستقبلته ضجة مذياع كان يصدح، داخل المخفر، بصوت مطرب ريفي، وثمة رائحة سمك تثقل الجو تكاد تكتم الأنفاس. وطالعه عدد من الرجال استحال عليه معرفة رتبهم العسكرية لأنهم كانوا أما بالمنامات أو مثله بالدشاديش.

- منذ دقائق ونحن نتتبعك بنواظيرنا وأنت تدنو منا كأنك مدعو لمشاركتنا في تناول سمك الكلال الذي لا نظير له!

علّق أحدهم ضاحكاً، في حين جابهه آخر بالسؤال المتوقّع عما جرى لوجهه؟ وسارع ثالث بإرشاده إلى غرفة انتصب في جانب منها سرير وثمة مقاعد توزّعت على محيطها دعاه إلى الجلوس على أحدها وهو يقول:

- لا شك أن التعب نال منك.

وسرعان ما التحق بهم الآخرون عدا المنشغل بقلي السمك الذي كانت تأتيه دندناته وهو يواكب بها مطرب المذياع في أغنيته وسط ضجة نشيش الدهن الذي كان يتعالى مع كل قطعة سمك جديدة تأخذ سبيلها إلى المقلاة.

أخبرهم بأنه بصدد اجتياز الحدود للوصول إلى مدينة مهران حيث يقيم قريبهم وكيل المرجع، فعاد الذي سبق له سؤاله عما جرى لوجهه يقاطعه سائلاً إياه إن كان بصدد اجتياز الحدود بسبب تورّطه في مشادّة تركت آثارها على وجهه كما هو واضح للعيان؟ حتى إذا ما أنكر طمأنه آخر مؤكداً له أن الأمر غاية في اليسر لا يتطلّب منه أكثر من أن يكون مزوّداً بإذن من قائمقام بدرة مع دفع عمولة للجانب العراقي قدرها مئة فلس وللجانب الإيراني (تومانان)، فأبدى استعداده لدفع ما مطلوب منه مع الاعتراف بأنه غير مزوّد بالإذن المطلوب، فتبادلوا بينهم نظرات حائرة، وترجّحتْ كفّة الزاعم بتورطه في مشادة لولا أن نديم سارع بإخبارهم باسمه واسم أبيه؛ وكان لذلك مفعول السحر؛ فقد تهللت أساريرهم، وأثنى أكثر من واحد منهم على أبيه مؤكدين له أنهم يسعدهم رعاية ابن الوجيه إسكندر بيك الذي تمتدّ أراضيه الزراعية لتتاخم الحدود الإيرانية. وانبرى أحدهم، قد يكون أكبرهم في رتبته، فأكد ضاحكاً:

- بما أنك ابن إسكندر بيك فلا حاجة بك إلى الإذن أو دفع تلك العمولة، وليس هذا فحسب بل سنتكفل بإيصالك إلى المخفر الإيراني بسيارتنا شريطة مشاركتنا في تناول... سمك الكلال!

وذلك ما حصل بعد تناول الغداء واحتساء الشاي؛ إذ اجتازت السيارة به وادي الكلال نحو الجانب الآخر حيث شرح السائق الأمر لحرس المخفر الإيراني. ولم يكد ينقضي أقل من ساعة حتى وجد نفسه يترجّل من السيارة الإيرانية قرب البيت المنشود وسط مدينة مهران.

استقبلته خالته مرحّبة مطلقة، في الوقت نفسه، صرخة دهشة وهي تمعن النظر في وجهه:

- ما الذي حصل لوجهك؟ ما هذه الآثار الحمر؟ من المؤكد أنها ستتورم إن لم نتدارك الأمر بطريقة ما!.. هل تشاجرت مع أحد؟

لم يكد يطمئنها بأن الأمر لا يستدعي منها القلق حتى أفصحت، هذه المرة، عن دهشتها لكونه قدم وحده؛ فأخبرها بحصول مشادّة بينه وبين أبيه، فتساءلتْ جزعة وهي تتأمله بعينيها اللتين ذكّرتاه بعيني أمه:

- من الواضح أنها مشادّة تخطت الحدود المتعارف عليها بين الأب وابنه مما اضطرك إلى النفاذ بجلدك بالمجازفة باجتياز الحدود!

وحينما أومأ برأسه إيجاباً عادت تعلّق بأسى:

- ومن المؤكد أن ما تحمله على وجهك من آثار حدثت بسبب استهتار أبيك المعهود؛ إذ يبدو أنه لا يزال كما عهدته في شبابه: يتعامل مع الجميع – بمن فيهم ابنه الوحيد - بضربات سوطه!

وسارعتْ تجدد ترحيبها به راجية إيّاه أن يعدّ البيت بيته، تركته بعدها في عهدة ابنها البكر المقارب له في السن.

ليلاً، مع عودة رب الأسرة، كان ملزماً بأن يكرر له سرد ما حصل بينه وبين أبيه، فطمأنه ذلك السيد الجليل - الذي كان يكفيه أن يمر بأحد أزقة مهران ليتزاحم الناس من حوله متبرّكين بلثم كفه - وبالغ بدوره في ترحيبه به مبدياً، في الوقت نفسه، قلقه لجهل أسرته بالمكان الذي لجأ إليه، فأكد له نديم أن ذلك لم يغب عنه؛ فقد طلب من صاحب مقهى، هو موضع ثقته، بأن يطمئن أمه عليه لكونه بين أيدٍ أمينة.

- بارك الله بك يا ولدي.

ختم السيد كلامه وهم في مكتبته العامرة بآلاف الكتب العربية والفارسية. وودعه بعدما أوصاه بضرورة اللجوء إلى خالته عساها أن تفلح في معالجته، بيد أن الذي حصل اكتشافه، صباح اليوم التالي، أن تلك الجروح تورّمتْ وازرقّتْ برغم كل الجهود التي بُذلت لعلاجها؛ فاضطر إلى ملازمة البيت على مدى أيام كان يهرع خلالها، كل صباح، إلى المرآة ليدقق النظر في آثار السياط.

ومر عليه أسبوع وهو معتكف في بيت خالته، لا شيء يشغله غير ذكرى تلك المشادّة التي حصلت بينه وبين أبيه والتي انتهت بذلك المنظر المفزع حين سكن الرجل العجوز سكون الموت وسط حطام عشرات الأشياء التي تهشّمت تحت ثقليهما وهما يتقلبان، في حمى صراعهما، للاستحواذ على السوط.

تُرى هل مات والده؟ محال؛ إذ لو حصل ذلك لوصل النبأ إلى مهران لإبلاغ خالته بالأمر.

كان يردد هذه الأفكار في دخيلته ملاحظاً كيف أن حقده الدفين نحو أبيه أخذ ينمو طوال تلك الأيام المعدودة مقترناً بحقده تجاه امرأتين ما التقاهما قط هما فردوس وهاجر!.. من تكون هاتان المرأتان؟ ولماذا ثار والده تلك الثورة بسبب التطرّق إلى سيرتهما الغامضة في دفتره؟

سؤالان سرعان ما تجاوزهما بعدما اندملت جروحه فبات في وسعه مرافقة ابن خالته الذي شرع في اصطحابه إلى شتى أرجاء مدينة مهران التي كانت تشبه مدينة بدرة لولا خلوها من بساتين النخيل.

هكذا مضت الأيام في صحبة ابن خالته، لا شأن لهما سوى التجوال في أزقة المدينة أو الجلوس في المقهى دون أن ينسيا قضاء بعض الوقت على ضفة واديي "كنجاجم" و"كاوي" اللذين كانا نسختين متطابقتين لوادي الكلال.

وكانت لهما كذلك جولات في البساتين القليلة التي كانت تسودها أشجار المشمش. وكان مقاما الوليّين المقدسين محط رحالهما أكثر من مرة ولكن ليس بوازع ديني قدر ما كان بدافع التمتع بجمال الفارسيات اللائي يتصفن عادة بالجرأة واللامبلاة في تعاملهن مع الشباب.

وكانت قد انقضت على قدومه أسابيع ليلة أستدعي إلى مكتبة السيد الذي لم يكد يلتقيه حتى دقّ قلب نديم هاجساً بأن أمراً ما حصل لأبيه على وجه التحديد لا لغيره.

تأمّله السيد، في جلسته تحيط به رفوف كتبه، لحظات قبل أن يبادره بالقول:

- التقيت اليوم أشخاصاً قادمين من بدرة لزيارة مقام "السيد حسن".

ولبث خافق القلب لحظات في انتظار أن يفصح عما يحمل من أنباء.

- اطمئن.. لا تقلق.. ما حصل أن أباك أصيب بعارض طارئ أظنه جلطة في الدماغ!

ما هي النتائج المترتبة على حصول الجلطة في الدماغ؟ سأل نديم نفسه وقد ثبّت نظرته على فم السيد في انتظار بقية كلامه.

- ستكون سيارة في انتظارك ظهيرة الغد لتعود بك إلى بدرة مع الزوّار العائدين حيث سيتسنى لك تفقّد أحوال أبيك.

واسترسل بعد لحظات صمت:

- سينتهي كل شيء بخير بإذن الله، وستجد باب بيت خالتك مفتوحاً لاستقبالك متى ما شرفتنا بالقدوم مجدداً.

(٧)

لم تكد تمر أيام معدودة على عودتي من بغداد، ولقائي بتول في ظلام حديقة بيتها، حتى أُعلن عن انتهاء كارثة "عاصفة الصحراء" بوقف إطلاق النار؛ فقررتُ المرور ببتول قبل العودة بأسرتي إلى بغداد.

بدتْ بتول، هذه المرة، شديدة القلق، لا تكفّ عن التدخين طوال جلوسنا في غرفة الاستقبال حيث الساعة الجدارية كانت تواصل تكتكتها الأبدية كأنها تحصي بذلك علينا أنفاسنا. سألتها إن استجدّ في أمر نديم ما يدعوها إلى القلق؟ فنفتْ بهزّة من رأسها. ومرّتْ لحظات قبل أن تتكلم:

- لم يحدث شيء سوى أن الخاتون زارتني في بيتي بصحبة عدد من أبنائها.

- تعنين ألفت خاتون؟

- وهل هناك خاتون غيرها في هذا الزمن الأغبر؟

تساءلت بتول متهكمة. وتابعت وهي على وشك الانخراط في البكاء:

- لقد أذلّوني على مدى نهار كامل لم يكتفوا فيه بتناول الغداء؛ بل عمدوا دون حياء، وعلى مسمع مني، إلى تقدير ثمن هذا البيت في حالة بيعه... أما البساتين والأراضي فقد قالوا بمنتهى الوقاحة إنه لا مفر من الاستعانة بذوي الخبرة والاختصاص للبتّ في الأمر... لقد تمادوا في تعذيبي حتى اضطروني إلى الهرب منهم والاعتصام بغرفتي تاركة غريب المسكين يتورط في خدمتهم.

ومسحت عينيها بمنديلها لتستطرد بعدما بادلتني نظرة طويلة:

- وضعي الآن، كما ترى، بات محرجاً، وما سيزيده إحراجاً احتمال أنك، بعودتك إلى بغداد، ستصرف النظر عن السؤال عما جرى لنديم.

- بالعكس؛ بل إن وجودي هناك سيتيح لي فرصة المرور بالمستشفى وقتما أشاء.

- وما جدوى مرورك والمستشفى قد أخلي منهم كما سبق لك أن أخبرتني بذلك؟

- من المؤكد أن المسؤولين سيشرعون - وقد انتهت الحرب - في تعقّب هؤلاء المرضى ليعيدوهم إلى المستشفى لإنقاذهم مما تتربص بهم من كوارث ستتضاعف بفعل فرض الحصار علينا.

داخلها الاطمئنان بعض الشيء؛ فعادت تقترح عليّ فكرة مساعدتي بمدي بقليل من المال، فشكرتها مؤكداً أن الأمر لن يكلفني ما يستدعي إسعافي بنقودها.

- وعملك في تلك المجلة؟ ألا يحتمل الاستغناء عنك الآن بسبب الحصار؟

سألتني معترضة، فأكدتُ لها أن الأمر لا يستدعي القلق؛ فاستغناء تلك المجلة عني لا يعني عدم وجود مجلة أو صحيفة أخرى سترحّب بانضمامي إلى هيئة تحريرها.

لحظة الوداع طلبتْ مني الانتظار بعض الوقت. وغابت دقائق قبل أن تعود بصورة دسّتها في كفّي قائلة:

- إنها صورته.. قد تفيدك في بحثك عنه.

كانت صورة قديمة بالأسود والأبيض، بدا فيها نديم، بخديه الخاسفين وعينيه الحزينتين المتطلّعتين إلى المشاهد بنظرة غائبة، كأنه أُخذ على حين غرّة لحظة التقاط الصورة!

- لماذا يبدو حزيناً بهذا الشكل؟

تساءلتُ متعجباً، فردّت بتول قائلة:

- هكذا كان طوال حياته، وقد لا تصدّقني لو أخبرتكَ أنني لم أره، على مدى حياتنا الزوجية، يبتسم أو يضحك قط!!

***

صباح اليوم التالي عدت بأسرتي إلى بغداد حيث استقبلنا جاري المصري بفرح لا يوصف، وبقي يردد وهو يعيننا على حمل الحقائب إلى البيت:

- يا نهار أبيض.. نوّرت بيتك ومطرحك يا فندم.

وانصرفتُ، على مدى أيام، إلى تفقّد ما يُفترض بي تفقّده بعد مرور أسابيع بعيداً عن بغداد بادئاً ذلك بالتوجّه إلى مقر عملي في المجلة ليتأكد حدسي من أنه لم يعد لي موضع هناك؛ فلحظة وقوفي عند باب تلك الصالة التي يتصدّرها مكتب المسؤول الأمني فوجئت بجو من التوتر يسود المجتمعين؛ حتى أن تحيتي ضاعت في ضجة مشادّة بدت مرشحّة إلى أن تتطور.

استفسرت من أحد الواقفين عند الباب عن الأمر؟ فأجابني، وهو يتابع بعينيه ما يجري في الداخل، أنهم بصدد إجراء انتخابات لهيئة جديدة للمجلة على أثر صدور أوامر بإعادة تشكيلها في ضوء التشريعات المتعلقة بالتقشّف. واستدرك بعدما تبيّن من أكون (مبشّراً) إياي بأنه سيتمّ الاستغناء عن العديد من العاملين ولاسيما أصحاب العقود - وأنا كنت منهم بطبيعة الحال - وحتى المحاسب الهزيل الشاحب سلّمني راتبي بازدراء كمن يتصدّق على متسوّل مودّعاً إياي بعبارة بالغة الاقتضاب:

- مع السلامة.

سارعتُ بالخروج وسط ضجة البدء بالصفع واللكم. ولم أدرِ لِمَ خطر نديم إسكندر في ذهني؛ أيعود ذلك لشعور مبهم بأن الجنون لم يعد وقفاً على مستشفى خلا من نزلائه بل بدأ يعدي الجميع؟

توجهت من فوري إلى المصرف لسحب آخر مدخراتي بعدما بتّ موقناً باستحالة التعويل على راتب زوجتي المدرّسة وحده لصرف شؤون الأسرة. وحرصت يوم الجمعة على لقاء

صديقي زاهد سلمان في مقهى "حسن عجمي"، وكان قد سبقني في الحضور جالباً معه رزمة كتب لغرض بيعها في شارع المتنبي.

- بدأتْ أيامنا السود يا زاهد.

خاطبته وأنا أعانقه، فأجابني وهو يربت على رزمته:

- لم تبدأ الآن يا صديقي، بل بدأتْ منذ توهمنا أننا سنجد خلاصنا بهذه الكتب!

ومضى يكرر على سمعي ما سبق له أن حدّثني به أكثر من مرة عن (بلادة) انسياقه، في شبابه، لأوهامه (الإبداعية)؛ فاختار أكاديمية الفنون الجميلة برغم أن درجاته كانت تؤهّله للقبول في أية كلية يرغب فيها وذلك انسجاماً مع رغبته القاهرة بالتمثيل – كم حلم بأن يسند إليه يوماً ما دور هاملت في مسرحية شكسبير المشهورة! – غير مدرك أن التمثيل – كما ردد المرحوم والده متهكماً يوم سمع باختياره – (لا يوفّر خبزاً في بلاد تُحوّر فيها أوراق الكتب إلى أكياس لتعبئة "حَب شمس")!

أخبرته بتسلّم آخر راتب وانتهاء عملي في المجلة؛ فذكّرني، وهو يعاود الربت على كتبه، بأنه لا مفر لي من الالتحاق به في عمله ببيع الكتب على أحد أرصفة شارع المتنبي. وعاد يزيّن لي الأمر مؤكداً أنه تكفيني المجازفة بالتضحية بأول مجموعة من كتب مكتبتي – ولتكن من الكتب التي لا أقربها إلا نادراً – ليهون عليّ الأمر بمرور الأيام وتلاحق (التضحيات)!

وكان نادل المقهى أبو داود يوزع (بركاته) من حولنا على شكل إستكانات شاي مصحوبة بكلمات تودد أو زجر بحسب معرفته المسبقة بكرم أو بخل الجالس في نفحه بـ(البقشيش)، حتى إذا ما دنا منّا ركن إستكاني الشاي أمامنا على الطاولة ليصيح وقد انفرج فمه، المؤطر بشاربين أبيضين ملطخين باصفرار دخان "النارجيلة"، عن ضحكة متهكمة كشف بها جذاذات الأسنان المبعثرة في فمه:

- طاولة أم دومينو؟

- انتهى زمن اللعب يا أبو داود!

أجابه زاهد، فصاح أبو داود مازحاً وهو يبتعد عن طاولتنا:

- انتهى بـ(هب بياض) كما يبدو يا أستاذ.

- تفضّل: خذ الحكمة من فم أبو داود!

علّق زاهد وهو يبادلني النظر. وسرعان ما انهمكنا في التحدّث عما جرى لنا طوال أسابيع الحرب الماضية؛ فأخبرته باختفاء نديم من الشماعية التي خلت من نزلائها كلهم، فسألني متفجّعاً:

- والدفتر؟ من المؤكد أنه اختفى بدوره!

- طبعاً اختفى!.. وهل كنت تتوقع غير ذلك؟

فصاح بحنق:

- ستبقى الملوم في ما حصل؛ فقد أخطأت بالموافقة على كتابة تلك الفصول في دفتره.

- لم أجد وسيلة أخرى أقنعه بها ليوافق على سرد ذكرياته؛ فقد أصرّ على كتابتها في دفتره اللعين، كما أنه لم يكن في وسعي التنبؤ بأنه سيقدم على الانتحار ليودع على أثر ذلك في الشماعية مجدداً!

- كان عليك توقّع ذلك؛ فوضعه النفسي – كما أنبأتني – كان قد ازداد تردياً.

- نعم.. كان يفترض بي توقّع ذلك، بيد أن الإغراء كان أقوى من كل توقعاتي؛ فتجربته الاستثنائية في الحياة لم تترك لي فرصة للحذر والتوجّس.

- اعترفْ بأنك أضعتَ على نفسك فرصة وجوده في الشماعية قبل اندلاع الحرب؛ فالأمر لم يكن يتطلّب منك سوى التوجّه إلى هناك وإقناعه بتسليمك الدفتر عوضاً عن إرجاء ذلك حتى نشوب الحرب.

أجبته مطلقاً، في الوقت نفسه، ضحكة متهكمة:

- يا إلهي!.. كما يبدو الأمر بالغ اليسر لمن لا يعرف نديم على حقيقته!

وتابعتُ وأنا أغلي غضباً:

- لقد ذهبت إلى هناك والتقيته، لكنه رفض الإصغاء لي وأنا أحدثه عن الدفتر، بل بقي يسعل متحسساً عنقه الملفوف بالضماد، هاذياً عن أمر غامض بالغ الخطورة لا يمكن تداركه، ليغادرني في النهاية دون وداع محذّراً إياي من المرور به مجدداً... إنه، بما يتصف به من عناد، كلب ابن ستين كلب.. يكفي أنه مجنون، أتسمعني؟ مـ.. جـ.. نـ.. و.. ن... لقد كاد يصاب بنوبة صرع اربدّ معها وجهه وازرقّ يوم طلبت منه أن يعيرني دفتره ذاك لتتسنى لي قراءة ما كتبه فيه، فكيف كان سيتنازل عنه الآن وقد تحكّم به جنونه حتى أوشك أن يفلح في شنق نفسه؟!

- حسن... لنصرف النظر عن هذا الأمر الآن .. ما رأيك لو دعوتك الليلة للسهر، على حسابي، في نادي اتحاد الأدباء؟

وأضاف وقد نهض متأبطاً كتبه:

- لقد أعاد الاتحاد فتح أبوابه بفضل وجود مولّد عملاق يزوّد منطقة ساحة الأندلس بالتيار الكهربائي؛ وبذلك سيكون في وسعنا أن نمضي ليلتنا في سمر عوضاً عن اللجوء مبكرين كالخفافيش إلى فراشنا.

وذلك ما حصل؛ إذ انزوينا، تلك الليلة، قرب الواجهة الزجاجية المطلّة على الحديقة الخلفية متأملين الأشجار وقد استسلمت لمطر عاصف، وثمة مصباح نيون معلّق وسط إحدى الأشجار العملاقة يشتعل وينطفئ مضفياً على ما حوله جوّاً كابوسياً يبعث على اليأس. وكانت الصالة قد امتلأت بروادها المعهودين حيث ضجة المخمورين كانت تتصاعد بمضي الوقت.

- ستخفتُ هذه الضجة بمرور الأيام حينما يفعل الحصار فعله فيحتار المرء في تدبير لقمة خبزه اليومية.

علّق زاهد وهو يدير على الجالسين نظرة حزينة، فأجبته ضاحكاً:

- لا أظن مائدة ياسر ستنتهي إلى هذا المصير؛ فالرجل أكثر حذقاً من أن يستسلم للأمر الواقع؛ سيتدبّر أمره مع التقشّف بشكل من الأشكال.

- لا يبعد ذلك؛ فهذا هو شأن الحرباء: يتلوّن بحسب ما تقتضي الظروف!

وتأمّلنا تلك المائدة القريبة حيث بدا ياسر وكأنه يوشك أن يغصّ بضحكة بسبب طرفة جاد بها، كما يبدو، صديقه العملاق عبد القادر الذي بقي محافظاً على جهامته ووقاره، في حين انصرف ثالثهما ناظم إلى ضرب المائدة بقبضته وسط قهقهاته المدويّة التي كنت أشعر بزجاجات الواجهة تهتز على وقعها!

وكان الثلاثة قد عادوا يقرّبون رؤوسهم من بعضهم، بعد انحسار عاصفة الضحك، لينفرد ياسر بحديث حميم من المؤكد أنه يدور حول فتوحاته الغرامية الموهومة!

وكانت ضجة الجالسين من حولنا تزداد دويّاً بمرور الوقت وتزاحم قناني البيرة والعرق وصحون المقبّلات على الموائد. وكان زاهد يبالغ بدوره في كرمه مكرراً أنه لن يعود الليلة إلى بيته إلا بعدما يكون قد أجهز على معظم ما في جيبه.

وعاد يذكّرني بضرورة مشاركته في بيع الكتب في شارع المتنبي يوم الجمعة أسوة بعشرات المثقفين الذين سبقونا في الشروع ببيع كتبهم. وحينما رآني أحاول أن أبدي اعتراضاً سارع يضيف:

- أعلم أنه يعزّ عليك بيع كتبك التي جمعتها كتاباً كتاباً على امتداد عمرك، ولكن لا تنسَ الحكمة القائلة "للضرورة أحكام"؛ فحياة أسرتك أهم من كتبك دون شك.

ومضى يزيّن لي الأمر قائلاً إنه في وسعي، لقاء مبلغ زهيد، مشاركته في تخزين الكتب التي أنوي بيعها في الموضع نفسه الذي سبق له استئجاره في واحد من تلك المخازن التي تشغل الطوابق العليا من البنايات القديمة المحيطة بشارع المتنبي.

واسترسل وقد ازداد حماسة:

- تأكّدْ أنك لن تفرّط إلا بما يفيض عن حاجتك من كتب مكتبتك، بل لعله ستسنح لك فرصة العثور على كتب سبق لك أن بحثتَ عنها دون جدوى كما حصل مع أكثر من صديق؛ إذ لا يكاد يمر يوم جمعة دون حصول ذلك؛ فالكتب فقدت أهميتها لقاء لقمة الخبز، والمثقفون يعرضون كتبهم بالجملة للبيع.

بدتْ فكرته مقنعة؛ فوافقته عليها؛ فسعد كثيراً بذلك، ورفع نخب مشروعنا القادم!.. وسألني في إحدى المرات، وقد تحكّم به السكر، عما سأفعله بشأن نديم إسكندر؟ فأجبته أنني سأمر يوم غد بالمستشفى للسؤال عنه، فعلّق ضاحكاً:

- إنها أول مرة في تاريخ الرواية يبحث فيها روائي عن بطل روايته بعد ضياعه مرتين: مرة على شكل دفتر انتهى إلى مصير مجهول، وأخرى على شكل مجنون هارب من المستشفى!!

صباح اليوم التالي السبت توجهت، وأنا أغالب نوبة صداع ألمّتْ بي، إلى مستشفى الرشاد حيث سيارة أجرة عتيقة اجتازتْ بي الشوارع نفسها المملوءة بالمطبات، وطالعني الأطفال أنصاف العراة وسط أسراب الدجاج والحمير المربوطة إلى عربات النفط.. كان كل شيء على وضعه السابق خلا المستشفى نفسه: فقد فوجئتُ بحارس يعترض سبيلي لحظة محاولتي الدخول ليمسكني من يدي ويقودني - تماماً مثلما يُقاد طفل! - إلى غرفة الاستعلامات حيث أوقفني عند مكتب يشغله رجل بالزي الزيتوني المعهود، وكان شعره مصبوغاً بلون بالغ السواد لا يناسب وجهه المملوء بالتجاعيد.

- اللقاءات الصحفية ممنوعة إلا لمن يكون مزوّداً بكتاب خاص بتسهيل المهمة صادر عن وزارة الصحة.

كلّمني دون أن يرفع وجهه عن سجل ضخم كان يكتب فيه، وحينما أخبرته بالغرض من زيارتي أجابني وهو مصرّ على ألا يتكرم بإلقاء نظرة عابرة عليّ:

- نحن مشغولون، كما ترى، بتنظيم الأمور كلها بما فيها السجلات.. عد بعد أسبوعين أو ثلاثة، بل الأفضل بعد أشهر؛ وستجدنا نستقبلك مرحبين شريطة أن تكون مزوداً بذلك الكتاب.

وفوجئت بالحارس - الذي ظل واقفاً خلفي - يمسك بيدي من جديد ليقودني إلى الخارج، حتى إذا ما تخطينا البوابة أطلق يدي مردداً عبارة مقتضبة ذكّرتني بمحاسب المجلة لحظة توديعه إياي بعد تسلّمي آخر راتب:

- مع السلامة!

(النظرة الزجاجية)

لم يغمض لنديم جفن وهو يقضي آخر ليلة له في مهران؛ فقد بقي يتقلّب على فراشه حتى الفجر مفكّراً باحتمال أن يكون أبوه قد مات، وأن السيد أخفى عنه النبأ حرصاً منه على ألا يصدمه.

وفكر مروّعاً بأمه التي ستجد أخيراً مسوّغاً مقنعاً لحرصها على ارتداء السواد.

من يجرؤ الآن على أن يدعوها إلى الكف عن الالتزام بحدادها الأبدي؟

ومن الذي سيجازف بسؤالها عن سر ذلك الحزن الملازم لها؟

وسر عزوفها عن الضحك بصوت مسموع؟

وتخيّل منظر البيت وقد ساده الصمت: لا شيء يسمع فيه سوى تكتة ساعة غرفة الاستقبال ودوي دقاتها معلنة الوقت بين ساعة وأخرى.

واستعاد بأسى نتفاً من ذكريات طفولته مع أبيه: كم كان سعيداً آنذاك وهو يرى مبلغ حرصه على إحاطته برعايته واهتمامه لكونه ابنه الوحيد الذي رزق به على كِبَر عقب ولادة ابنته البكر ألفت من زوجته المتوفاة ثريا، وكم كان يخاف عليه من أن يُصاب بمكروه ولا سيما بعدما أكد الأطباء احتمال أن يتوارث عنه داء الصرع!

كان يردد بفزع وهو يتأمّله بنظرة غريبة:

- كل شيء إلا الصرع... لن أطيق أن أراك ترث عني هذا الداء الرهيب الذي لا يسعفني الكلام لأحدثك عما يسبب للمبتلى به من يأس.. أبداً لن يسعني ذلك.. يكفيني أن أقول إن الإنسان السليم يموت عادة مرة واحدة، في حين يموت المصاب بهذا المرض مع كل مرة يقع فيها صريع إحدى النوبات!

لم يكن الأمر يتطلب من نديم إلا أن يقترح على أبيه ما يرغب فيه ليستجيب لطلبه ذاك فوراً حتى أنه جازف في إحدى المرات بأن اقترح عليه اصطحابه إلى الحمّام؛ فسأله أبوه بدهشة:

- أي حمّام تعني؟ فبيتنا لا يخلو من حمّام كما تعلم!

- أقصد حمّام المدينة العام.

- ومن الذي أوحى لك بهذه الفكرة الغريبة؟

- سمعت عنه الكثير.. يقال إنه حمّام مقام تحت الأرض مثل الحمّامات التي يرد ذكرها في "ألف ليلة" وليلة!

- أشك بوجود حمامات على هذه الشاكلة في ذلك الكتاب؛ فسبق لي أن قرأته دون أن أتنبه إلى وجود حمّام مثل حمّام بدرة.. لكن لا ضير.. دع أمك تهيء ملابسك لنذهب إلى هناك مساء الجمعة.

ردّ أبوه ضاحكاً، حتى إذا ما حلّ مساء الجمعة قاده إلى ذلك الحمّام العجيب الذي تطلّب منه أن يهبط درجات سلّم طويل انتهى بباحة مربعة يتوسطها حوض ماء. وكانت الجدارن مزدانة بصور طواويس وبحيرات تحيط بها غابات.

ونضا أبوه عنه ثوبه وتعرى بدوره ليقوده إلى ممر قصير أفضى بهما إلى قاعة واسعة مقببة السقف يغمرها البخار وتترجع فيها الأصوات مدوّية، وثمة رجال عراة يتجولون وسط سحب البخار، وأخرون تربعوا عند صنابير ماء وهم ماضون في الغسل والتدليك وتبادل الصراخ المصحوب بقهقهات تتردد أصداؤها مثل قصف الرعد!

وكان أبوه يحرص على اصطحابه في جولات إلى أراضيه، مبدياً سعادته وهو يرى فلاحيه يحتفون بابنه؛ فيهرعون لاستقباله أينما حلّ في القرى الموزّعة هنا وهناك، مبادرين باندفاع إلى نحر الذبائح احتفاء بـ(البيك الصغير) وهو يشرّفهم بزيارته (الميمونة)!

كما اصطحبه أكثر من مرة إلى بساتينه العديدة حيث الفلاحون كانوا يتبارون بينهم ليسبق بعضهم بعضاً وهم يضعون بين يديه الصغيرتين سلال العنب وزنابيل البرتقال والرمان والتفاح والخوخ ناهيك عن أجود أصناف التمور.

ولعل أروع تلك الجولات تمثّلت بذلك اليوم الذي مرّ فيه أبوه على طاحونته المائية، القائمة في ظاهر المدينة على حافة وادي الكلال، حيث ذهل نديم وهو يسمع ذلك الدوي الهائل الصادر عن حجري رحى عملاقين يدور أحدهما فوق الآخر ساحقين سيل القمح المنصبّ في فتحة في الرحى العلوية ليتحوّل خلال لحظات إلى دقيق أبيض!

ولم يصدّق نديم سمعه حينما سأل أباه عن القوة الخفيّة التي تحرّك هذين الحجرين العملاقين؟ فكان جوابه – وقد رفع صوته فوق الدوي الأصم – أنه ليس سوى الماء!

- وكيف يسع الماء تحريك حجرين بهذا الثقل وهو الذي قد يعجز أحياناً عن حمل قشة؟

عاد نديم يصيح متسائلاً، فقاده أبوه من يده خارج الطاحونة، وارتقى به مرتفعاً من الأرض يحاذي البساتين في علوه، يشقه مجرى جدول يصبّ ماءه في هوّة يبعث التطلّع في عمقها إلى الدوار.

- تأمّلْ هذا الشلال في انصبابه في هذه الهوّة... إنه ينبثق من خلال فتحة في الأسفل محرّكاً بذلك عتلة مسننة مثبّتة تحت الطاحونة تحرّك بدورها الرحى في الداخل.

كانت جولة لا تنسى بقي نديم يستعيد تفاصيلها عشرات المرات، بل حلم بتلك الطاحونة أكثر من مرة؛ فعمد، ذات يوم، إلى بناء نموذج مصغّر لها من طين الحديقة سحب إليه الماء بوساطة أنبوب مطاطي موصول بصنبور!

تُرى لماذا تردّت العلاقة بينهما بمرور السنين؟

أبسببه هو؟ أم لتغيّر أبيه وقد طعن في السن؟

لعل له دوراً في ما حصل دون أن يدري، دوراً مبهماً لن يغفر نفسه عليه أبداً لو قيّض له أن يعرفه يوماً ما.

وعاد يفكر بموت أبيه المحتمل، ومن المسؤول عن ذلك في حالة حصوله؟ أليس هو وحده دون خلق الله أجمعين؟

كيف له بعد اليوم التجوال مرفوع الرأس في أزقة مدينته وثمة من يردد من خلف ظهره:

- قاتل أبيه؟!

يا لها من وصمة مروّعة سيحملها على جبينه إلى الأبد، وصمة لا سبيل له إلى إزالتها إلا بالاقتصاص ممن كان السبب الحقيقي لكل ما حصل: فردوس وهاجر.. فهما وحدهما تحملان جريرة كل ما حصل!

ولكنْ ما أدراه بأن هاتين المرأتين لا تزالان على قيد الحياة؟

ودهش لمبلغ غبائه لأنه فاته سؤال أمه عن هذا الأمر!

عليه أن يبادر بالسؤال عن ذلك حال عودته إلى بدرة.

ظهيرة اليوم التالي اصطحبه ابن خالته إلى الكراج حيث كان قد حجز له سلفاً مقعد السيارة المحاذي لمقعد السائق. ودسّ بين قدميه كيساً قال إنه يضم خليطاً من الجوز واللوز والمشمش المجفف هدية أمه لشقيقتها. ولم تكد تمرّ سوى دقائق حتى امتلأت مقاعد السيارة بالركّاب؛ فانطلقتْ بهم في طريق العودة إلى بدرة في رحلة لم تستغرق طويلاً على النقيض من رحلة قدومه إلى مهران.

كان يقينه بموت أبيه قد ترسّخ لديه طوال الطريق حتى أنه لم يعد يخامره الشك في ذلك أبداً.

وكان قلبه قد أخذ يخفق في صدره بشكل مؤلم لحظة لاح له زقاقهم من بعيد.

الآن.. الآن سيرى يُتْمه وقد تحقق بأسوأ شكل كان يخطر له على بال.

لم يكد يغادر السيارة قرب الزقاق، محمّلاً بكيسه، حتى أرهف السمع متوقعاً سماع صوت المقرئ يتردد في مكبّر الصوت وهو يرتّل آيات من القرآن!

بيد أن الصمت كان مخيّماً، لا شيء يُسمع سوى ضجة مجموعة صبيان في أقصى الزقاق منهمكين بلعب الكرة.

لم يكد يدنو من البيت حتى انفتح باب الحديقة الحديدي بصريره المعهود ليغادره الطبيب اليوناني قسطنطين مدير المستشفى الذي استقرّ منذ أعوام في مدينتهم فرزق فيها بابنه الوحيد "جوني" الذي بات كأحد صبيان بدرة: يحلف بالعباس، شأن أقرانه الآخرين، ليؤكد صدقه في أمر ما لا مفر من أن يُقترن بالحلف ليحظى بالتصديق!

سار الطبيب بجرمه العملاق في اتجاهه، يتعقّبه فرّاشه الضئيل الحجم هوبه – هكذا شاء الناس تصغير اسمه "وهاب" بما يناسب حجمه! - محمّلاً بالحقيبة الجلدية التي هي أشبه بصيدلية متنقّلة. وسارع هوبه يعرّف الطبيب بنديم أثناء مرورهما به؛ فخاطبه هذا مازحاً عقب ضحكة مكتومة اهتز لها كرشه:

- يا لك من عفريت.. يبدو أنك في عجلة من أمرك لترث أملاك البيك الشاسعة!

لم يحر نديم جواباً برغم أن ذلك الكلام آلمه كثيراً؛ فاكتفى بأن تابع الطبيب بنظرة غضب وهو يمخر بجرمه الضخم نحو مدخل الزقاق، يتواثب خلفه هوبه بالحقيبة.

في البيت هرعت أمه، لحظة دخوله، لتحتضنه بصمت. أغرقته بقبلاتها وهما لا يزالان واقفين في الحديقة. قالت هامسة وقد تناولت الكيس منه:

- حالته ميؤوس منها يا نديم .. شلل نصفي لا شفاء له منه إلا بإرادة الله.

ومضت تحدثه هامسة - ذلك الهمس الذي سيسود البيت على مدى الأيام اللاحقة - عما جرى طوال فترة غيابه:

- لو تعلم بالرعب الذي شلّني لحظة اندفعت فيها أنت مغادراً البيت تاركاً إياي وحدي معه!.. ظننته مات دون أن يخطر لي أنه أصيب بنوبة صرع؛ فبرغم تعدد النوبات التي أصيب فيها بهذا الداء على امتداد السنوات الماضية، بيد أن هذه النوبة بدت مختلفة: ذلك لأنه خمد على أثرها في موضعه لا يريم حراكاً كأني به جثة هامدة وسط عشرات الأشياء التي تحطمت تحتكما أثناء صراعكما المرير!

واستطردت محدثة إياه عن اضطرارها إلى اللجوء إلى الجيران ليساعدوها في معرفة حقيقة ما حصل. حتى إذا ما عادت إلى بيتها، وفي رفقتها عدد من الرجال، فوجئت بزوجها يتلوى في موضعه والدم يتدفق من أنفه بغزارة!

- حينها سارع أكثر من واحد من هؤلاء الرجال النشامى بالذهاب إلى المستشفى ليعودوا بالدكتور قسطنطين الذي عرف من فوره علّة أبيك؛ فحالما لمحه أدرك أنه مصاب بجلطة دماغية، فقد خاطبني بعربيته المشوهة مشدداً من عزيمتي وهو ينبئني بأن أياماً عصيبة ستكون في انتظارنا نحن الاثنين: هو الذي سيبقى رهينة بين يدي الله الكفيل بشفائه، وأنا التي عليّ أن أتهيّأ لتمريض زوجي فترة مديدة؛ فالشفاء من هذا الداء ليس بالأمر اليسير.

- أريد أن أراه.. لا بد لي من رؤيته!

تكلم نديم بحسم، فرمقته أمه بنظرة استياء تركته بعدها لتدخل بالكيس إلى مطبخها، في حين سار نديم نحو غرفة أبيه القائمة في مواجهة غرفته في القسم الخلفي من البيت حيث استجاب الباب للمسة يده الراجفة فانفتح على خزانات الكتب والكراسي السابحة في ضوء مصباح كهربائي صغير، وكانت المروحة السقفية تدور ببطء.

كان أبوه مضطجعاً على ظهره في السرير لا يريم حراكاً؛ فخيّل إلى نديم أنه فارق الحياة، فتقدم منه بخطى حذرة وهو يغالب دقات قلبه الآخذة بالتسارع، حتى إذا ما وقف فوق رأسه خاطبه هامساً بعدما ازدرد لعابه:

- أبي!

وبغتة جفل نديم على منظر عين أبيه اليسرى وقد انفتحتْ، على غير توقع، على وسعها متطلعة إليه بنظرة زجاجية أشبه ما تكون بنظرة رجل ميّت، في حين بقيت العين الأخرى مسدلة الجفن، فلم يشعر إلا وهو يطلق صرخة لا إرادية ثاقبة قبل أن يغمره الظلام!!

(٨)

تهيّأتُ صباح يوم الجمعة للقاء صديقي زاهد. وكنا قد اتفقنا على اللقاء أسبوعياً في مقهى "حسن عجمي" في انتظار إصلاح شبكة الهاتف ليتسنّى لنا تنظيم مواعيد لقاءاتنا القادمة وقتما نشاء، فقضيت ساعات في المكتبة وأنا في حيرة من اختيار الكتب التي سأضحّي ببيعها في شارع المتنبي، مبعداً سلفاً الروايات وكتب الفلسفة ودواوين الشعر لأجد ضالّتي في كتب التراث؛ ففضلاً عن كونها أكثر الكتب رواجاً لدى الباعة فكّرتُ بأنه سيسعني تعويضها في المستقبل لأن المكتبات لا تكاد تخلو منها.

لم يكد زاهد يلمحني داخلاً المقهى، مثقل الذراعين بكيسين بلاستيكيين متخمين بالكتب، حتى صاح متهكماً:

- ها هي (بسطة المثقفين) تعلن ولادتها على رصيف شارع المتنبي!

- بسطة شعارها: الدين ممنوع، والعتب مرفوع!

علّقتُ مبتسماً وأنا أجلس في مواجهته راكناً الكيسين على الأرض، في حين مضى صديقي يلقنني (سر المهنة) – قالها ضاحكاً - وأنا مقبل على ممارسة عملي الجديد في شارع توارث أصحابه المهنة أباً عن جد؛ قال بكل جدّية على وقع ضجّة اللاعبين المنهمكين بلعبتي الدومينو والطاولة:

- أهم ما يفترض بك الالتزام به هو التحلّي بالصبر؛ فقد ينقضي نهارك دون أن تضمن لنفسك الحصول على ما يكفل لك ثمن أجرة السيارة التي ستعود بك إلى بيتك، والأمر الثاني ضرورة عدم التقيّد بالسعر الذي وضعته لأحد كتبك؛ فقد يحدث أن يساومك ويلحّ عليك في المساومة من به حاجة ماسة إليه برغم أنه لا يملك ثمنه. بعه له بما يجود به عليك وتأكّد أنك ستعوّض خسارتك بكتاب آخر. ولا تنس ضرورة الانسجام مع (زملائك) الجدد باعة الكتب الآخرين: تعاون معهم إلى أقصى الحدود، وكن متواضعاً في تعاملك اليومي؛ إذ يفترض بك نسيان كونك مثقفاً أو روائياً، فكّر فقط أنك واحد مثلهم؛ ويكفيك ألا تلتزم بهذا الأمر لتراهم ينبذونك في الجمعة اللاحقة، بل يجعلونك موضع سخريتهم المبطّنة.

هكذا مضى زاهد في إسداء نصائحه ليس في المقهى فحسب بل على امتداد المسافة التي اجتزناها ونحن في طريقنا إلى شارع المتنبي. وكانت البناية، التي شارك آخرين في استئجار ركن منها في طابقها العلوي، تقع في منتصف الشارع في مواجهة مكتبة صديقنا المشترك نعيم الشطري "أبو ربيع" صاحب مزاد الكتب يوم الجمعة. وكانت البناية قديمة، شأن بنايات الشارع كلها، تشغل الطابق الأرضي منها مكتبة كانت مغلقة مثل غالبية المكتبات يوم الجمعة، في حين غصّتْ غرف الطابقين الآخرين وممراتهما - بل حتى سلالمهما - بأكداس الكتب.

- هنا تُسكب العبرات حيث سنزوّد هذا الركن المعتم بالمزيد من كتبنا التي سبق لنا شراؤها بقوت أطفالنا.

قالها زاهد مبتسماً بأسى. وكان باعة الكتب الآخرون في حركة صعود وهبوط صاخبة وهم في عجلة من أمرهم: يلقون تحيات الصباح ليسارع كل واحد منهم إلى حمل أكداس كتبه إلى الأسفل حيث الأرصفة سرعان ما ازدهرت بآلاف الكتب وبضمنها كتبنا التي فرشناها في مواجهة مكتبة الشطري.

بدا العمل في أسبوعه الأول سهلاً: لا يتطلب الأمر منا سوى الانتظار وقوفاً أو جلوساً على حافة الرصيف، مع التناوب بالذهاب، بين ساعة وأخرى، إلى بائع شاي نصب عدّته على رأس أحد الأزقة الجانبية لارتشاف إستكان شاي يرافقه تدخين سيجارة. وكان هناك أيضاً صوت نعيم الشطري الذي سرعان ما كان يلعلع فجأة مبدداً صمت الشارع مفتتحاً بذلك مزاده الأسبوعي. وكان يبدأ عمله عادة بترديد عبارة لغاندي اعتادتْ "المؤسسة الأهلية" للطباعة والنشر في بيروت أن تتصدّر بها منشوراتها منذ الخمسينات:

- "لا أريد لبيتي أن يكون مسوّراً من جميع الجهات، ولا أريد أن تكون نوافذي مغلقة. أريد أنْ تهبّ على بيتي ثقافات كل الأمم بكل ما أمكن من حريّة، ولكني أنكر على أي منها أن تقتلعني من أقدامي. إن مذهبي ليس ديناً مغلقاً؛ ففيه مجال لأقلّ مخلوقات الله شأناً، ولكنه يستعصي على الكبرياء العاتية، كبرياء العِرْق أو الدين أو اللون".

يشرع بعدها في الترويج لكتاب ما مضفياً عليه مزايا مذهلة قد تجعلك - إن كنت صاحب الكتاب - تندم لتفريطك به!

هكذا بدأت أولى وقفاتي على رصيف شارع المتنبي، حتى إذا ما تعددت الوقفات وتعاقبت الأسابيع والأشهر فقد الأمر سحره ولا سيما حينما بات من المألوف أن يمر اليوم دون الحصول على ما يكفي ثمناً للعودة إلى البيت – كما سبق لزاهد أن نبّهني - وكانت هناك الحملات الأمنية المفاجئة التي تداهم الشارع على غير توقّع؛ ويا ويل من يُعثر بين كتبه على كتاب ممنوع؛ إذ تكون النتيجة اختفاء ذلك البائع!

وكان قد تم إصلاح شبكة الهاتف؛ فتلقيتُ أول اتصال من بتول، فحدّثتها بتوجهي إلى الشماعية للسؤال عن مصير زوجها فكان جوابهم ضرورة مراجعتهم مجدداً بعد أسابيع ريثما يتسنى لهم الوقت اللازم لتنظيم أمورهم.

- وها هي أشهر قد مرت على ذهابك إلى هناك لا أسابيع!

علّقتْ بتول معتبة، فسارعت إلى طمأنتها:

- سأذهب إلى هناك في أقرب فرصة.

- متى؟

سألتني لتضيف حينما وجدتني لا أحير جواباً:

- حدد لي الآن رجاء موعد ذهابك إلى هناك لأن صبر قد أوشك على النفاد.

ومضتْ تحثّني على القيام بزيارة ثالثة للشماعية؛ ذلك لأن الوضع لديها، في بدرة، لم يعد يطاق: فأبناء ألفت خاتون ما عادوا يكتفون باقتحام بيتها من يوم لآخر بحجة زيارتها، بل إنهم اقترحوا عليها بوقاحة فكرة بيع أحد بساتين نديم بحجة أن الحصار أجهز على آخر مدخراتهم، وحينما سألتهم: كيف يصحّ ذلك ومصير خالهم مجهول؟ أجابوها دون حياء أنهم يعلمون جيداً أن لديها توكيلاً عاماً باسمها منه!!

طمأنتها إلى أنني سأذهب إلى هناك في أقرب فرصة، حتى إذا ما أطبقتُ سماعة الهاتف عدتُ أفكر بجدوى ذهابي ما دامتِ النتيجة معروفة سلفاً: صرفي بشكل من الأشكال؟

وهكذا عمدت إلى رفع سماعة الهاتف مجدداً مديراً، هذه المرة، رقم زاهد الذي جاءني صوته وسط إحدى ضحكاته:

- ألو.. تفضّلوا.. مؤسس (بسطة المثقفين) يتنازل بمخاطبكم شخصياً!

فأخبرته، وأنا أضحك، أن الأمر لا علاقة له بهموم (بسطة المثقفين). ومضيت أحدّثه جاداً عن اتصال بتول وسؤالها عن مصير زوجها وقراري الذهاب إلى هناك مرة أخرى برغم يقيني أنني لن أخرج بشيء مثل المرتين السابقتين، فسألني عما هو مطلوب منه؟ فأجبته:

- لا أعلم.. بصراحة لا أرى مسوّغاً لذهابي إلى هناك ثالث مرة.

- ولماذا هذا اليأس؟

- لأنهم سيصرفونني بشكل من الأشكال.

- اسمع.. أمهلني بعض الوقت.. ساعة لا أكثر؛ لا مفر لي من أن أفكر في الأمر بصحبة سيجارة وإستكان شاي.

لم تكد الساعة تنقضي حتى اتصل مطمئناً إياي بترديد المثل الذي لا يكفّ الممثلون المصريون عادة عن ترديده في مسلسلاتهم:

- اطمئن (حط في بطنك بطيخه صيفي)!

سألني بعدها إن كنتُ عضواً في نقابة الصحفيين؟

- طبعاً؛ فأنا أعمل بالصحافة منذ العصر الحجري كما تعلم!

- عظيم .. لا تنس إذن أن تجلب معك هوية نقابة الصحفيين؛ إذ سأوافيك غداً في العاشرة صباحاً في مقهى "حسن عجمي".

في اليوم التالي لم تكد ساعتي تشير إلى ما بعد العاشرة بدقائق حتى جفلت في جلستي عند نافذة المقهى المفتوحة على شارع الرشيد على صوت منبّه سيارة وقفت بمحاذاة الرصيف حيث أشار لي سائقها طالباً مني الدنو منه، فتلفت حولي وفي ظني أن المطلوب غيري، بيد أن السائق عاد يطلق منبّه سيارته بنفاد صبر وهو يلحّ عليّ بإشارته.

غادرت المقهى وأنا واثق من حصول التباس في الأمر ولا سيما أن مظهر الجالس في المقعد الخلفي للسيارة أثار قلقي؛ فقد كان يرتدي بدلة زيتونية مما ألف الحزبيون ارتداءها، وثمة نظّارتان سوداوان، مثل نظارات العميان، تغطيان نصف وجهه!

- تفضّل واجلس في المقعد الخلفي بجانب الأستاذ.

أهاب بي السائق بوقار. لم أكد أفتح الباب وأتهالك جالساً هناك حتى فوجئتُ بصوت مألوف يردد بشكل مسرحي أشهر عبارة وردتْ في مسرحية "هاملت":

- "أكون أو لا أكون تلك هي المسألة"!

قالها صاحب البدلة الزيتونية وهو يرفع نظارتيه عن وجهه تاركاً إياي أشهق من هول المفاجأة؛ إذ إنه لم يكن غير صديقي زاهد سلمان!

- الله ينتقم منك ومن ألاعيبك؛ فقد نجحتَ في إرعابي فظننتك أحد ضباط الأمن جئتَ لإلقاء القبض عليّ بسبب كتاب ممنوع تسرّب إلى (بسطة المثقفين) دون علمي!

كلّمته غاضباً، فأجابني وهو يغالب ضحكه:

- ألم تطلب مني أن أعينك في الدخول إلى مستشفى الشماعية للسؤال عن صاحبك نديم؟ حسن؛ ها أنذا تحت أمرك!

عمد بعدها إلى تعريفي بصديقه سائق السيارة (أبو ساره) الذي تبرّع بدوره في مساعدتي في الأمر لا بوضع سيارته الخصوصية في خدمتي فحسب؛ بل تقمّص دور مصوّر. لحظتها فوجئتُ بومضة ضوء ساطعة، وحينما التفت نحو مصدرها طالعني (أبو ساره) بابتسامة عريضة وقد انتهى من التقاط صورة لنا بكاميرته!

- انطلقْ (أبو ساره) نحو الهدف ودعني أشرح لصديقي الخطة.

أهاب زاهد بصديقه الذي سرعان ما أخذ يزاحم بسيارته السيارات التي غصّ بها شارع الرشيد. ومضى زاهد يخبرني أن (أبو ساره) صديق قديم، جمعتهما سنوات الدراسة الأربع في قسم المسرح في أكاديمية الفنون الجميلة. انتقل بعدها للحديث عما هو مطلوب مني اليوم حين وصولنا إلى الشماعية:

- أعلم جيداً أنك لا تجيد التمثيل مثلنا نحن الاثنين – فالتمثيل هو مهنتنا التي لم توفّر لنا لقمة الخبز كما تعلم - لذلك لا أطلب منك سوى مخاطبتي بكنية (الأستاذ) وأنت تكلّمني باحترام طبعاً.

- لا أسهل من ذلك لولا خوفي من أن أغصّ بالضحك؛ فوقع كلمة (أستاذ) غريب على سمعي حينما أخاطبك بها!

- إيّاك من الضحك؛ فذلك كفيل بإجهاض خطّتنا.

- وما هي تلك الخطة؟

- ستتولى أنت إبراز هوية نقابة الصحفيين لموظف الاستعلامات طالباً منه السماح لنا بالدخول لأجل إجراء تحقيق صحفي لإحدى الصحف الرسمية، في حين يقتصر دوري أنا على التزام الصمت.

- أأنت جاد في ما تقول؟ ما قيمة صمتك يا صديقي؟

وارتفع صوت (أبو ساره) من خلف المقود وهو ينوب عن زاهد في الرد:

- ألم يسبق لك يا أستاذ السماع بالصمت الدرامي؟ يلعب الصمت أحياناً في العروض المسرحية وفي الأفلام دوراً أبلغ من الكلام.

وأيّده زاهد قائلاً:

- فعلاً؛ في وسع الصمت المدروس أن يكون أحياناً أكثر تأثيراً من الكلام.

فاعترضتُ منوّهاً باحتمال انكشاف لعبتنا وتورّطنا بتهمة الانتحال، فطمأنني زاهد مؤكداً أنه ما من انتحال في الأمر؛ وهوية نقابة الصحفيين ستكفّل لنا ذلك. فعدت أسأله:

- وهذه البدلة الزيتونية؟ كيف ستسوّغ ارتداءك إياها؟

- ولماذا التسويغ؟ فالبدلة تعود لي، وكثيراً ما ارتديتها أيام تورطي بـ"الجيش الشعبي". ثم أنسيتَ القول المأثور في بلادنا: "كلنا حزبيون وإن لم ننتمِ؟".

فوّضتُ أمري لله تاركاً قيادي لممثلين فاشلين وجدا في (المغامرة) التي كنا مقدمين عليها فرصة للضحك؛ فطفقا يستعيدان، على مدى الوقت الذي استغرقته رحلتنا، مشاهد كوميدية لإحدى مسرحيات الممثل المصري عادل إمام دأب التلفاز على عرضها في الفترة الأخيرة، حتى إذا ما لاح لنا مبنى الشماعية بسوره المديد المرتفع كفّا عن مواصلة تهريجهما الصاخب مصطنعين الوقار هذه المرة.

وكان (أبو ساره) قد شرع في تقمّص دوره حال مغادرتنا السيارة؛ فقد انهمك بالتقاط صور لنا أمام بوابة المستشفى وصورة أخرى برفقة الحارس الذي استقبلنا بحفاوة. وانسجمتُ أنا مع الدور المنوط بي؛ فتقدّمت الاثنين نحو غرفة الاستعلامات دون أن أكفّ عن مخاطبة زاهد بكنية (الأستاذ).

واستقبلنا موظف شاب تائه النظرات رمق (أبو ساره) بنظرة استياء حينما فاجأه بالتقاط صورة له خلف مكتبه. وتنقّل بعينيه بيننا ليستقرّ بهما عليّ بنظرة متسائلة؛ فسارعت بإبراز هوية نقابة الصحفيين، لكنه فاجأني بأن نحاها جانباً وهو يقول:

- ممنوع منعاً باتاً إجراء تحقيقات صحفية ما لم تكن مزوّداً بكتاب صادر عن وزارة الصحة للسماح لك بذلك.

حينها أدركتُ مبلغ غبائي لأن هذا الأمر كان قد غاب عن ذهني تماماً، وبذلك فشلت خطة زاهد (العبقرية) لمساعدتي على دخول المستشفى، فلم أجد مفرّاً من إعلام الموظف بالغرض

الحقيقي من زيارتي، عامداً، في الوقت نفسه، إلى إخراج صورة نديم من جيبي لأريه إيّاها؛ فتساءل مستنكراً:

- هل أنت جاد؟ أتتوقع مني أن أتعرّف، من خلال صورة، إلى نزيل من ضمن نزلاء يعدّون بالمئات؟

واستطرد قائلاً إنه لا مانع لديه من دخولي المستشفى للسؤال عن صاحبي شريطة التأكد من كونه أحد النزلاء. وتابع فسألني عن اسم المريض لينهمك بعدها في تصفّح أوراق سجلّ ضخم أمامه مؤكّداً، كمن يكلّم نفسه، استحالة العثور على اسم ضائع بين مئات الأسماء.

- في هذه الحالة كيف السبيل إلى معرفة مصير المرضى الذين هربوا من المستشفى أثناء الحرب؟

سألته حائراً، فرفع وجهه الشاحب عن سجله وأجابني بعدما تأمّلني لحظات:

- وهل من الضروري معرفة ذلك؟ ثم من الذي يقلقه مصيرهؤلاء المجانين بعد فرض الحصار وفتح أبواب جهنم علينا نحن العقلاء؟

- أنا يهمني ذلك؛ فهذه ثالث مرة أقدم فيها للسؤال عنه.

وبقينا نتبادل النظر لحظات وأنا في حيرة من أمري. وفجأة تذكّرتُ غافل الذي صادفته في زيارتي الأولى وهو يحشّ العشب؛ فسألتُ الموظف عنه عسى أن يكون ذلك مسوّغاً للسماح لي بالدخول، فأجابني ضاحكاً:

- غافل أبو الحشيش؟ موجود طبعاً.. ستصادفه حيثما ينمو العشب؛ فمهمته الأساسية في الحياة تتلخص بحش العشب والمزيد من العشب لا أكثر!

- كان الله في عونه؛ إذ ليس من اليسير إطعام قطيع أغنام بعيداً عن المراعي.

- يبدو أنك توهمتَ أن له أغناماً يسعى إلى إطعامها!!

علّق موظف الاستعلامات ضاحكاً ليتابع بعدها وهو يواصل تقليب أوراق السجلّ:

- إنه لا يملك ولا جزّة خروف، وكل الأغنام التي يسعى إلى إطعامها محض أوهام؛ فهو نزيل قديم جيء به منذ أعوام من ريف إحدى المدن الجنوبية وأودع المستشفى حيث لم يعد يسأل عنه أحد مثل العديد من المرضى الذين يأتي بهم ذووهم إلى هنا لا لعلاجهم بل للتخلص منهم.

- والعشب الذي يحشّه؟ ما الذي يفعله به؟

- يوزّعه على أصحاب البيوت القريبة الذين يملكون حميراً أو أبقاراً ليعود بعدها إلى المستشفى، حيث يسكن، في انتظار قدوم يوم آخر وحشّ المزيد من العشب!

ومضى الموظف يحدثنا عن مفارقات مماثلة لا تخلو من طرافة مواصلاً، في الوقت نفسه، تصفّحه ليعلن فجأة عن عثوره على اسم نديم. قال وهو يدني السجلّ مني لأقرأ الاسم وقد تمّتْ الإشارة إليه بخط أحمر:

- انظرْ... إنه من ضمن النزلاء الذين لم يُعثر عليهم بعد.

وفتحتُ السجل على الصفحة الخاصة بنديم؛ فطالعتني صورته تليها المعلومات المتعلّقة به والتي تحدد سنة ١٩٥٣ تاريخاً لإيداعه الشماعية على أثر حصول حادث لبث على أثره شهوراً لغرض العلاج قبل السماح له بمغادرتها بإذن من لجنة طبية مكلفة بهذا الأمر، وكيف أنه بقي على صلة بالمستشفى: يراجع عيادته الخارجية من حين لآخر لتلقّي العلاج ليودع المستشفى مجدداً – على أثر تدهور وضعه النفسي وشروعه في الانتحار – سنة ١٩٩٠ .

- ما العمل الآن؟

تساءلتُ وأنا أفكر بكيفية إبلاغ بتول بالأمر، فطلب الموظف مني أن أريه صورة نديم، حتى إذا ما ناولته إياها قارن بينها وبين الصورة المرفقة بصفحته في السجل، وحينما رآهما تتطابقان وافق على دخولنا إلى المستشفى للسؤال عنه. بيد أنه استدرك قائلاً:

- لكنني أشك أنك ستخرج من جولتك بنتيجة؛ إذ لا يعقل أن يفيدك، في سعيك في أثر صاحبك، نزلاء قد لا يتذكّر معظمهم أسماءهم الشخصية!

وأنهى كلامه باستدعاء أحد العاملين في الأعلام الخاص بالمستشفى لغرض مرافقتنا، تلخّصتْ مهمته – كما تبيّن لنا ذلك على الفور – بتحديد مسار تحرّكنا بالطريقة التي يراها مناسبة مع حرصه المطلق على منع (أبو ساره) من التقاط أية صورة. ولم ينسَ أن يحبط آمالي منذ لحظة مغادرتنا غرفة الاستعلامات:

- لن يسعك السؤال عن صاحبك بالسهولة التي تتخيلها في مستشفى يضم مئات النزلاء الموزعين بين ست ردهات: أربع خاصة بالرجال، واثنتين للنساء.

وصادفنا، في طريقنا، عشرات النزلاء وهم يتجولون بدشاديشهم المقلّمة على غير هدى. وأشار مرافقنا إلى عدد منهم، وقد تزوّد كل واحد منهم بعصا وهم يرعون مجموعة أغنام موزّعة هنا وهناك، قال إنهم مرضى يحبون رعاية الأغنام العائدة إلى المستشفى.

ولاح لي غافل من بعيد منهمكاً، هذه المرة، بتشذيب شجيرات الآس التي تحفّ بالممر، فراقبته وأنا أدنو منه وهو يحرّك مقصّه بالمهارة نفسها التي كان يحشّ بمنجله العشب في المرة السابقة.

عرّفته بنفسي، فصافحني قبل أن ينتقل إلى صديقيّ مصافحاً إياهما وهو يقول:

- اعذرني خالي لأنني لم أعرفك؛ فمعارفي كثيرون بعدد أقارب نزلاء المستشفى الذين يتوافدون يومياً بالعشرات.

فسألته عن أغنامه وعن العشب الذي كان يحرص على أن يحشّه لها في لقائنا الأول، فأجابني وقد انصرف إلى مواصلة مهمته بكل جدّيّة:

- لا حاجة بها خالي إلى عشبي في مثل هذا الموسم؛ فهو متوفر في كل موضع كما ترى بنفسك.

ودّعته وأنا أسأل نفسي إنْ لم يكن من الظلم عدّ الرجل مجنوناً؟

كنت موقناً أن جولتنا عبثية وأنها ستكون دون نتيجة حتى أنني سألت زاهد إن لم يكن من المستحسن مغادرة المستشفى؟ لكنه أجابني:

- وما الذي نخسره من القيام بهذه الجولة؟ فلنواصلها؛ فلن تتاح لنا زيارة الشماعية كل يوم.

(عار الأسرة)

حينما ثاب إلى نديم رشده وجد نفسه مضطجعاً على سريره وقد وقفت أمه فوق رأسه ترمقه بنظرة تقطر يأساً.

- ما الذي حصل؟ ومن الذي جاء بي إلى غرفتي؟

سأل أمه محاولاً جهده أن يتذكر ما الذي جعله ينتهي إلى فراشه.

- لقد أصبتَ بنوبة صرع!

أجابته أمه. وأضافت بعدما سحبت كرسياً مقرّبة إياه من سريره لتجلس عليه:

- ها هو هذا الداء اللعين يعود ملاحقاً إيّاك بعدما ظننت أنك شفيت منه!

- لا شفاء من داء ورثته عن أبي... إنه أشبه بلعنة ستظل تلاحق آل إسكندر بيك!

قالها نديم بنبرة يائسة، فعنّفته أمه قائلة:

- لقد حذرتك من هذا اللقاء الذي لا جدوى منه؛ ذلك لأنه قد لا يعرفك، كما أنه عاجز عن النطق بشكل مفهوم، بل إنه بات يقضي حاجته دون أن يغادر سريره.. إنه يتنفس لا أكثر؛ ما الذي سيجنيه إذن من هذا اللقاء سوى المزيد من اليأس؟

تأمّلها لحظات في جلستها بالقرب منه وكل ملامحها تنطق باليأس.

يا إلهي!.. كم شاختْ!

كانت ترتدي ثيابها السود نفسها وقد لفّتْ رأسها بالفوطة المعهودة يعلوها الجرغد المعقود عند مستوى الحاجبين. هكذا عرفها منذ فتح عينيه على الدنيا.

ومن بعيد جاءته دقات الساعة الجدارية في غرفة الاستقبال تدق معلنة الوقت. كانت الرابعة عصراً؛ فتذكّر الساعة نفسها وهي تدق في ذلك الصباح المشؤوم معلنة التاسعة. يومها أصغى إليها، بل عدّ دقاتها في سره وهو يتأمّل لاهث الأنفاس أباه الراقد بسكون وسط نثار الأشياء التي تحطمت تحت ثقليهما في ذلك الصراع المرير للاستحواذ على ذلك السوط اللعين.

- أمي.. من هي فردوس وابنتها هاجر؟!

سألها بعد تردد طويل.

- ألا تزال، بعد كل ما جرى، تحرص على معرفة ذلك؟

سألته متألمة؛ فسارع يجيب:

- وكيف لا أحرص على معرفة ذلك وأبي جنّ غضباً لأنني تطرقتُ في دفتري إلى سيرة تينك المرأتين الساقطتين؟

- ذلك لأنك بذكرك إياهما نكأتَ جرحه الذي يأبى الاندمال.

- أي جرح هو ذلك الذي نكأته؟ أرجوك؛ وضّحي لي الأمر بأيسر طريقة ممكنة.

- وهل تحسب أنني ببضع كلمات سأستطيع أن أوضح لك سرّ أبيك الذي يجاهد منذ شبابه على نسيانه أو.. تناسيه بشكل أصح؟

تساءلت أمه لتتابع بعد لحظات مستطردة:

- محال؛ فما حصل أمر شنيع يدين أباك قبل أن يدين هاتين المرأتين .. أو الأدق فردوس التي لعبت بدورها لعبتها للحصول على المال.. أما هاجر فليست سوى ثمرة محرّمة لما حصل!

- وما هي الصلة التي تربط أبي بهاتين المرأتين؟!

سألها مستنكراً وهو لا يكاد يصدّق سمعه؛ فأية صلة تربط هاتين الساقطتين بواحد مثل أبيه ألف تقديس ماضيه العثماني المجيد؟ وعلى افتراض وجود هذه الصلة؛ ما سر أنه لم يسمع بها حتى الآن وقد تخطى العشرين من عمره؟

لم تجبه من فورها؛ إنما قضت لحظات في حلّ جرغدها وفوطتها لتلفّ بهما رأسها من جديد بعدما مسّدت، بعض الوقت، ذؤابتي شعرها البيضاوين.

هكذا هي أمه: تشغل نفسها لحظات بأمور جانبية قبل أن تعزم أمرها، وذلك ما حصل يومذاك؛ إذ إنها سرعان ما تخطت ترددها وإحجامها فانطلقت تحدثه بأمور جديدة عليه جعلته يفغر فمه دهشة؛ ذلك لأنه خيّل إليه وكأن أمه تحدثه عن رجل آخر لا يمت بصلة إلى أبيه الذي ارتبط ذكره لديه بكل ما هو صارم وعنيف: يكاد السوط الملازم له يختصر شخصيته!

حدثته عن شباب أبيه، عن حلمه المجهض باستعادة الدولة العثمانية مجدها التليد بعد هزيمتها المدوّية في أعقاب الحرب العظمى: فوسط الفرحة التي كانت قد عمّت غالبية الناس لخلاصهم من سطوة الدولة العثمانية التي جثمت على الصدور على مدى قرون، انفرد عدد آخر - ممن خسروا امتيازاتهم القديمة - بمعاداة العهد الجديد؛ وقد عُرف هؤلاء، بين الناس، بلقب "كليورلر"، وهي لفظة تركية تعني "عائدون"؛ ذلك لأنهم دأبوا على ترديد هذه اللفظة في أحاديثهم مع الآخرين، مؤكدين حتمية عودة الأتراك إلى حكم العراق.

- وكان أبوك واحداً من هؤلاء الـ"كليورلر"!

وضّحتْ أمه، قبل أن تسترسل في كلامها، مذكّرة إياه بأن أباه كان منذ تلك الفترة بالغ الثراء: ورث عن أبيه كل هذه الأراضي والبساتين التي كرّس ذلك الجد عمره في توسيعها مستنداً في ذلك إلى السلطة المطلقة التي كان يدير بها الأمور من حوله في مدينة خاملة الذكر، مثل مدينة بدرة، لا يوليها الولاة أو المسؤولون في السلطنة العثمانية المترامية الأطراف اهتماماً يُذكر.

- ويوم تفاقم مرض جدك خاطب أباك، وهو على فراش الموت، مذكّراً إياه بأنه سيرحل قرير العين بعدما ضمن له ولذريته من بعده ما بات من حقهم التمتع به شريطة أن يبرهن هو عملياً على جدارته بهذه النعمة. وحين سأله أبوك عما يرمي إليه بهذا الكلام؟ أجابه وهو يومئ برأسه إلى الحائط القريب: "عليك الاستعانة بهذا السوط في إدارة أملاكك حينما لا يعينك عقلك في ذلك".. نصيحة التزم بها أبوك حتى بات السوط يلازمه أينما ذهب!!

واستدركتْ أمه موضّحة:

- سمعتُ بهذه الأمور من الآخرين بعدما شاع أمرها بين الناس؛ ذلك لأنها سبقتْ اقتران أبيك بي بأكثر من أربع عشرة سنة، وهي فترة زمنية يئس خلالها إسكندر بيك من عودة صحبه الأتراك إلى الحكم مجدداً؛ فاستعاض عن ذلك بالزواج بفتاة من أسرة ثرية ذات أصول تركية اسمها ثريا لم تكد تلد له ابنته الوحيدة ألفت حتى أصيبت بحمى النفاس التي أودتْ بها خلال أيام، فعهد إسكندر بيك بابنته إلى أسرة زوجته المتوفاة لينصرف على هواه في اغتراف الملذات التي يسّرتها له ثروة طائلة جعلت مجموعة من الشباب طوع بنانه: يحرصون على أن يوفروا له كل ما يخطر له على بال بدءاً بالاستغراق في تدخين الأفيون الذي بات سلوته المفضلة، انتهاء بتعقب الغجر الذين كانوا يحطّون رحالهم في أطراف المدينة من حين إلى آخر حيث كانت له صولات وجولات مع غجريات امتهنّ الرقص والغناء.

واسترسلتْ أمه في حديثها؛ فتطرقت إلى همس سرى بين المقرّبين من أسرة إسكندر بيك مفاده أنه تورّط بعلاقة مشينة مع إحدى خادماته انتهت بالتستّر على ما حصل وذلك بصرف تلك الخادمة بعد إسكاتها بمبلغ من المال.

- آنذاك حصلت المفاجأة؛ فقد تقدّم أبوك لخطبتي؛ فمن دون فتيات بدرة كلهن لم يجد البيك – وسط فضائحه المجلجلة - سواي ليخطبني!

قالتها أمه وهي تغالب ضحكة أفلتت على الرغم منها لتتابع بعدها قائلة:

- هل جاءت خطوبته إياي محاولة منه لكمّ الأفواه بعدما تخطت فضائحه الحد المعقول؟ لا أعلم؛ فما أتذكره أنني ذهلت يومذاك لإقدامه على هذه الخطوة المفاجئة التي لم أستطع رفضها بطبيعة الحال؛ فما من فتاة يخطر لها رفض الاقتران بواحد من أكثر وجهاء المدينة ثراء، ثم يكفي أن أبي وافق، وبذلك لم يعد لي دور سوى الاستعداد للزواج المرتقب. ومرت الأسابيع والصديقات يتقاطرن عليّ بشكل يومي لا للتهنئة بالخطوبة فحسب، بل لحرص عدد منهن على شحذ سخطي تجاه الزوج المنتظر وذلك بتذكيري بزوجته المتوفاة ثريا وابنته ألفت، دون أن ينسين تزويدي بتفاصيل مغامراته العاطفية القديمة، وكانت النتيجة المتوقعة نفاد صبري وندمي على الاقتران بهذا الرجل المستهتر؛ فلجأت إلى أمي لأسرّ إليها بهمّي، لكنها اكتفت بترديد العبارة الجاهزة لمثل هذه المواقف "لا تصدّقي كل ما يُقال"!

وعملتْ أمه بالنصيحة خلال الأشهر الأولى من الزواج: ترعى زوجها وتحرص على أن توفّر له كل أسباب الراحة عساه أن يتغير فينسى ماضيه الحافل بالمغامرات. آنذاك فوجئت بإحدى صديقاتها تهمس لها، ذات يوم، قائلة إنها اكتشفت السر، سر طرد الخادمة؛ ذلك لأنها كانت حاملاً!

- لم أصدّق ما سمعتُ؛ فسألتُ تلك الصديقة عن مدى تأكّدها مما تقول؟ فأجابتني أنها واثقة من صحة ما جرى ثقتها بالمصدر الذي استقت منه ذلك الخبر؛ فقد تبيّن أن تلك الخادمة كانت أذكى من كل تصوّر؛ فبسبب أنها كانت وحيدة، لا أب أو ام أو أقرباء لها، أظهرت استسلامها للأمر الواقع ورضاها بصرفها لقاء ذلك المبلغ، لكنها عادت، بعد أسابيع، تدقّ عليهم الباب، منوّهة بأنها أوشكت أن تتدبر أمر زواجها من شاب فقير مثلها كانت على صلة قديمة به تتمثل مشكلته بأنه لا يملك من دنياه شيئاً، وقد لا يتنازل بالاقتران بها وهي على تلك الحال. وشفعت قولها ذاك بأن مسّدت بطنها. وعلى هذا المنوال مضت تلك الخادمة تطرق عليهم الباب من حين إلى آخر ممعنة في ابتزازهم دون حياء قبل أن تلد طفلتها!

واستدركتْ أمه قائلة:

- في تلك اللحظة، وأنا أكتشف أن لزوجي طفلة أخرى غير ابنته ألفت، لم استطع ضبط نفسي؛ فصحت وأنا ألطم وجهي: معنى ذلك أن عرّيسي أب لطفلتين اثنتين سبق بهما زواجنا الميمون!

وتابعت بعد لحظات:

- يومذاك اسودّت الدنيا في عينيّ. لم يعد في وسعي تحمّل المزيد. نفضتُ يديّ عن أشغال البيت وجلست في غرفة زفافنا في انتظار أوبته من جولته على حقوله وبساتينه. ومرّت الساعات والظلام يتكاثف من حولي، حتى إذا ما صرّ الباب الخارجي أخيراً وثبتُ واقفة وكل عِرْق فيّ ينبض غضباً. وترددتْ تمتمات سخطه وهو يقترب من الموضع الذي كنت أنتظره فيه، حتى إذا ما دخل الغرفة صاح متسائلاً، وهو يضيء المصباح، عما دهاني لأبقي البيت غارقاً في الظلام؟ فأجبته، وقد نسيتُ نفسي، منوّهة بأن الظلام وحده خليق بحجب الفضائح.. فسألني، مدققاً النظر في وجهي، عما أعنيه بكلامي؟ فأفرغتُ كل ما تراكم في صدري من غضب مصارحة إياه بأنني حينما رضيت به زوجاً كنت أعلم بأنه أب لطفلة من امرأته المتوفاة دون أن يخطر لي وجود طفلة أخرى سبق لأمها أن عملت لديه خادمة!!... فعاد يسألني، وقد شحب لونه حتى حاكى لون ثوبه بياضاً، عمن تكون تلك الخادمة؟ فأجبته من فوري: ومن تكون غير أم تلك الطفلة التي يشاع أنها انحدرت من صلبك؟ لم أكد أنطق بتلك الكلمات حتى فوجئتُ به وقد اربدّ وجهه وتشوهت ملامحه بشكل يبعث على الرعب. وصاح بغتة بصوت مخنوق وهو يشير إلى فمه، طالباً مني إسعافه بمنديل. أي منديل يعني؟ سألت نفسي وأنا أسمعه يطلق زعيقاً ثاقباً هوى بعدها ليرتطم جبينه بحافة السرير قبل أن يتمدد بطوله على الأرض... فسارعتُ بسحب شرشف زفافنا، الذي سبق لي أن طرّزته بنفسي، لأدسّ طرفاً منه في شدقه الذي تلطخ لحظتئذ بالزبد، وقد أخذت تشنّجات رهيبة تهزّ جسده، وكانت عيناه قد انقلبتا؛ فبات سوادهما بياضاً!!..

- أكانت تلك أول نوبة صرع يقع فيها أبي ضحيتها أمامك؟

- نعم كانت أول نوبة وقد أعقبتها نوبات، بيد أن ذكرى تلك النوبة ستظل راسخة لديّ إلى الأبد مقترنة بذلك الزعيق الوحشيّ الذي سبقها؛ فبرغم أنني ألفت نوباته التي كانت تحصل له على فترات متباعدة، ولا سيما أثناء نومه، لكنْ يبقى لتلك النوبة وقعها المفزع الذي لن تسعفني الكلمات للتعبير عنه.

وبقيتْ أمه تتطلع إليه كأنها تستجمع أفكارها قبل أن تسترسل في حديثها قائلة:

- ومرّت عليه لحظات وهو في حالة ذهول: يتلمّس جبينه المجروح مجيلاً عينيه حوله بنظرات غائبة وكأنه يجهل المكان الذي هو فيه، حتى إذا ما انتبه إلى وجودي تطلّع إليّ لحظات محاولاً، في الوقت نفسه، أن يكلّمني. لكن الغريب أنه عجز عن النطق؛ فلبثتُ أبادله النظر وأنا في حيرة من أمره، بيد أنه سرعان ما تكلّم بطريقة غير مفهومة، فتركته يهذي بعض الوقت وأنا أمسح الدم عن جبينه، لأسمعه أخيراً يردد اسم هاجر - وتلك كانت أول مرة أسمع فيها بهذا الاسم - ومرت دقائق وهو لا يملّ من تكرار الاسم؛ فجازفت بسؤاله عمن تكون هاجر هذه؟ فعاد يرمقني بنظرة طويلة قال لي على أثرها: إنها عار الأسرة، ابنة فردوس التي عرفت كيف تنتقم مني ممرغة بذلك شرفي بالوحل إلى الأبد!

وبادلته أمه نظرة طويلة حاولت أن تشهده بها على مأساتها وقد انكشف لها أمران أورثاها اليأس الكامل: حقيقة فضيحة أسكندر بيك مع خادمته فردوس – وما نتج عنها من ثمرة محرّمة اسمها هاجر – وكونه مصاباً بداء لا شفاء له منه هو الصرع.

- انتظرت يومين؛ حتى إذا ما تأكدتُ أن أباك استعاد عافيته كاملة صارحته بقراري العودة إلى بيت أبي والبقاء هناك فترة من الزمن، فرمقني بنظرة مخيفة وهو يقول: البيت الذي تغادرينه لا يسعك العودة إليه معززة مكرّمة وقتما تشائين. فأجبته أنني أدرى الناس بنفسي من غيري؛ فلا مفر لي من الابتعاد عنه بعض الوقت وليتصرف هو بما يمليه عليه ضميره. فسألني بنبرة أرق: وإن طلبت منك إرجاء الأمر الآن؟ فأكدت له أنني اتخذت قراراً لا رجعة لي عنه. فغادر البيت وهو يردد: كما تشائين، وتوجهت بدوري إلى بيتنا حيث استقبلتني أمي مشدوهة؛ إذ كنت لا أزال عروساً مخضّبة الكفين بالحناء، فعانقتها تاركة دموعي تنوب عني في الكلام.

وتابعت أمه قائلة إن رجوعها إلى بيت أبيها لم يكن القرار الوحيد الذي كانت قد اتخذته؛ بل كان ثمة قرار آخر صممت على تنفيذه برغم اعتراض أمها وهو المجازفة بلقاء فردوس!

- هل جننتِ؟ كيف تجازفين بلقاء امرأة مشبوهة عُرفتْ بدهائها في ابتزاز الآخرين؟

فأجابتها مؤكدة أن ذلك هو سبب حرصها على هذا اللقاء؛ إذ إنها عزمت على أن تبرهن لتلك الخادمة أنها لا تقل عنها دهاء، وأنها وحدها الكفيلة بإيقافها عند حدها في الابتزاز والتشهير وما شاكل ذلك من أمور منحطّة جبلت عليها. فاقترحت أمها عليها أن ترافقها إلى هناك، لكنها رفضت بإصرار. قالت إنها قررت مجابهة هذه الخادمة وحدها لتلقّنها الدرس النهائي في الأخلاق واحترام مشاعر الآخرين.

ضحى اليوم التالي اجتيازت وادي الكلال متجهة إلى ذلك البيت حيث كانت فردوس في انتظارها عند الباب وقد سبقها خبر قدومها إليها بدقائق!

- أهلاً بالعلوية، حلّت البركة.. لا تكاد الأرض تسعني لتشريفي، أنا المنسية المنبوذة، بهذه الزيارة الكريمة!

استقبلتها فردوس مهللة مرحبة، ومضت تلهج بالدعاء لها لكونها رفعت، بزيارتها تلك، رأسها بين الجيران.

وبدهاء امرأة محنّكة خبرتِ الحياة مضت فردوس تداهن العلوية بادئة ذلك بالانكباب على كفها لاثمة إياها بحرارة دون أن تنسى الإلحاح عليها بالتفضّل بالدخول، بيد أن العلوية خاطبتها وقد صممت على ألا تتخطى العتبة إلى الداخل:

- اسمعي يا.. اسمك فردوس؟ أليس كذلك؟

- نعم.. خادمتك فردوس طوع أمرك.

واعترفت أمه بأنها دهشت لما انطوت عليه فردوس من دماثة خلق مقرونة بجمال يتبدى بخفة دمها ولباقتها حتى أنها احتارت في كيفية مفاتحتها بالغرض من زيارتها لولا أن فردوس نفسها سهّلتْ عليها الأمر حينما سألتها إن كانت تأمرها بشيء؟

- من الواضح أنك عرفتِ من أكون...

- وهل يعقل أن أجهل العلوية زوجة إسكندر بيك أكبر وجهاء بدرة؟!

- حسن.. ومن المؤكد أنك بذكائك الواضح تدركين الغرض من زيارتي إيّاكِ.

- لا أريد أن أبدد فرحتي بتشريفي بهذه الزيارة بما ينغّص عليّ ذلك.. يغنيني تنازلك بلقائي عن كل كنوز الدنيا.

- أصغي إليّ لحظات ولا تعقّدي عليّ مهمتي.

- لحظة علوية.. أظن أن طفلتي تبكي!

قاطعتها فردوس لتدخل بيتها في مناورة لم يخفَ على العلوية الهدف منها؛ إذ سرعان ما عادت محتضنة طفلتها التي كانت تتثاءب وهي تدير عينيها السوداوين حولها بنظرة دهشة لكون أمها نغّصت عليها نومها دون سبب!

تأمّلتِ العلوية الطفلة لحظات وهي في حيرة من كيفية التصرف، في حين مضت فردوس تتباكى زاعمة أن صغيرتها مريضة لا تكاد تنام الليل كله.

- وما سبب مرضها؟

سألتها العلوية، فأجابتها فردوس وهي تمسك دموعها بصعوبة:

- وما يكون غير الجوع؟ فثدياي يكادان ينضبان من الحليب.

- وهل أنت بدورك مريضة؟

- مرضي يتمثّل بزوجي الذي يسومني العذاب.

- ولماذا يعذّبك؟

- أنت أدرى الناس بالسبب يا علوية!

- وكيف لي أن أعرف سر سوء تعامل زوجك إياك؟ إنها أول مرة التقيك فيها فما أدراني بهذه الأمور؟

- مشكلته تتمثل بشكوكه في سر ولادة هاجر المبكّرة!

- لكنه تزوّجك وهو يعلم أنكِ...

كلّمتها العلوية متهكّمة مشيرة بإيماءة من يدها إلى بطنها كونها كانت حاملاً، فصاحت فردوس مستنكرة وهي تشدّ طفلتها إلى صدرها:

- هل يعقل ذلك؟ لم يكن يعلم بهذا الأمر طبعاً... كان يجهل ما حصل في بيت البيك.. كان ما يهمه آنذاك أنني انتشلته من عوزه بذلك المبلغ الذي...

واستعاضت فردوس عن الكلام بالانخراط في البكاء. وكانت طفلتها قد شرعت بدورها في العويل؛ فعمدت العلوية إلى دس يدها في أحد جيوبها لتقبض على ما تلمّسته هناك من نقود سارعت بدسّها في ثنايا قماط الطفلة لتقفل عائدة من حيث أتت وهي لا تكاد تبصر طريقها!

(٩)

بدا زاهد مأخوذاً بزيارتنا للشماعية: يستمتع بمنظر المجانين وهم يتجولون من حولنا على غير هدى، وكذلك كان الأمر مع (أبو ساره) لولا أن منْعه من استعمال كاميرته كان ينغّص عليه متعته.

ومررنا ببناية قال مرافقنا عنها إنها إحدى بنايات "المشاغل التأهيلية"، فسألته إن كان يُسمح لنا بالدخول إليها؟ فأومأ برأسه إيجاباً، لكنه لم ينسَ أن ينبّه (أبو ساره) بضرورة ألا يلتقط أية صورة.

استقبلنا موظف بصدرية بيضاء قال مرافقنا عنه إنه مساعد الطبيب وأحد المسؤولين عن إدارة العلاج التأهيلي للمرضى. كان كهلاً قصير القامة دائم الابتسام يشرف على مجموعة مرضى كبار في السن جلسوا، مثل التلاميذ، خلف مناضدهم الموزّعة في قاعة واسعة تتوسط، أحد جدرانها، سبورة بيضاء.

لا شك أن نديم شارك هؤلاء النزلاء في جلستهم ذات يوم.

فكرتُ وأنا أتنقّل بنظراتي بين تلك الوجوه التي كانت تدقق بدورها النظر فينا بفضول خلا اثنين كان أحدهما لا يكفّ عن تحريك رأسه بحركات لا إرادية كما يبدو، في حين بدا الآخر مستغرقاً بالكتابة في ورقة موضوعة أمامه فوق منضدته سرعان ما التقطها وهو ينهض ليتقدم مني مادّاً إيّاها لي، فتناولتها ملاحظاً أن النظارتين اللتين يرتديهما تنقصهما عدسة!

- إنه من قدامى النزلاء، وقد انكسرتْ نظّارتاه بسبب الهلع الذي دفع بالجميع إلى التدافع هاربين بسبب حدوث انفجار على مقربة من المستشفى.

أوضح مساعد الطبيب وقد ازدادت ابتسامته اتساعاً. وكان المريض قد كتب في ورقته، بخط مشوّش، رسالة موجّهة إلى الله يدعوه فيها إلى الاقتصاص من الأمريكان لأنهم تسببوا في تحطيم عدسته!

- ولماذا لا تقتنون له واحدة جديدة؟

تساءل (أبو ساره)، فأوضح مساعد الطبيب أنهم حاولوا إقناع المريض بالأمر، ولكن دون جدوى، مفضّلاً على ذلك كتابة رسائل على هذه الشاكلة وإبرازها لكل زائر جديد.

اغتنمتُ الفرصة بسؤاله عن نديم، وإن سبق له أن لاحظه ضمن نزلاء المشغل؟ واستطردتُ واصفاً له هيئته محدداً سنّه، فاعتذر مؤكداً أنه من العسير عليه تذكّر نزيل معين من بين عشرات النزلاء الذين يلتقيهم في المشغل يومياً. وفوجئت بصوت يرتفع مردداً:

- بيك... بيك... نديم إسكندر بيك!

استدرتُ كالمصعوق باحثاً عن المتكلّم من بين الجالسين، ملاحظاً ذلك النزيل الذي لم يكن يكفّ عن هزّ رأسه بحركات لا إرادية وقد أخذ يقهقه ناثراً لعابه على صدر دشداشته المقلّمة!

- أسمعته؟ لقد عرفه!.. ها هو أحد معارف نديم!!

صحتُ غير مصدّق ما حصل. وهرعتُ كالمستغيث إلى مساعد الطبيب راجياً إياه أن يوضّح لي مغزى ما قاله ذلك النزيل، فأجابني وسط ابتسامته العريضة:

- إنه مريض، لا يصحّ أن نعوّل على ما يفلت من فمه من هذيان!

- أي هذيان هذا؟ كيف تأتّى له أن يذكر اسم والد نديم وكنيته في حين اكتفيت أنا بذكر اسمه وحده فقط؟!

تقدّمني مساعد الطبيب نحو ذلك المريض الذي عاد يهزّ رأسه دون كلل وكأنه مكلّف بأداء هذه المهمّة إلى الأبد، وانحنى عليه رابتاً على كتفه، ففوجئنا بالمريض يجفل ليتساءل وهو يتنقل بعينيه الجاحظتين بيننا:

- من؟ من يدقّ الباب؟!

- تفضّل!.. كيف تأمل من مريض على هذه الشاكلة أن يكون واعياً لما ينطق به؟

- ومن أين أتى باسم إسكندر بيك في هذه الحالة؟!

- لم تكن أكثر من مصادفة!

- ويا لها من مصادفة أصابتِ الهدف في الصميم!

وانحنيتُ بدوري على ذلك المريض سائلاً إياه، بأرق نبرة ممكنة، إن سبق له والتقى نديم؟ فدفعني في صدري وهو يصيح:

- دعني.. لعنة الله عليك.. لم يعد رأسي يتحمّل المزيد من الصعقات.. لقد تشبّعت كل خلاياي بالتيار الكهربائي حتى بتّ أضيء ليلاً مثل مصباح بألف فولت!

بدا من العبث الاستعانة بهذا المريض للخروج بنتيجة؛ فاضطررت إلى مغادرة تلك القاعة، وسط قهقهات من معي، وقد بيّتُ النية على العودة إليها مجدداً في وقت آخر عسى أن أخرج من هذيان هذا المريض بنتيجة. واستأنفنا تجوالنا الذي أفضى بنا إلى بناية قال مرافقنا إنها تضمّ قاعة "مشغل الخياطة والتحف". وتابع قائلاً، وقد تقدّمنا داخلاً تلك القاعة:

- كل ما تحيط بكم، من أعمال خياطة وقلائد وحقائب ومطرّزات وقطع فنية، هي من إبداعات المرضى.

وهرعتْ في استقبالنا امرأة، تجاوزت سن الشباب بعض الشيء، أكّدت بدورها ذلك الكلام، وأضافت - في إشارة منها إلى كونها المشرفة على القاعة - بأنها اعتادت أن تشارك بتلك الأعمال في معارض خاصة بنتاجات المرضى تقام من حين إلى آخر.

كنت أصغي إلى ما يدور حولي من كلام، متنقّلاً بنظراتي بين المعروضات لأفاجأ بغتة بمنظر تمثال حجري صغير ميّزته من فوري وسط ما يحيط به!

- ما بك؟ لِمَ شحب وجهك بهذا الشكل؟!

سألني زاهد بقلق، فاكتفيت بأن أومأت برأسي نحو التمثال، فتطلع بدوره إليه وهو يسألني:

- إنه تمثال لا أكثر!.. فما سر انفعالك؟

وعلّق (أبو ساره) ضاحكاً:

- من المؤكد أنه من إبداع أحد المجانين؛ وإلا ما من إنسان سويّ يعمد إلى عمل تمثال بجسم إنسان ورأس وحش!

وبقيتُ أتطلّع مأخوذاً إلى ذلك التمثال متذكّراً، في الوقت نفسه، تلك التماثيل الغريبة التي كانت تملأ غرفة نديم في بيته في بدرة والتي ذكّرتني آنذاك بضربين من فن النحت: الفطري والحديث متمثّلاً بأسلوب النحات السويسري "جياكومتي".

وكانت المشرفة على القاعة قد دنت منّا وقد أثرنا فضولها؛ فاغتنمتُ الفرصة بسؤالها إن كانت تعرف صاحب هذا العمل الفني؟ فتأمّلتْ بدورها التمثال لحظات قبل أن تجيب، مكررة ما سبق لي أن سمعته، بصيغ وأشكال متعددة، من أكثر من واحد من العاملين في المستشفى:

- محال... كيف لي أن أتعرّف إلى عمل أحد النزلاء في مستشفى يضم أكثر من ألف نزيل؟

وتابعتْ، وهي تشمل بحركة من يدها، كل ما تحيط بنا من نتاجات:

- كل ما تراه حولك يا أستاذ هو نتاج مرضى مجهولين غير معنيين بأن يتذكرهم أحد: يمرون على المشغل على مدى الفترة التي ينهمكون خلالها بإنتاج عملهم، حتى إذا انتهوا منه اختفوا.

- لكن صاحب هذا العمل الفني يهمّني أمره كثيراً وهو الدافع الحقيقي لزيارتي هذه... أرجوك تمهّلي قليلاً وأصغي إليّ عساك أن تتعرفي إليه من خلال أوصافه: إنه .. إنه في الثامنة او التاسعة والخمسين من عمره. طويل القامة، بالغ النحول حتى أنه يبدو كالمصدور. شاحب اللون بخدين خاسفين وعينين شديدتي السواد.

- هناك مئات النزلاء الذين تنطبق عليهم هذه الأوصاف.

أجابت المشرفة مع بسمة اعتذار، فسارعتُ أضيف:

- وهو مصاب بالصرع؛ يسقط أحياناً أسير هذا الداء فيفقد ذاكرته مؤقتاً.

- وهناك نزلاء لا يعدون ولا يحصون مصابون كذلك بهذا الداء.

لم أيأس؛ كان عليّ ألا أفرّط بهذه الفرصة التي قد لا تتكرر. وكان المرافق يتطلّع إلى ساعته من حين إلى آخر وقد قطّب جبينه؛ فرجوته أن يمهلني دقائق لا أكثر، وعدت أخاطب المشرفة بنبرة أقرب ما تكون إلى التوسّل:

- أرجوك حاولي مساعدتي بشحذ ذهنك.. لا يعقل أنك لم تنتبهي إلى صاحب هذا التمثال الذي من المؤكد أنه لم ينجزه خلال يوم أو يومين؛ ذلك لأن إنجاز عمل فني بهذه الجودة والتميّز ومن مادة الصخر يتطلّب أسابيع.

وسارعتُ أضيف وقد تجدد أملي:

- وهناك أمر آخر قد يكون لفت انتباهك؛ فصاحب هذا التمثال أعسر...

- أتعني أنه يستعمل يده اليسرى لا اليمنى؟

سألتني المشرفة قبل أن تتابع وقد أمسكت التمثال بين يديها مديرة إياه إلى هذا الجانب وذاك:

- لحظة... أظن أنني أتذكّر نزيلاً كان موضع تندّري لاستعماله يده اليسرى.. نعم أتذكر ذلك كما أتذكر أنني اعتدتُ أن أمازحه، كلما قدم إلى القاعة، مكررة أن عمله كان سيبدو أكثر جودة لو أنه كان يتقن النحت بيمناه، فكان يتجاهل الرد عليّ إلى أن ضاق ذرعاً بي في إحدى المرات؛ فتأمّلني لحظات بنظرة غريبة قبل أن يحدثني عن أبيه، وكيف أنه حاول تلقينه دون جدوى الكتابة بيده اليمنى، حينما تم تسجيله في الصف الأول الابتدائي، فعمد إلى ربط يده الشمال إلى عنقه ليضطر إلى استعمال يمناه!

- إنه هو نديم إسكندر بيك.

أخبرتها باسمه وقد تجددتْ آمالي، واستللت، في الوقت نفسه، صورته من جيبي عارضاً إياها عليها، بيد أنها ردت وهي تعيد التمثال إلى موضعه لتدقق النظر في الصورة هذه المرة:

- لا جدوى من ذكر الاسم.. ولا فائدة تُرجى من الصورة؛ فالمرضى يتلاحقون تباعاً على المستشفى حتى يستحيل على أمثالي تذكّرهم اللهم إلا نزلاء معدودين لا مفر من تذكّرهم بسبب طول مكوثهم في المستشفى مثل غافل أبو الحشيش أو...

وقطعت كلامها فجأة لتلتفت نحو المرافق سائلة إياه:

- بالمناسبة: متى رأيت رجب آخر مرة؟

- تعنين رجب الفيلسوف؟ لم أره عقب انتهاء الحرب.

أجابها المرافق، فالتفتت نحوي قائلة:

- كان في وسعنا الاستعانة برجب؛ فهو مختار الشماعية – كما يلقّبه الجميع – يكاد يعرف النزلاء واحداً واحداً برغم أنه ليس منهم، فهو نزيل سابق، يمر من حين إلى آخر بعيادة المستشفى الخارجية لغرض تلقّي العلاج.

يبدو أنني بإزاء أحجية لم أكد أقترب من حلّها حتى ازدادت تعقيداً؛ فعوضاً عن العثور على نديم ها أنا الآن بصدد البحث عن رجب!!

- ألا تحتفظون بعنوان رجب هذا لديكم في المستشفى؟

سألتُ المرافق لحظة مغادرتنا المشغل، فأجابني بضجر مفصحاً بذلك عن استيائه لتضييع وقته (الثمين) معنا:

- ومن أوهمك بأن لرجب عنواناً؟ إنه نزيل سابق، أخرج من المستشفى عنوة بعدما تبيّن للجميع أن استماتته للبقاء لا تعود لحرصه على الشفاء من الفصام – الداء الذي يعاني منه معظم العراقيين – بل لكون الشماعية المكان الوحيد الذي يوفّر له الطعام والسكن دون مقابل.

- أليس له أهل؟ أسرة؟

ولم يتنازل، هذه المرة، بالرد لفرط سذاجة السؤال، إنما تقدّمنا في طريق الخروج حيث صادفتُ غافل مقرفصاً على حافة الممر الإسمنتي، وهو يستمتع بتدخين سيجارة عقب انتهائه من تشذيب شجيرات الآس، فاغتنمتُ الفرصة بسؤاله عن رجب، وإن كان يعرفه؟ ففوجئت به يجيبني وهو يقهقه:

- خالي ومن الذي لا يعرف مختار الشماعية رجب؟ يكفيك أن تلتقيه مرة لتتذكره إلى الأبد؛ ففضلاً عن علامته الفارقة المتمثّلة بوحمة حمراء تغطي إحدى عينيه، لن تراه عادة إلا وهو يتأبط حقيبة صغيرة تضم عادة علبة سجائر وكتاباً.

- إنه فيلسوف!

صاح مرافقنا متهكماً وقد وقف في منتصف الممر. وتابع قائلاً إن رجب كان طالباً جامعياً يدرس الفلسفة، لكنه، وقبل تخرّجه، بدأت تظهر عليه بوادر الجنون متمثّلة بزعمه أن روح أحد الفلاسفة القدماء قد تقمّصته؛ وهكذا بات يشاهد وهو يتجول في أروقة الكلية حاملاً فانوساً مضاء في عزّ النهار، مجيباً كل من يسأله عما يفعل بفانوسه ذاك؟ أنه يبحث عن الحقيقة!

- ذلك كان شأن الفيلسوف الأغريقي ديوجين.

قاطعته موضحاً، بيد أنه تابع كلامه دون أن يولي ملاحظتي أية أهمية:

- ويبدو أن أمره شاع في كليته بعدما بات موضع تندّر الجميع مما اضطر أستاذه، الذي كان يتوسّم فيه الكثير، إلى محاولة مساعدته في تبديد أوهامه؛ فبحث عنه ذات يوم ليلتقيه مسترخياً على أحد كراسي الحديقة، فوقف فوق رأسه مسدياً إليه النصائح، لكن رجب لم يعره انتباهه؛ إنما اكتفى بأن أهاب به طالباً منه ألا يحجب شمسه بظله!!

- وكيف السبيل إلى لقائه؟

تساءلتُ وقد ازدادت لهفتي للقاء هذا الممسوس، فأكد غافل أن الأمر منوط برجب نفسه؛ ما من سبيل للقائه إلا حينما يقرر هو ذلك من تلقاء نفسه، فسألته حائراً:

- وكيف يحصل ذلك وهو لا يعرفني؟

فاقترح المرافق ترك عنواني ورقم هاتفي في الاستعلامات لإيصالهما إليه إن تحكّم به مزاجه فمرّ بالمستشفى ذات يوم؛ وهو أمر قد يحصل قريباً بعد مرور شهور على انتهاء الحرب.

- هذا إن كان لا يزال على قيد الحياة؛ فما أدرانا خالي أنه لم يذهب ضحية إحدى القذائف الطائشة شأنه شأن آلاف الضحايا؟

تساءل غافل وهو يطلق سحابة دخان كثيفة من فمه ومنخريه معززاً بذلك يقيني بأنه من الظلم عدّه مجنوناً!

وفي غرفة الاستعلامات أبلغت الموظف بفشل مسعاي، وأن أملي الوحيد بات مرتهناً بلقاء (مختار الشماعية) رجب، فحذّرني ضاحكاً:

- يستحسن بك الاعتماد على نفسك في بحثك عن صاحبك عوضاً عن التعويل على رجب في ذلك؛ فهو ليس بالإنسان السوي الذي سيعينك عن طيب خاطر دون استيفاء الثمن!

- لكن الجميع يؤكدون أنه الوحيد الذي في وسعه مساعدتي بحكم إلمامه بحياة معظم النزلاء.

- هو كذلك فعلاً: يحرص على معرفة عناوين النزلاء، بل يعمد إلى زيارة عدد منهم سواء هنا أم في بيوتهم بعد خروجهم من المستشفى مستثمراً علاقاته بهم لتوفير لقمة خبزه؛ ذلك لأنه طفيلي بطبعه: يعتاش على تعب الآخرين؛ لن يعين أحداً في أمر ما إلا بعد استنزافه بحجة أنه بصدد مفاجأة (العالم) بنص فلسفي سيتخطى به كتاب نيتشه "هكذا تكلم زرادشت"؛ لذلك فوقته أثمن من أن يبدده خلاف ذلك!

- لو كان رجب بهذه المواصفات فمن المؤكد أنه لم يفوّت عقد صداقة مع نديم.

قلتها بحسم وقد تجددت آمالي، فسألني موظف الاستعلامات عما يدفعني إلى هذا الظن؟ فأجبته بعدما زوّدته برقم هاتفي فضلاً عن عنواني يوم الجمعة سواء في مقهى "حسن عجمي" صباحاً أم في شارع المتنبي طوال الساعات الأخرى:

- ذلك لأن نديم بالغ الثراء، يبذر النقود من حوله بسخاء؛ فلا يُعقل أن يكون رجب قد فوّت صيداً دسماً على هذه الشاكلة فلم يعقد معه صداقة قد تأتي عليه بالمنفعة!

***

وهكذا بات العثور على رجب هاجساً ملازماً لي ولزاهد: لا نكاد نلتقي صباح كل يوم جمعة في مقهى "حسن عجمي"، لغرض تناول فطورنا قبل الشروع ببيع الكتب، حتى نرابط على أحد التخوت المواجهة لباب المقهى لتتسنى لنا رؤية الداخلين والخارجين في انتظار أن يطلّ علينا (جودو) – هذه التسمية التي اطلقناها على رجب مستعيرين إياها من عنوان مسرحية بكيت المشهورة - حتى إذا ما غادرنا المقهى متوجهين إلى شارع المتنبي – حيث نفرش كتبنا على الرصيف المقابل لمكتبة نعيم الشطري – نسينا الغرض الحقيقي من وقفتنا لنترصد بأعين منتبهة كل عابر سبيل في انتظار إطلالة (جودو).

بيد أن الأسابيع تلاحقت دون أن يحصل ذلك. وكان من المرجّح أن أستسلم لليأس لولا أن زاهد كان يشدّ من عزمي مؤكداً أنه لا مفرّ لرجب أن يظهر في خاتمة المطاف، وحينما كنت أسأله من أين جاء بهذا اليقين؟ كان يرد قائلاً إن ما قيل بحق هذا الإنسان عن طفيليته وحرصه

أن يعيش على حساب الآخرين يجزم أنه لن يضيّع فرصة متاحة له، وأنه سيظهر ذات يوم حين تمسّ الحاجة به إلى من يتوسّم فيه الأمل للاستفادة منه.

وكانت بتول قد دأبت آنذاك على الاتصال بي، بين أسبوع وآخر، عن طريق الهاتف، مكررة بنفاد صبر أنه لا يعقل أن يختفي شخص مثل نديم فلا يترك وراءه أثراً، فكنتُ أطمئنها مؤكداً استحالة حصول ذلك، وكل ما هو مطلوب منا التجمّل بالصبر، فكانت ترد بعصبية:

- ومن أين آتي بهذا الصبر وأولاد ألفت خاتون يكادون، بملاحقتهم اليومية لي في عقر داري، يكتمون عليّ أنفاسي؟!

وكنت أحرص على الاتصال باستعلامات الشماعية من حين لآخر، سائلاً عن رجب، وإن لم يظهر له أثر بعد؟ فكان الموظفون الذين يتكفّلون بالرد يجابهونني بقهقات مدوّية وهم يرددون – وكأنما عن سابق اتفاق! – أنها المرة الأولى التي يسأل شخص ما عن رجب؛ إذ المألوف الهرب منه وتجنّب التورط معه بصداقة تكلّف الكثير من (النقود)!!

بيد أنني فوجئت، في آخر اتصال، بأحد موظفي الاستعلامات يبشّرني بأن رجب مرّ بالمستشفى؛ فتمّ تزويده بعنواني ورقم هاتفي!

- هل أنت متأكد من ذلك؟

- طبعاً متأكد؛ إذ إنني أنا شخصياً من التقاه!

- ومتى حصل ذلك؟

سألته وأنا أدير، لفرط ارتباكي وفرحي، سماعة الهاتف إلى أذني الأخرى، فأجابني أنه التقاه منذ ثلاثة أيام أو أربعة، فعدت أسأله:

- وماذا كان ردّه؟

فأجابني وهو يغالب نوبة ضحك ألمّتْ به:

- وهل تتوقع من رجب أن يريحك برد واضح؟ محال!

وتابع متمنياً لي التوفيق في مهمتي مع أكثر الناس مخادعة في تاريخ الشماعية!

أطبقت سماعة الهاتف وأنا أفكر بمغزى هذا الكلام!.. لكنني سرعان ما تجاوزت قلقي؛ فرفعت السماعة مجدداً لأتصل ببتول مبشّراً إياها بالخبر، فشكرتني بصوت خفيض منوهة بأنها ليست وحدها في البيت؛ فـ(آل ألفت خاتون) يضجون بصخبهم في غرفة الاستقبال في انتظار أن تعدّ لهم امرأة خالهم أشهى غداء!

والتقيتُ زاهد يوم الجمعة في المقهى، وكنت قد أخبرته عن طريق الهاتف بمرور رجب باستعلامات الشماعية وإيصال عنواني ورقم هاتفي إليه، فلبثنا نعدّ الدقائق في انتظار (جودو)، غير أن ذلك لم يحصل؛ وكذلك كان شأننا في شارع المتنبي حيث مر بنا أطول يوم بقينا خلاله ندقق النظر في وجوه المارّة ليعود كل واحد إلى بيته خائباً.

وعلى هذا المنوال تعاقبت ثلاثة أسابيع دون أن يظهر لرجب أثر!

ما معنى هذا التصرّف الأحمق؟ أيكون الرجل يتلذذ بتعذيبي؟ ولكن لا يعقل ذلك؛ فلم يسبق لأحدنا أن عرف الآخر!

وكان يخطر لي أحياناً أن رجب يتعمّد التواري بعدما أدرك مدى حاجتي إليه وذلك سعياً منه لابتزازي أكثر حينما تسنح له الفرصة الملائمة للقائي، ولا يبعد أنه يتلذذ بمراقبتي من بعيد كل يوم جمعة في وقفتي البليدة قرب كتبي وأنا أترقّب ظهوره!

وهكذا استثمرت إصابتي بعارض صحي؛ فانقطعت عن الذهاب إلى شارع المتنبي مخاطباً رجب في سري:

- فلتقر الآن عيناً أيها المخبول الطفيلي؛ فها أنذا أترك لك الساحة تصول فيها وتجول على هواك!

(هاجر)

منذ عودة نديم من مهران ساد الصمت البيت: لا مذياع يصدح فجأة بمعزوفة موسيقية عابرة. لا أطفال يضجون بصخبهم المعهود. لا ضيوف يقتحمون البيت بثرثرتهم. وحدها الساعة الجدارية المعلّقة في غرفة الاستقبال بقيت تبدد الصمت على مدار الأيام: تدوّي، كل ستين دقيقة، بدقاتها التي يضخّمها الصمت؛ فتترجّع الأصداء في غرف البيت وأروقته.

كان الطبيب قسطنطين الوحيد الذي يُفتح له الباب بين أسبوع وآخر، يسير في أعقابه هوبه محمّلاً بالحقيبة العتيدة - الصيدلية المتنقلة كما يسمّيها الكثيرون - فيستقبلهما نديم في الحديقة ليقودهما إلى غرفة أبيه المعتمة، حيث يطلب الطبيب منه فتح ستارة النافذة. وبعدما يتأمّل لحظات المريض المضطجع على سريره ينطق ببضع كلمات غير مفهومة، هي مزيج من يونانية وعربية مشوهة، يتهالك بعدها بجرمه الهائل على أقرب أريكة لينصرف، وهو يتنفّس بصوت مسموع، إلى الاستعداد ليحقن مريضه بالأبرة التي يكون هوبه قد حضّر أدواتها على الطاولة.

وتمر دقائق يضرم الطبيب، خلالها، ناراً زرقاء صغيرة في علبة معدنية تحتوي على قليل من الكحول يطهّر على لهبها الأبرة ليتحامل بعدها على نفسه وهو ينهض من أريكته مردداً بالعربية:

- يا الله.

وينصرف لحظات، يعينه هوبه في ذلك، إلى البحث عن الموضع المناسب لزرق الأبرة في الجسد المستسلم الموشوم بآثار إبر سابقة لا تُعدّ ولا تُحصى، في حين يتأمّل نديم أباه بأسى ملاحظاً أنه ازداد هزالاً. ويبادله الأب بدوره النظر بعينه اليسرى تاركاً عينه اليمنى تواصل إغفاءتها خلف الجفن المنسدل في الجانب المشلول من جسده.

هل تعرّفتَ إليّ يا أبي؟ أم أنك لا تزال تجهل من أكون؟

يردد نديم السؤال في سره وهو يفكر بمدى ضعف الإنسان وهشاشته!.. هل خطر له يوماً أن ذلك الأب الصارم المرعب المتسلّح بسوطه سينتهي إلى مثل هذه النهاية البائسة التي تبعث على الشفقة؟

وينهي الطبيب عمله؛ فيرافقه نديم حتى الباب الخارجي مصغياً باهتمام إلى نصائحه التي يظل يكررها على سمعه على امتداد المسافة التي تفصل الغرفة عن الزقاق، تاركاً لهوبه مهمة توضيح ما تلتبس عليه من كلمات. ولا ينسى الطبيب تذكيره بضرورة تحفيز عضلات الجانب الأيمن المشلول من جسد المريض بوساطة بعض التمارين الرياضية الخفيفة. كما ذكّره، في إحدى زياراته، بضرورة ألا يبقى المريض أسير فراشه إلى الأبد؛ إذ لا بد من إخراجه من بيته بين فينة وأخرى ليشمّ الهواء؛ وحين تساءل نديم عن كيفية تنفيذ ذلك ووالده على حاله تلك؟ ردّ الطبيب عليه بكلام فسّره هوبه بأنه سيبعث إليه بعربة مصممة للمعوّقين تعود للمستشفى.

وهكذا وجد نديم نفسه – منذ وصول العربة – ملزماً بالقيام بنزهات كان يحمل أباه عليها حملاً؛ فمنذ محاولة الشروع بالنزهة الأولى أبدى المريض، برغم عجزه، مقاومة عنيفة كاد يسقط بسببها أثناء حمله إلى العربة؛ فاضطر نديم إلى أن يصيح، وهو يكاد يبكي إشفاقاً، مؤكداً له أن هذه النزهة تجيء بأمر من الطبيب لا لرغبته الشخصية، بيد أن الأب تمادى في عناده اليائس، فهمست الأم لابنها بصوت خفيض:

- من المؤكد أنه لا يطيق أن يُشاهد من قبل الآخرين يُقاد على عربة خاصة بالمعوّقين وهو الذي كان يكفيه أن يمر في السوق ليهبّ الجميع واقفين احتراماً له.

وأردفتْ حينما وجدتْ ابنها لا يحير جواباً:

- يفترض بنا تذكيره بأيام مجده ليسمح لنا بحمله إلى العربة.

وانحنت على زوجها لتهمس له بكلمات رد عليها المريض بتمتمة مبهمة رمقت الأم، على أثرها، ابنها بنظرة انتصار غابت بعدها لحظات لتعود بالطربوش والسوط!!

- ما حاجته إلى السوط؟ لا يعقل أن نذكّر الآخرين بهذه الأداة وهو على هذه الحال!

صاح نديم مستنكراً، فأجابته أمه وهي تغرق رأس زوجها الحليق بالطربوش، لتعمد بعدها إلى وضع السوط في حضنه بعد تغطية ساقيه حتى مستوى الخصر بشرشف:

- لا عليك؛ فقد ألف الظهور بهذه الهيئة المهيبة أمام الناس، ومن المحال ثنيه الآن عما اعتاده طوال عمره.

لكن نديم لم يقتنع برأيها إلا مضطراً؛ فتمسّك بمقبضي العربة الجانبيين وبذل بعض الجهد قبل أن يفلح في دفعها لتسير خطوات إلى الأمام انسابت بعدها لتنطلق بخفة تحت ثقل أبيه، لا شيء يعترض سبيلها سوى ما تصادفها من أحجار صغيرة تصرّ أثناء مرور العجلات عليها. وكان نديم يعمد إلى إيقاف العربة، كلما صادف بعض المعارف، ليتبادل معهم الكلمات المعهودة التي لا تخرج عن نطاق الاستفسار عن صحة المريض والدعاء له بالشفاء.

سار بالعربة جنوباً تاركاً "بدرة الجديدة" خلفه، حتى إذا ما حاذى بها وادي الكلال استدار باتجاه الشرق – حيث اندفع صباح ذلك اليوم المشهود هارباً إلى مهران – ليسير بها، هذه المرة، في ذلك الشريط الترابي الضيق الذي مهّدته أقدام السابلة والمحصور بين بساتين النخيل يساراً والوادي يميناً.

سارا صامتين، وطربوش أبيه الأحمر يتأرجح تحت بصر نديم على وقع حركة العربة. وأمامه بدتْ سلسلة الجبال الإيرانية تؤطر الأفق الشرقي وقد غمرتها الظلال بعدما جنحت الشمس غرباً فتلوّنت بلون رمادي تخللته لطخات برتقالية حيث تمسّ أشعة الشمس القمم، وثمة سحب شاهقة تعلوها وقد تشرّبتْ بلون الذهب، حتى إذا ما انصرمت دقائق فوجئ نديم بهمهمة أبيه ترتفع، فأوقف العربة وانحنى عليها ليسأل أباه إن كان يفضّل العودة؟ لكن الأب لم يرد عليه بأيما إشارة يفصح بها عما ينشده؛ إنما بقي محافظاً على استدارة رأسه يميناً كأنه يتطلع إلى

شيء بعيد يقع هناك في الأسفل حيث يمتد الوادي لينتهي بالجرف الجنوبي الذي تتراصف فوقه بيوت "بدرة القديمة".

- هل تريد مني الاتجاه بك إلى هناك؟

سأله نديم مدركاً سلفاً صعوبة تنفيذ هذه المهمة دون معونة شخص آخر. لكن أباه هزّ رأسه نفياً، وبقي على وضعيته السابقة يتطلع إلى بعيد؛ فدقق نديم النظر في ذلك الاتجاه ليتنبه إلى ثلاث نساء أو أربع مقرفصات بمحاذاة واحدة من مخاضات المياه العديدة التي تتوزع عادة على امتداد قاع الوادي العريض، تحفّ بها شجيرات الطرفاء القميئة، وقد انصرفن إلى غسل أوعيتهن؛ فعاد يسأل أباه إن كانت تلك المجموعة من النساء هي التي لفتت انتباهه؟ وحينما هزّ أبوه طربوشه هذه المرة موافقاً تذكّر نديم ما سبق لأمه أن كاشفته به من خفايا فترة شباب أبيه، وكيف أنه كانت له صولات وجولات غرامية مجلجلة بقيت أخبارها تروى في بدرة عشرات السنين؛ فعلق مشفقاً:

- لقد مرّ الكثير على تلك الأيام يا أبي حتى لم يبقَ منها سوى الذكريات.

وتنقّل لحظات بنظراته بين الطربوش المنتصب على رأس أبيه والسوط المهمل في حضنه مستعيداً بلمحة خاطفة تاريخ سلالة أجداد عثمانيين فرضوا سطوتهم على آلاف الناس بهذين الرمزين.

ترى ألم يكن أبوه ضحية ذلك الماضي الكريه؟ وتذكّر على غير توقع منه لسعة هذا السوط التي ألهبت وجهه في ذلك اليوم الذي اضطر فيه للهرب إلى إيران؛ فعاد يسأل أباه بإشفاق:

- لولا انصياعك لذلك الماضي هل كنت ترفع سوطك في وجه ابنك أقرب مخلوق إليك؟

واستطرد في كلامه وقد قرفص قرب العربة مبادلاً أباه نظرة طويلة:

- كنتُ أينما توجّهتُ – سواء في المقهى أم عند مروري بالمخفر العراقي أم لحظة وصولي إلى بيت خالتي في مهران – أُسأل عما حصل لي؟ كان الجميع شهوداً على ما حصل بيني وبينك من أمر أنا أول من أعذرك عليه.

وصمت لحظات مواصلاً تحديقه في هذا الوجه المستسلم لقدره، حتى إذا ما استرسل في كلامه قال بأرق نبرة ممكنة:

- حسن... لقد حدث ما حدث وانتهى الأمر، وأعاهدك على أن أكون لك خير ابن.. ما أرجوه منك هو الصمود.. تمسّك بالحياة؛ إذ يكفيك أن تخذلني لكي لا أغفر لنفسي جريمتي بحقك إلى الأبد؛ فأنا وحدي أتحمل جريرة ما حصل، نعم ذلك ما يفترض بي الاعتراف به لك الآن!

ولم يطرف للأب جفن، إنما بقي يواصل تحديقه إلى بعيد، أبعد مما أمامه من بشر وحجر، كأنه يستنطق ماضيه الغابر ليردّ له أمجاداً ولّتْ إلى الأبد. وتنبّه نديم بغته إلى دمعة تتكور في عين أبيه اليسرى لتنحدر ببطء خلال عشرات التجاعيد والغضون قبل أن تختفي في ثنايا لحيته البيضاء. وفجأة تذكّر دفتره المشؤوم ومعه أدرك سر هذه الدمعة؛ فعاد يسأل:

- أتظن أن فردوس أو هاجر قد تكون ضمن هاتيك النسوة؟

وحينما رأى أباه لا يحير جواباً نهض ليستدير بالعربة عائداً إلى البيت وقد صمم على استنطاق أمه لتخبره بحقيقة هاتين المرأتين: ألا تزالان على قيد الحياة؟ وإن كان الأمر كذلك فأين تسكنان؟ وكيف السبيل إلى لقائهما؟

وكما توقّع؛ ما كاد يطرح أسئلته على أمه، بعدما أعاد بمعونتها الرجل المريض إلى فراشه، حتى جوبه بها تسأله من الجانب المقابل للسرير:

- ما جدوى إشغال نفسك بهذا الأمر؟

- لن أغفر لهاتين المرأتين؛ فهما السبب الحقيقي لكل ما حصل بيني وبين أبي.

فأوضحت أمه وهي تغادر الغرفة مطفئة المصباح في طريقها:

- فردوس ماتت منذ زمن بعيد، أما ابنتها هاجر فهي لا تزال حية ترزق.

- ستكون هاجر إذن من تتحمل الذنب كله؛ فهي الثمرة المحرّمة لتلك العلاقة الآثمة، وقد حدث ما حدث بسبب تطرقي إلى سيرة أمها في دفتري ضمن سِيَر النساء المشبوهات في بدرة.

- لم تكن تنقص والدك الأعذار والحجج لكي يغضب ويثور؛ فهكذا خلقه الله: لا يسترخي حتى وهو نائم؛ فما أكثر ما جفلتُ من نومي على صراخه وشتائمه وقد وقع تحت وطأة أحد كوابيسه.

أجابته أمه وهما واقفان أمام باب غرفة أبيه الموارب، فسألها نديم عن عنوان هاجر، فردّت متهكمة:

- وأين تريد أن يكون عنوانها غير "بدرة القديمة" حي الفقراء والمعدمين؟

واستدركتْ مستبقة سؤاله المتوقع:

- يقع بيتها في الزقاق الذي يقوم على مدخله حانوت صاحبك القديم.

- أي صاحب تعنين يا أماه؟

فعلّقتْ أمه مبتسمة:

- أنسيت ذلك الرجل الذي اعتدتَ المرور بحانوته وأنت طفل أكثر من مرة في اليوم، حينما كنا نزور أحد أقربائنا، والذي كان يدهشك لكون كل هذه الحلويات تحت يديه – أكداس الحامض حلو والجكليت واللقم – فيكتفي ببيعها دون أن يتلذذ بازدرادها كما يُفترض بأي إنسان عاقل؟!

- أتعنين ذلك الرجل الأبيض مثل شبح؟

- بل هو أبرص؛ بات أبيض مثل شبح، كما تقول، بسبب هذ الداء الذي أصيب به في شبابه.

فعاد نديم يسألها إن كان لا يزال حياً يرزق؟

- لم أسمع عنه أنه مات.

أجابته وهي تغادره، فوجد نديم نفسه وقد عاد إلى زمن طفولته، إلى تلك الأيام التي كان يلازم خلالها – كلما زار، بصحبة أمه، أحد أقاربهم – طفلاً سميناً مورّد الوجنتين مقارباً له في السن كان مغرماً بالتهام الحلويات، يقصد، أكثر من مرة في اليوم، ذلك الرجل الأبرص الذي كان حانوته يقع جنب بيته الذي كان يصدر منه، في أغلب الأيام، دويّ يصمّ الأسماع عرف أنه صوت جهاز خاص بشحن بطاريات أجهزة المذياع الشائعة في ذلك الحي الذي لم يكن التيار الكهربائي قد وصل إليه بعد.

ضحى اليوم التالي حرص نديم على ارتداء القميص والبنطال برغم معرفته أن ملابسه تلك ستعقّد عليه الأمر بعض الشيء، وذلك ما حصل؛ إذ إنه كان ملزماً باجتياز وادي الكلال، الذي لم يكن قد أقيم عليه جسر بعد، وبذلك ترتّب عليه الخوض في برك المياه التي اعترضت سبيله، حتى إذا ما انتهى الأمر بسلام ارتدى حذائيه من جديد، وتلمّس شعره القصير بحركة سريعة ليبدأ بعدها رحلته وسط صفوف البيوت البدائية المتلاصقة والمجبولة من الطين.

كادت الأزقة تكون خالية في مثل هذا الوقت من النهار؛ فلم يصادف في طريقه سوى طفلين أو ثلاثة بدوا في عجلة من أمرهم يهرولون إلى إتجاه ما. وكانت الكلاب الكائنات الوحيدة التي يلتقيها من حين إلى آخر؛ فيمر بها بحذر متجاهلاً نظراتها العدائية المنذرة بالشر.

كان ملمّاً بتفاصيل هذه البيوت من الداخل: يعلم جيداً أن بعضها يتشابه مع بعض بالغرف المظلمة الخالية من الشبابيك، وقد يتميز عدد منها بوجود إسطبلات أو حضائر حيث من المألوف أن تقاسم الماشية أصحابها حياتهم اليومية.

وصل إلى الزقاق المنشود، ففوجئ بباب الحانوت مغلقاً وقد تراكم التراب على عتبته.

لعله أغلق منذ فترة بعيدة بسبب موت صاحبه أو لأمر آخر.

وكانت أبواب البيوت مفتوحة على جانبي الزقاق، يصدر عن بعضها الضجيج المألوف في الأحياء السكنية المماثلة: نداءات وصراخ أطفال وضحكات تعلو بغتة لتعقبها أصوات بكاء. وكانت العيون تترصده، في مروره، بنظرات استغراب لم يفهم مغزاها إلا حينما اكتشف أن الزقاق دون منفذ؛ فاضطر إلى العودة سائلاً، في طريقه، أول صبي صادفه عن هاجر. لم يكن يهدف إلى أكثر من أن يعرف أين تسكن ليغادر بعدها الزقاق بسلام، لكن الصبي سأله بكل جدية:

- أتعني الخالة هاجر؟

صاح بعدها بأعلى صوته وقد استدار إلى الخلف نحو باب قريب:

- أمي.. هذا الأفندي يسأل عن الخالة هاجر!

وأطلّت امرأة في مقتبل العمر بوجهها المؤطر بالفوطة المعهودة من الباب لتدقق فيه النظر صامتة، وسرعان ما برزت وجوه أخرى من البيوت المجاورة مستهدفة نديم بنظراتها.

هل السؤال عن هذه المرأة يدخل في باب المحظورات؟

تساءل نديم في سره وهو يفكر بكيفية التصرّف. لكن الصبي نفسه انتشله من حيرته حينما عاد يصيح:

- ها هي الخالة هاجر قادمة من الكلال.

وظهرت، عند مدخل الزقاق، امرأة طويلة القامة متلفّعة بعباءتها تحمل على رأسها صينية مملوءة بقطع ملابس انتهت من غسلها كما يبدو.

- إنه يسأل عنكِ خالة.

خاطب الصبي المرأة وهو يهرول في استقبالها، فتهيّأ نديم لإيجاد العذر المقنع الذي سيتحجج به إن استفسرت هاجر عن سبب سؤاله عنها، بيد أنها اكتفت بأن رمقته بنظرة عابرة استدارت بعدها إلى باب بيت إلى يمينها لتركله بضربة سديدة من قدمها انفتح على أثرها دفعة واحدة، وانحنت تحت ثقل صينيتها لتختفي في عتمة البيت، حتى إذا ما مرت لحظات ظهرت وهي دون عباءة حيث وقفت عند العتبة رامقة نديم بنظرة متسائلة.

هل يُعقل أن تكون هذه المرأة أخته؟

سأل نديم نفسه وهو مستغرق في تأمّل وجه المرأة، محاولاً عبثاً العثور على أي ملمح يقرّبها من أبيه: كانت سمراء، بعينين شديدتي السواد تشكو إحداهما من حَوَل خفيف، وكان أنفها جميلاً على النقيض من فمها الواسع بعض الشيء.

- هل اكتفيتَ؟ أم يفترض بك أن تطيل النظر أكثر لتتأكد إن كنت أصلح للأمر أم لا؟

خاطبته هاجر وقد صوّبت عينها الحولاء نحوه، فسألها بدوره متجاهلاً ضحكات نساء الزقاق الحذرة التي ارتفعت من حوله:

- العفو.. لم أفهم ما الذي ترمين إليه بسؤالك، وأي أمر تعنين؟

- الخطوبة طبعاً.. واضح أنك قدمت وقد بيّتَ النيّة على أن تخطبني لأحد معارفك!.. ما رأيك؟ هل أصلح لذلك ولاسيما أنني امرأة مطلّقة لم أخلّف من يعرقل على صاحبك مشروعه المبارك!

وكانت الضحكات الحذرة قد تحوّلت إلى عاصفة شارك الأطفال فيها بكركراتهم؛ فازداد نديم ارتباكاً وقد أيقن أنه بإزاء امرأة سليطة لسان لن يُؤمن جانبها أبداً؛ فتلفت حوله بحيرة قبل أن يتكلم بشيء من التردد:

- أنا نديم ابن...

- ابن إسكندر بيك.. ليست بك حاجة إلى التعريف بنفسك وابن من تكون؛ فحتى كلابنا تدسّ أذنابها بين سيقانها كلما ورد ذكركما.. اسمع يا.. ابن البيك .. هل ترى هذه الشقوق والثلمات التي تعتور جدران بيوتنا الطينية المسكينة؟

فعاد نديم يتلفت حوله وهو يكاد يذوب خجلاً، ملاحظاً الأفواه من حوله تصهل بضحك جماعي يكاد يصمّ الأسماع؛ فأدرك أنه لا مفر له من أن يسارع بالهرب؛ إذ لا قِبَل له بمقارعة لسان يبدو وكأنه قد تشرّب بالسم!

- إنها حدثتْ على وقع صدى ضربات سوط إسكندر بيك: فكلما جلد شخصاً ما – كما حصل معك – ازدادت الشقوق في حيطاننا.. وليس هذا فحسب؛ بل إنني، مع صدى كل ضربة سوط يتردد في ذلك الصوب، أسعى إلى أن أمنع (هذا) من الارتخاء والسقوط بين قدميّ!!

وشفعتْ هاجر كلامها بأن سحبتْ، من فوق ثوبها، رباط لباسها الداخلي واطلقته ليصطفق بجسمها بصوت مسموع دفع بنديم إلى الهرب مهرولاً وسط عاصفة ضحك مدوية!!

(١٠)

انقطعتُ عن الذهاب إلى شارع المتنبي على مدى جمعتين متلاحقتين مما اضطر زاهد إلى أن يزورني في بيتي ليسألني – وهو يسلّمني حصتي من النقود - عما دهاني؟ فصارحته بيأسي ولا جدوى انتظاري الغبي.

واستطردت منوّهاً بأن ثمة فكرة مجنونة باتت تخامرني في الفترة الأخيرة مفادها أنه من الجنون الاستعانة بمجنون في بحثي عن مجنون آخر ما دام الأمر يبدو وكأننا جميعاً مقبلون على الإصابة بالجنون!!

- هل أنت جاد في ما تقول؟

سألني زاهد قبل أن ينفجر مقهقهاً، فأجبته مشاركاً إياه في الضحك:

- كل التأكد!

فأخذ زاهد يتلوّى في جلسته وهو يواصل قهقهاته. ضحكنا طويلاً، حتى إذا ما سيطر زاهد على نفسه صاح بي بحرقة الصديق المحب:

- لا يعقل أن يبلغ بك اليأس إلى هذا الدرك!

وأضاف وقد وثب واقفاً ليستلّ مجموعة من كتب التراث التي تثقل رفوف غرفة الاستقبال:

- إن رجب مجنون.. إنسان لا يملك رشده كاملاً، فكيف تتوهم أنه يتلاعب بك وأنت العاقل المثقف؟

وغادرني بكيسين متخمين بالكتب منذراً إياي بأنه سيرابط في الجمعة القادمة أمام بيتي إن لم أسبقه بالحضور إلى المقهى. وأضاف ضاحكاً:

- بالمناسبة... لقد سألني (أبو داود) عنك – وهو مجنون آخر - أكثر من مرة.. يبدو أنه يفتقد (البقشيش)!

وهكذا عاودت سيرتي السابقة بالتوجه إلى شارع المتنبي كل يوم جمعة وقد عزمت أمري على ألا أولي رجب اهتماماً يُذكر.

ليتجنّب لقائي قدر ما يشاء.

ليتجاهل وجودي ما طاب له ذلك؛ فأمره لم يعد يعنيني من قريب أو بعيد.

وعملت جهدي على تجنّب عادة التدقيق في وجه كل عابر سبيل قد يطيب له الوقوف عند كتبنا المعروضة على الرصيف. بل بتّ أعمد إلى التقاط كتاب – أي كتاب – من جملة الكتب المفروشة أمامي لأنشغل بتصفّحه وقراءة سطور منه هنا وأخرى هناك متناسياً ضجة الحشود المحيطة بي في رواحها ومجيئها. بيد انه حدث ذات يوم أن تنبهّت من شرود أفكاري، وأنا

مستغرق بقراءاتي العشوائية تلك في أحد الكتب، إلى صوت واحد من جملة الواقفين حول الكتب وهو يعلو مفصحاً عن سعادته لعثوره على كتاب طال بحثه عنه.

رفعت وجهي عن الكتاب رامقاً ذلك الشخص بنظرة عابرة، فإذا بالوحمة الحمراء المحيطة بإحدى عينيه تلفت انتباهي فوراً؛ فانهار تصنّعي اللامبلاة وأنا أرى رجب بعلامته الفارقة واقفاً أمامي، يلوّح بكتاب يبدو أن عثوره عليه بين الكتب المعروضة كان مبعث سعادته.

قال وهو يدنو مني:

- إنه الجزء السابع والأخير من "تاريخ الفلسفة" لأميل برهييه، عن الفلسفة الحديثة.

بدا في حدود الأربعين من عمره، غطى الشيب عارضيه وتخلل شعره المسترسل خلف عنقه، تحيط بوجهه الطويل لحية خفيفة.

- هو لك دون مقابل؛ في وسعك عدّه هدية مني.

خاطبته حينما سألني عن سعر الكتاب، فرد عليّ وهو يبادر من فوره بإيداع الكتاب حقيبة جلدية صغيرة بدا من الواضح أنها لا تفارق يده:

- شكراً أستاذي... لقد سعدت كثيراً بالعثور على هذا الجزء بعدما أرهقني تجميع الأجزاء الستة التي سبقته.

ومضى يتفرس بي، من خلف عدستي نظارتيه الطبيتين، بعينين صغيرتين لا تكادان تطرفان. وكانت الوحمة الحمراء تبدو أشبه بأثر لكمة محكمة التسديد تلقّاها في عينه اليسرى.

- لديّ مكتبة فلسفية كاملة سأعرض كتبها تباعاً للبيع.

قلتها سعياً مني لإغرائه، فسألني إن كنت قد أعددت قائمة بعناوين تلك الكتب؟ فوعدته بالقيام بذلك في أقرب فرصة، فشكرني ليغادرني بعدها زاعماً أنه على موعد مع أحد أصدقائه.

- أحسنتَ... تصرّفتَ بشكل (درامي) تماماً مثلما يجري الأمر في أحد الأفلام البوليسية؛ فما كنتُ أخشاه هو أن تبادره بسؤاله عن نديم منذ أول لحظة مبدداً بذلك فرصة استدراجه ليكشف أوراقه في الوقت المناسب.

صاح زاهد حالما اختفى رجب في زحام الحشد الذي يعجّ به الشارع، فأجبته ضاحكاً:

- إنه محتال لن يفيدنا بشيء ما لم يستوفِ ثمن ذلك سلفاً؛ لذا أحببت أن أجاريه في لعبته بادئاً ذلك بالتضحية بكتاب.

- ومكتبتك الفلسفية؟ أتنوي حقاً عرضها للبيع؟

- إنها محض طُعْم لا أكثر!

ولم تكد تمرّ أيام حتى أدّى الطعم مفعوله؛ فقد اتصل رجب بي على هاتف البيت مبادراً إيّاي بقوله وهو يضحك:

- أستاذي لا تنسَ أن وعد الحر دَين.

فأجبته أنني عند وعدي وقد أوشكت على الانتهاء من إعداد القائمة، وكعقاب لي على تأخّري سأكافئه بأن أهدي إليه أي كتاب يطلب، فسألني بعد مرور لحظات:

- أي كتاب أستاذي حتى لو كان بثلاثة أجزاء مثلاً؟

- أي كتاب.. فقط اطلب.

وعاد يتمهّل لحظات قبل أن أسمع صوته:

- إنه كتاب برتراند رسل "تاريخ الفلسفة الغربية".

- سيكون عندك يوم الجمعة ومعه كتابه الآخر الأحدث عن تاريخ الفلسفة وهو "حكمة الغرب" بمجلديه الاثنين.

- يا لكرمك الحاتمي!... سأنتظر بلهفة حلول يوم الجمعة.

والتقينا صباح يوم الجمعة في مقهى "حسن عجمي"؛ إذ لم أكد أدخل حتى وثب من أحد التخوت لينقضّ عليّ معانقاً إيّاي.

- حمداً لله؛ يبدو أنك لم تنسني.

قالها وهو يتسلّم ملهوفاً الكيس البلاستيكي الذي كنت أحمله معي ليهملني بعدها وقد جلسنا على أحد التخوت؛ إذ انصرف إلى تصفّح أجزاء الكتابين اللذين سبق لي أن وعدته بهما، حتى إذا ما قدم زاهد اضطر إلى أن يضع ما بين يديه جانباً ليعدل نظارتيه ويولينا اهتمامه.

- شأني مع الكتب مثل "المطيرجي"؛ لا يهدأ لي بال حتى أمتلك الكتاب الذي شغفت به.

علّق رجب مبتسماً. وتابع بعدما أوقد سيجارة استلّها من علبتها القابعة في حقيبته الصغيرة:

- والغريب أنني قد أهمل بعدها ذلك الكتاب؛ فوقتي أضيق من أن أبدده في القراءة.

- يبدو أنك تمتلك مكتبة فلسفية تحسد عليها.

خاطبه زاهد في نيّة واضحة لتحريضه على مواصلة الكلام، فأكّد رجب ذلك، لكنه استدرك من فوره:

- ولكن أين هي مكتبتي تلك؟ مبعثرة ورائي في عشرات الأماكن: ففي كل بيت من بيوت أقاربي وأصدقائي ومعارفي تجد ركناً يضم عدداً من كتب مكتبتي!

- ولماذا لا تجمعها في بيتك؟

عاد زاهد يسأله سؤالاً استفزازياً هذه المرة، لكن رجب سارع يجيبه بعدما رمقه بنظرة ساخرة:

- من المؤكد أستاذي أنك تعلم أنه لا بيت لي؛ فاستعلامات الشماعية زوّدتكما بالمعلومات الوافية عني!

واستطرد مخاطباً إياي بعد نجاحه في إرباكنا:

- بلّغوني أنك تبحث عني، وزوّدوني بعنوانك ورقم هاتفك. وها أنا الآن في خدمتك.

- ولا شك أنهم بلّغوك بغرضي من سؤالي عنك.

أجبته مجارياً إياه في طريقته في الكلام، فهز رأسه مؤيداً. وقال بعدما نبش في حقيبته ليستلّ منها ورقة يبدو أنه دوّن فيها أمراً ما:

- نعم.. قالوا إنك تبحث عن نزيل في الشماعية اسمه نديم إسكندر بيك.

تأمّلته بحيرة وقد أحبطتني طريقته في تذكّر اسم نديم؛ فهل استعانته بورقة لتذكّر ذلك الاسم تعني أنه لم يكن على صلة به؟ لكنني سرعان ما أبعدت هذه الفكرة المكدّرة؛ فالرجل محتال يسعى جهده إلى إثارة اهتمامي أطول مدة ممكنة كما يبدو!

- هو نفسه.. وأكّدوا أنه من المحال ألا تكون قد التقيته.

قلتها محاولاً إفحامه، فأجابني وهو يبتسم عن أسنان صفر:

- قد أكون التقيته أستاذي أو.. لا أكون؛ فذاكرتي تخونني أحياناً لفرط ازدحامها بأسماء الأصدقاء والمعارف.

- ما رأيك إذن لو التقينا مساء اليوم في نادي اتحاد الأدباء لتستعين بما ينشّط لك ذاكرتك؟

بادره زاهد بهذا الاقتراح، فوافق دون تردد وقد أغرق في ضحكة صاخبة.

***

كانت الشمس قد غربت وشرعت مكبّرات مئذنة جامع قريب في رفع الأذان لحظة دخولنا مبنى اتحاد الأدباء. كنت متلهفاً للقاء رجب عاقداً العزم، هذه المرة، على حسم الأمر معه وانتزاع ما يعرفه عن نديم ولو قسراً؛ فقد عيل صبري، ولم أعد أطيق المزيد من التسويف والتهرّب؛ فما يهمني يتمثّل بمعرفة حقيقة علاقته بنديم، وهل هو لا يزال حياً يرزق؟ لأسعى بعدها إلى معرفة مصير دفتره المشؤوم.

- لماذا أنت اليوم في عجلة من أمرك؟

سألني زاهد وهو يسير في أعقابي، فلم أجبه إنما اتخذت سبيلي نحو القسم الخلفي للاتحاد مجيلاً نظرة سخط على الموائد الموزّعة في أرجاء الحديقة الواسعة حيث بكّر عدد محدود من الرواد بالقدوم.

- أيعقل ذلك؟

- يعقل ماذا؟

- تخلّف ابن العاهرة رجب عن الحضور حتى الآن!

أجبت زاهد وأنا أسبقه في اختيار مائدة تقع قرب السور الجانبي تحت أغصان شجرة رمان مثقلة بثمار خضر لم تنضج بعد.

- لا تستغرب لو أنني ارتكبت الليلة جريمة قتل!

- جريمة قتل تحت أغصان شجرة الرمان.

قالها زاهد ضاحكاً، ليتابع بجد حال جلوسنا:

- إياك من الانسياق للغضب؛ فمن الواضح أنه يتقصّد التأخير ليباغتنا بحضوره ونحن ثملان. فنن شربك الليلة ما في وسعك ذلك.

وعملت بنصيحته؛ فطلبت من النادل، الذي هرع إلى مائدتنا، إسعافنا بقنينتي بيرة مع مجموعة مقبّلات لأنصرف بعدها إلى مراقبة الموائد وهي تستقبل روّادها المعهودين. وعلّق زاهد متهكماً وهو يراقب ياسر وصاحبيه ناظم وعبد القادر وقد تحلّقوا حول مائدة قريبة:

- ألم يسبق لي التنبؤ بأن ياسر كالحرباء سيتدبّر أمره مع الحصار؟ تفضّل ولاحظ النادل وهو يتوّج مائدته بقنينة ويسكي!

وكانت ضجة الحضور قد أخذت تتعالى بمرور الوقت وتوافد العديدين، بيد أن قهقهات ناظم ظلت أعلاها وقعاً حتى أنني لم أستطع الامتناع عن إطلاق شتيمة مقذعة بحقه، فسألني زاهد عن جريرة الرجل؟ فأجبته وأنا ألتقط ورقة سقطت وسط كأسي:

- ألا ترى أوراق الرمان تتساقط بفعل قهقهاته الهائلة؟

- يبدو أنك الليلة فعلاً بصدد اقتراف جريمة قتل!

وكان قد مرّ أكثر من ساعة على حضورنا كدنا خلالها نيأس لحظة فوجئنا برجب (يشرّفنا) بقدومه ليبادر من فوره إلى اختطاف إحدى قناني البيرة دون استئذان وهو يقول:

- معذرة لتأخّري؛ فقد قطعت المسافة الممتدة بين الأكاديمية والاتحاد مشياً على قدميّ. ولكن لا عليكما؛ سأحرص على اللحاق بكما.

وأجهز دون توقف على نصف القنينة؛ فأثنى زاهد على قابليته في الشرب مسمّياً إياه بـ(سكّير عتيق)!

- لم تسألاني عن سبب قطعي هذه المسافة المديدة مشياً؟

تساءل رجب ماسحاً فمه بظاهر كفه ليسترسل بعدها في الحديث عن الأفكار الفلسفية التي تتلاحق في ذهنه أثناء المشي محاولاً جهده تجاوز ثنائية الذات والموضوع وذلك سعياً منه إلى تعليق الأحكام المسبقة التي تنشأ عادة بسبب الانسياق للموقف الطبيعي الساذج وصولاً إلى

(الماهيات)، وكيف يحصل ذلك؟ بوضع الوقائع الخارجية بين قوسين عن طريق (الإبوخِيه) كما تسمى في المنهج الفينو مينو لوجي!

كنت أصغي إليه وأنا أغالب رغبة قاهرة بأن أزيّن الليلة عينه الثانية بوحمة محترمة تناسب وحمته الموروثة لولا أنني فوجئت بزاهد يركل ساقي من تحت المائدة محذّراً إيّاي من الانفجار!

- ما رأيك صديقي لو أنك تعمد الليلة – وإكراماً لنا – إلى وضع كل هذه الأمور بين قوسين والاقتصار على مكاشفتنا بمصير نديم إسكندر بيك؟

- نعم أستاذي .. ذلك ما أنا بصدد التحدث عنه.

أجابني رجب ليعمد بعدها إلى الإجهاز على ما تبقى في القنينة منتقلاً بعدها إلى صحون المقبّلات ليشملها دون استثناء ببركاته!

- نعم.. ذلك هو سبب مقدمي.

عاد رجب يكرر كلامه وقد استلّ سيجارة من حقيبته لينصرف لحظات إلى تدخينها.

- وما منعني عن مكاشفتكما بما أعرفه عنه هو جهلي بمصيره الآن!

وامتدت كفي بحركة تلقائية نحو إحدى القناني الفارغة. وتخيّلتُ سماع صليل الزجاج المهشّم لحظة أنهال بالقنينة على هذا الرأس الذي غطى الشيب عارضيه، والصمت الذي يعقب ذلك، ومنظر الدم وهو يختلط باحمرار الوحمة لتتساقط قطرات منه على المائدة!

- هل تعني أنك تجهل مصير نديم؟

سأله زاهد مستنكراً، فأجابه رجب بنبرة غير واثقة:

- تقريباً...

- تقريباً؟ يفترض بك أنك تعرف ذلك أو لا.. وفي هذه الحالة لا معنى لكلمة (تقريباً)!

صحتُ به وقد تلاشت نشوة البيرة من رأسي دفعة واحدة، فأجابني وهو يربت على كفي مهدّئاً:

- اهدأ.. اهدأ أستاذي؛ سأوضّح لك الأمر بأدق تفاصيله المملّة.

وراقبته متحفّزاً وهو يشرب ويلتهم صنوف المقبّلات ويجهز على سيجارته قبل أن يتكلم:

- لم أصادق نديم إلا في الفترة الأخيرة التي سبقت نشوب الحرب؛ فقبلها كنت أراه بشكل عابر في مروري بالمستشفى لتلقّي العلاج، وما منعني من التقرّب إليه يعود لتحفّظه الدائم وعزوفه عن مخالطة النزلاء الآخرين، فضلاً عن أن صديقه الوحيد لم يكن سوى غريمي النحس عيسى.. عيسى (أبو عيون جريئه).

- أهو عيسى صديقه القديم نفسه؟

قاطعته متسائلاً، فأجابني وهو يضحك:

- هو نفسه، وللقبه هذا حكاية سأرويها في الوقت المناسب.

ومضى يحدثنا عن صداقة نديم القديمة لعيسى والتي تعود لعقود خلت حينما قضى شهوراً في الشماعية حيث اشتهر آنذاك بأمرين: نفورِهِ من مخالطة الآخرين وسخائِهِ؛ فقد كانت النقود تجري بين يديه جريان الماء؛ فكان عيسى يحرص على التقرّب إليه وتفقّد أحواله ليس حباً به بطبيعة الحال، بل سعياً منه للحصول على النقود؛ إذ كان يعمل جهده على استثمار تلك الصداقة على أفضل وجه!

- على هذا المنوال مضت علاقة الرجلين ببعضهما حتى بعد خروجهما من الشماعية: لا يكاد نديم يقدم إلى بغداد لأمر ما حتى يستضيفه عيسى في بيته طوال فترة مكوثه في بغداد.

واستطرد رجب في حديثه عقب هدنة قام خلالها بجولة جديدة شملت المائدة طولاً وعرضاً:

- ولم يفوّت عيسى الفترة الأخيرة التي أدخل فيها نديم مجدداً إلى الشماعية على أثر محاولته الانتحار؛ فقد حرص على معاودة سيرته السابقة بتفقّد أحوال صديقه القديم وذلك بالسعي إلى أن يزوره مشاركاً إياه في ذرع المستشفى مطوّلاً دون أن يتبادلا كلمة واحدة!

وتابع مستدركاً:

- علمتُ بكل هذه الأمور من عيسى نفسه، وكنت أدأب على مناكدته؛ فأسأله عن الحِكَم التي يخرج بها من ذرعه المستشفى بصحبة نديم بيك؟ فكان يجيبني وهو يكاد يفترسني بعينيه المخيفتين: تغنيك حِكَمك الغبية التي يطفح بها رأسك الأبله عن حكمنا نحن!

وقهقه رجب مستمتعاً قبل أن يستطرد في الكلام:

- آنذاك توثّقت علاقتي بنديم وذلك بمبادرة منه؛ فقد أوقفني ذات يوم في حديقة المستشفى ليسألني عن حقيقة ما يشاع عن كوني فيلسوفاً؟ وحينما أجبته أنني محب للحكمة، سألني مستنكراً: ولكن ألا يُقال إن الفلسفة تورث الجنون؟ فكان ردي: لذلك تراني لا أكفّ عن مراجعة عيادة المستشفى الخارجية بشكل دوري لتلقّي العلاج. ويبدو أن جوابي نال رضاه؛ فمنذ ذلك اليوم أخذ يبدي الحرص على ملازمتي إياه كما كان شأنه مع عيسى: يواصل التجوال معي في أرجاء المستشفى محذراً إياي من أننا مقبلون على أمر بالغ الجسامة!

قاطعته ضاحكاً:

- يبدو أنه الأمر نفسه الذي حذرني منه حينما التقيته قبل نشوب الحرب.

- كأني به كان مرتعباً مما نحن مقبلون عليه من مصير كارثي!

أجابني رجب ليسترسل بعدها معترفاً بأنه أسهم في ترسيخ ذلك الرعب لديه عوضاً من أن يحاول تبديده؛ فقد حدّثه عن شواهد تاريخية تؤيد ما يذهب إليه: مثل ما حصل قديماً في أحد البلدان حينما أصيب المئات بحمى الرقص؛ فظلوا يرقصون دون توقف عدة أيام مما تسبب

بإصابة عدد منهم بأزمات قلبية تسببت بوفاتهم، أو مثل انتشار حالات ضحك دون توقّف انتهت بإغماء المصابين بها، أو مثل حالات جنون جماعي أصابت المئات، أو حالات هستيريا جماعية حصلت في بعض البلدان في أوقات الأزمات والمحن والحروب مثل هستيريا رؤية أطباق طائرة أو قدوم رجال من بعض الكواكب في حملات خفية لغزو الأرض!

- وما الذي حصل له عند اشتعال الحرب؟

قاطعه زاهد بنفاد صبر، فأجابه رجب بعد لحظات صمت بدا خلالها كأنه يستجمع أفكاره:

- نعم أستاذي "هنا مربط الفَرَس": فقد تلاحقت المآسي في المستشفى حتى باتت حياة النزلاء مستحيلة؛ إذ إن أغلب المنتسبين تخلّفوا عن الحضور منذ اليوم الأول لنشوب الحرب لأسباب عديدة أبرزها استحالة الحصول على واسطة للنقل؛ فكان على الأطباء المقيمين وعلى مساعديهم وعدد محدود من المنتسبين، الذين قدموا لقرب بيوتهم، أن يمارسوا ما اعتاد الغائبون ممارسته، ليتبينوا صعوبة المهمة ولا سيما حينما لم تصل الأرزاق؛ فاستحالت عليهم إدارة شؤون المطبخ في مستشفى بلغ عدد نزلائه أكثر من ألف نزيل .. وحلّت الكارثة بانقطاع الماء والكهرباء حتى اضطر النزلاء إلى اللجوء إلى برك المياه الملوثة الراكدة لإرواء عطشهم... وكانت ثلاجة المستشفى الخاصة بالجثث قد امتلأت عن آخرها؛ فأخذت تلك الجثث بالانفجار داخل الثلاجة لعدم وجود الكهرباء؛ ففاضت أرض تلك الردهة بمزيج من الدم والقيح تصاعدت معها روائح لا تطاق؛ فلجأ من تبقى من العاملين إلى دفن الضحايا الجدد في الحديقة...

واستدرك رجب وهو يتنقّل بعينيه بيننا:

- حينها كنت أمرّ بالمستشفى بشكل يومي لا لشيء سوى تفقّد أحوال نديم بيك...

- هكذا!.. كنت تتفقد أحواله لوجه الله؟!

قاطعه زاهد متهكّماً، فأجابه رجب ضاحكاً:

- لم تكن بي حاجة إلى مداهنته بأية طريقة سعياً مني لابتزازه كما تتوهم أستاذ زاهد؛ ذلك لأنه كان سخيّاً معي: يمدّني بما تجود به يداه دون أن أسأله ذلك.

واستطرد رجب في الكلام فتحدّث عن ذلك اليوم الذي شكّل فيه أطباء المستشفى لجنة للنظر في كيفية إيجاد مخرج لمحنة مئات النزلاء؛ فكان قرارهم ترك حرية الاختيار لهم بين البقاء في المستشفى أو مغادرته قبل أن يموتوا جوعاً؛ فاختار أغلبهم الخروج؛ فكان منظراً عجيباً منظرهم وهم يتدفقون بدشاديشهم المقلّمة إلى الشوارع بالعشرات!

وكان رجب قد هرع إلى المستشفى على أثر سماعه بذلك القرار، ولبث واقفاً عند البوابة مراقباً حشد الخارجين متوقّعاً رؤية نديم بيك بينهم، وصادف أن التقى واحداً ممن يشاركون نديم في الردهة نفسها، فسأله عنه، فأجابه هذا وهو يشير بسبابته إلى المستشفى:

- إنه مرابط هناك في الردهة، يرفض مغادرتها!

- ولماذا يرفض المغادرة؟

فأجابه بعدما رمقه بنظرة استنكار:

- لماذا يرفض؟ لأنه مجنون!

فلم يجد رجب مفراً من دخول المستشفى والتوجّه إلى تلك الردهة حيث رأى نديم جالساً على طرف سريره محتضناً حقيبته. فسأله عما يبقيه هناك؟ فأجابه نديم أنه في انتظار قدوم عيسى ليصطحبه إلى بيته، فعاد رجب يسأله عما يجعله يطمئن إلى أن عيسى سيهبّ لمساعدته؟ ألا يحتمل أنه يجهل ما حصل ذلك اليوم في المستشفى؟ وتناول الحقيبة منه مطمئناً إياه أنه سيرافقه بنفسه إلى بيت عيسى.

وانشغل رجب بصب كأس جديدة ما كاد يجهز عليها حتى فاجأنا بقوله:

- وهكذا تنتهي حكايتي مع نديم بيك: ففي اللحظة التي أوصلته فيها إلى بيت عيسى أطبق (أبو عيون جريئه) الباب في وجهي فلم أسمع بعدها عنه أي شيء!

وتبادلتُ مع زاهد نظرة سريعة قبل أن أسأل رجب:

- أيعقل ذلك؟ ألم تزره في بيت عيسى طوال الشهور الماضية؟!

- لا طبعاً لم أزره.. كيف أجازف بالقيام بذلك وعيسى لن يسمح لي بالدنو من بيته فكيف السماح بدخوله؟

- وما سبب هذا العداء؟

سأله زاهد مستنكراً، فأجابه رجب وهو يضحك:

- يعود سبب ذلك أستاذي لتبسّطي معه في الحديث ذات يوم – وكان قد دعاني إلى بيته - فجازفت بسؤاله عن سر إطلاق لقب (أبو عيون جريئه) عليه!

- وما كان رده؟

- طردني شر طردة منهياً بذلك صداقة جمعتني به منذ تعرّفي إليه في زياراتي العابرة إلى المستشفى.

وتابع وهو يتنقّل بعينيه بيننا:

- بيد أن ذلك حفّزني على البحث والتقصي عن سبب إطلاق تلك التسمية الغريبة عليه؛ فعرفت بعد جهد أن ذلك يعود إلى أن إحدى جاراته ضبطته، ذات يوم، وهو يتلصص عليها من خلال السياج الذي يفصل سطح بيتها عن سطح بيته؛ فعمدت إلى فضحه أمام الجيران، وصادف أثناء روايتها لما حدث، أن المذياع كان يبث أغنية عبد الحليم حافظ (قولولو الحقيقه)، فعمد الجيران إلى تلقيب عيسى منذ ذلك اليوم بـ(أبو عيون جريئه)!

ولم أملك إلا أن أنفجر مقهقهاً برغم خيبة أملي. ضحكنا طويلاً على طريقة الثملين حينما يتحكّم بهم موقف طريف.

اتفقنا، قبل أن نفترق، على اللقاء صباح اليوم التالي في المقهى ليرشدنا رجب إلى بيت عيسى. قال لحظة الوداع:

- سأكتفي بإرشادكما إلى باب بيته الأزرق لأولّي بعدها هارباً خوفاً من أن يبطش بي (أبو عيون جريئه).

(عين الشيطان)

حينما عاد نديم إلى البيت سمع الساعة الجدارية تدقّ معلنة انتصاف النهار.

- ما بك؟ لماذا وجهك بهذا الشحوب؟ هل تعاركتَ مع أحد؟

سألته أمه وقد زوت ما بين حاجبيها، متفحصة وجهه بقلق. لم يجبها، إنما بقي يبادلها نظرة شاردة ليتركها متخذاً سبيله نحو غرفته حيث أطبق الباب وراءه. شغّل المروحة السقفية. وبعدما استبدل ملابسه وارتدى دشداشته جلس على طرف سريره، وانشغل لحظات بتقليب الكتب المركونة على الطاولة القريبة؛ فطالعته رواية "المرابية العجوز".

تُرى في أي سجن من سجون العراق أودع فريد عمران بعد اقتياده مخفوراً من مدينة بدرة على أثر حادثة السينما السيّارة؟

فكّر وهو يتصفّح الرواية لحظات قبل أن يتركها فوق الكتب ويلجأ إلى فراشه ليستغرق من فوره في النوم.

استيقظ وقد خيّم الظلام، فتحسس بقدميه الأرض باحثاً عن خفّيه. وتتبع بسمعه ضجة أمه القادمة من المطبخ حيث استقبلته رائحة طعام شهيّة ذكّرته بمبلغ جوعه. كانت أمه منهمكة، وسط قدورها، في إعداد العشاء، حتى إذا ما تنبهت إليه داخلاً عادت تدقق في وجهه النظر، سائلة إياه مجدداً عما به.

- كما خمّنتُ يا أمي: إنها عاهرة دون شك، ذلك ما تأكدتُ منه اليوم.

فسألته مستنكرة:

- من التي تعنيها بهذه الألفاظ النابية؟

- ومن تكون غير تلك الحولاء هاجر؟

ومضى يحدثها باختصار عن لقائه إياها، وكيف أنها جعلته، بسلاطة لسانها، موضع ضحك عدد من النساء والأطفال التافهين.

- كان عليك تجنّب لقاء على هذه الشاكلة. ما لك ولها يا ولدي؟ دعها وشأنها وانصرف إلى شؤونك.

- محال.. لن أسامحها على إذلالها إياي وسط هؤلاء القرود، وقبلها لن أغفر لها أنها كانت السبب الحقيقي لكل ما حصل بيني وبين أبي بدءاً بتلك المشادّة التي نشبت بسبب ذكري إياها في الدفتر مقترناً بذكر أمها التي أنت خير من تعرفينها، مروراً بهربي إلى مهران وانتهاء بإصابة أبي بشلل نصفي واحتمال...

وقطع كلامه معاوداً مبادلة أمه النظر مفكّراً بهول ما هو قادم: تُرى كيف سيتصرف في حالة موت أبيه المتوقع؟ ومن سيكون المسؤول عن ذلك حين حصوله: هو أم هاجر؟

منذ ذلك اليوم باتت هاجر كابوس نديم اليومي: ينام ويصحو وهو يفكر بها متخيّلاً إياها عائدة من الكلال محمّلة بغسيلها لتسدد ركلة من قدمها إلى باب بيتها حيث تختفي هناك لتعاود الظهور بعد لحظات فتعمد – وسط ترقّب مجموعة من النساء والأطفال اعتادت الاستمتاع بتهريجها كما يبدو – إلى التحديق فيه بعينها الحولاء لتسحب بعدها رباط لباسها الداخلي وتطلقه بتلك الطريقة المستهترة التي تجعل الأفواه كلها تصهل بضحك جماعي!

- كان يُفترض بي إيقافها عند حدّها لا الاكتفاء بالتطلّع إليها ببلاهة وسط ضجة الضحكات!

كان يقرّع نفسه بحرقة مردداً هذه الكلمات. ووجد في دفتره خير وسيلة للتنفيس عن حقده الدفين نحو هاجر؛ فانكبّ عليه - كما كان شأنه في تلك الأيام التي اعتاد فيها تتبع أخبار المنتحرين والمجانين والنساء المشبوهات وجرائم القتل – فأضاف إليه صفحات جديدة خصصها لهاجر وحدها: سر مولدها، والشكوك التي حامت حول أمها، وقلة حيائها متمثلة بسلاطة لسانها، وعدم تهيّبها من مجابهة الرجال. كما لم ينسَ التطرّق إلى لغز حَوَل إحدى عينيها بشكل يبعث على الخوف: إذ لا يبعد أن يكون الشيطان قد تقمّص روح هذه المرأة الشريرة!!

- نعم.. من المؤكد أن الشيطان قد تقمّص روحها!!

أخذ يكرر هذه الجملة مأخوذاً قبل أن يستأنف الكتابة متطرقاً، هذه المرة، إلى ما عرف عن إبليس دينياً وتاريخياً بدءاً بتحريضه على اقتطاف الثمرة المحرّمة التي أغوت حواء بدورها آدم على مشاركتها فيها، مروراً بكل مآسي الأرض، انتهاء بمحنته هو مع هذه المرأة!

بيد أن ما كتبه في الدفتر لم يشفِ غليله؛ ففكر بضرورة رد الاعتبار إلى نفسه وذلك بالذهاب مجدداً إلى ذلك الزقاق لا لشيء سوى إهانة هاجر بأية وسيلة ممكنة وليحدث بعدها ما يحدث. وقد عمد، ضحى ذات يوم، إلى تنفيذ الفكرة؛ فغادر البيت وسار جنوباً وهو يعدّ في سره أكثر الكلمات البذيئة إيلاماً التي سيجلد بها سمع هاجر. لكنه لم يكد يصل إلى وادي الكلال حتى هدأت ثائرته بعض الشيء، فاستدار شرقاً مواكباً ذلك الشريط الترابي الضيق الذي مهّدته الأقدام والذي قاده إلى الموضع الذي سبق لوالده أن لفت انتباهه إلى هاجر حين خرجا بالعربة الخاصة بالمعاقين لأجل التنزّه؛ فرابط على الجرف الشمالي للوادي قبالة تلك المخاضة دون أن يغادر بعينيه الجرف الجنوبي البعيد في انتظار قدوم هاجر التي سرعان ما ظهرت بطولها الفارع متلفّعة بعباءتها المعهودة محمّلة بصينيتها. ولم يكد يمر بعض الوقت حتى التحقت بها أخريات.

- تُرى بماذا تثرثر هذه العاهرة وسط هاتيك النسوة المنصرفات إلى جلي أوانيهن البائسة؟

تساءل نديم وهو يفكر بكيفية الدنو من (غريمته) تلك ليسمع ما تقول دون أن يلفت انتباهها؛ وهكذا تزوّد، في اليوم التالي، بشصّ وتوجّه إلى هناك ليهبط من الجرف المرتفع نحو بطن الوادي المفروش بالحصى والرمال كاتماً صرخة ألم كادت تفلت منه بسبب شظيّة صخرة ناتئة جرحتْ إحدى ساقيه؛ فتحامل على ألمه وهو يستدير حول المخاضة الخضراء العميقة ليقرفص متخفّياً، في الجانب الآخر منها، وسط شجيرات الطرفاء التي تنمو عادة بكثافة قرب المياه.

أزاح طرف دشداشته جانباً كاشفاً عن موضع الألم، فلاحظ خيط دم كان لا يزال ينحدر ببطء شديد خلال شعيرات ساقه؛ فاغترف الماء بكفه غاسلاً إياه لينصرف بعدها إلى الشصّ؛ فزوّده بالطعم وألقى به في الماء. ولبث يراقب الخيط الذي بين يديه، شأنه شأن أي صيّاد سمك، متتبعاً بنظره الدوائر التي أثارتها حركته على سطح المياه وهي تتسع قبل أن تتلاشى بهدوء.

وسرعان ما قدمت هاجر لتعقبها زميلاتها حيث ارتفع لغطهن خلف شجيرات الطرفاء وسط انهماكهن بغسل ما بين أيديهنّ. وكانت هاجر أكثرهن ثرثرة: لا تكاد تتوقف عن الكلام. وبرغم أن نديم لم يكن يفقه مغزى ما تقول، بسبب بُعد المسافة، إلا أنه لاحظ أن رد فعل الأخريات على كل ما كانت تتفوه به يتمثّل بضحكات صاخبة.

- إنها مهرّجة عريقة!

همس بها في اللحظة نفسها التي شعر فيها بتوتّر خيط الشص المستقر في كفه؛ فسارع بسحبه ليكتشف خائباً أن ما اصطاده لم يكن سوى سمكة جرّي برأس مثل رأس جرو وفم واسع يحف به شاربان يبعث منظرهما على الاشمئزاز!

عاد إلى البيت؛ فقضى دقائق باحثاً عما يطهّر به جرحه، وحينما أعياه الأمر اضطر إلى الاستعانة بأمه التي سرعان ما جاءته بقنينة أخذت تسكب منها على جرحه، سائلة إياه عما جرى؟ فأجابها مبتسماً وهو يغالب الألم الذي سبّبته له المادة المطهّرة:

- ذلك هو عاقبة كل من يحاول الدنو من الشيطان!!

فسألته وهي في حيرة من مغزى كلامه:

- وكيف تأتى لك لقاء الشيطان؟ أحلمت بذلك؟

- لا.. بل التقيته مجسّداً بشخص هاجر!

فعلّقت أمه مستنكرة:

- كأني بك اليوم تهذي يا نديم!

وتابعت وهي تعود بالقنينة إلى مطبخها ونديم يسير في أعقابها:

- أنسيتَ ما سببته لأبيك من ألم وما ترتّب على ذلك من مآسٍ لمحض التطرّق إلى ذكر هذه المرأة وذكر أمها في دفترك؟

واستدركت بنفاد صبر:

- ثم ألم أروِ لك قصة فردوس بتفاصيلها منذ عملها خادمة في بيت أبيك حتى صرفها بسبب ما حصل بينها وبين البيك إلى لحظة ولادتها لابنتها اللعنة هاجر هذه؟!

فردّ نديم بتصميم:

- ستبقى هذه العاهرة عار الأسرة الذي لا بد من محوه، ستبقى مسؤولة عما جرى لأبي؛ والويل لها إن حصل و... الويل لها من ذلك اليوم!

- نديم.. ما الذي دهاك؟ لماذا لا تكف عن ملاحقة هذه المرأة؟

فاندفع نديم مغادراً المطبخ وهو يصرخ بأعلى صوته:

- ذلك لأن الشيطان تقمّص روحها؛ فلا مفرّ لي من الاقتصاص منها بنفسي!!

- كيف تصرخ بهذا الشكل وأبوك مريض؟ أنسيت ذلك؟

قرّعته أمه وهي تنطلق مهرولة نحو غرفة أبيه، فسار في أعقابها ليقف عند باب الغرفة محاذراً الدخول، مراقباً أمه وقد انحنت فوق أبيه المضطجع في سريره لتقفل بعدها خارجة بوجه انحسرت الدماء عنه:

- أسرعْ في استدعاء الدكتور قسطنطين!

صاحت به آمرة. وتطلّب الأمر مرور أكثر من ساعة قبل أن يفلح الطبيب في التحرر من مهامه الوظيفية ويغادر المستشفى ليقدم إلى بيت إسكندر بيك حيث دخل غرفة المريض تاركاً نديم يواصل ذرع الأرض أمام باب الغرفة.

على هذا المنوال مرّ أسبوع كامل اعتاد الطبيب خلاله تفقّد حالة أبيه بشكل يومي. وكان نديم يحرص، في كل زيارة للطبيب، على البقاء عند باب الغرفة متجنّباً الدخول وهو يردد في سره:

- بانفتاح هذ الباب سيتقرر مصيري: أما الاستمرار في الحياة على غرار ما سلف، أو...

وكان الباب ينفتح في كل يوم على وجه الطبيب المستبشر إلى أن حلّ يوم رأى نديم فيه الطبيب يغادر الغرفة بسحنة عابسة وقد مدّ نحوه يده اليمنى كأنه يبغي مصافحته؛ فخامرته فكرة مفاجئة:

- مات أبي!!

وظلّت الفكرة تدوّي في رأسه وهو يتطلع إلى شفتي الطبيب تنفرجان وتنطبقان بكلمات لم يفقه منها شيئاً؛ ذلك لأنه تنبّه إلى صرخة مهولة تتجمّع في صدره وهو يحاول عبثاً كبحها، لكنه لم يفلح: فقد انطلقت ثاقبة كأن مطلقها شخص آخر لا هو.. ومعها ساد الظلام!!

***

انتبه من نومه على ضجة عصافير، ففتح عينيه ليعاود إغماضهما بسبب ضوء النهار الساطع. حتى إذا ما مرت لحظات عاود فتحهما على مهل ليكتشف أنه مضطجع على سرير في قاعة توزّع فيها عدد من الأسرّة المشابهة لسريره ببياضها باستثناء خلوّها ممن يشغلها.

- من الذي أتى به إلى هنا؟ وكيف؟ ومتى؟

أسئلة تلاحقت في ذهنه دون أن يقع على أجوبة لها؛ فما كان يشغله في تلك اللحظة هو هذا الشعور الساحق بالحزن المقترن برغبة قاهرة في البكاء، حزن على حدوث خسارة لن تعوّض، أما ما هي تلك الخسارة؟ فذلك ما كان يجهله.

حاول جاهداً أن يتذكّر ما جرى له، ولكن عبثاً؛ فقد بقي الانطباع المهيمن على تفكيره يتمثّل بهذا الحزن القاهر.

وذكّرته زقزقة العصافير المتطايرة في الجانب الآخر من نافذة واسعة مفتوحة على حديقة أن الوقت صباح، ومن خلف الباب الموارب كانت تأتيه أصوات رجال يتبادلون الكلام.

وانفتح ذلك الباب على قامة رجل عملاق أصلع، تقدّم منه يسبقه كرشه، يسير في أعقابه رجل ضئيل الحجم. ابتسم له العملاق وسأله بلغة عربية مشوهة:

- كيف أنت الآن نديم بيك؟

واستدرك وقد أمسك برسغه ليعدّ نبضه كما يبدو:

- لا تجهد نفسك بالتفكير عمن أكون؛ فمن طبيعة نوبات الصرع الإجهاز على ذاكرة المريض مؤقتاً والتسبّب في انقطاع مجرى التسلسل المنطقي في أفكاره. أنا طبيبك قسطنطين، وهذا هو هوبه صاحب الصيدلية المتنقلة.

وعلّق هوبه الذي كان يبرز تارة من يمين الطبيب وطوراً من شماله كمن يجاهد للفت انتباهه إليه:

- لقد حملناك البارحة إلى المستشفى لتنام في سريرك كالصخر حال زرق إبرة لك كأنك لم تنم منذ دهر!

وعاد الطبيب ينصحه – تاركاً لهوبه مهمة توضيح ما تلتبس عليه من كلمات – بضرورة ملازمة سريره طوال الأيام القادمة تلافياً لحدوث نوبات صرع مفاجئة.

- وهل تتوقع تكرار ذلك بهذه السرعة دكتور؟

سأله نديم بجزع لم يفلح في إخفائه، فأجابه الطبيب وقد انصرف إلى تفحّص باطن جفني عينيه:

- نعم أتوقع ذلك؛ فقد أخذت نوباتك بالتسارع مما يدلّ أن حالتك النفسية ليست على ما يرام.

- هل يعني ذلك أنني مقبل على الجنون؟

تساءل نديم مازحاً، فتأمّله الطبيب بنظرة طويلة قبل أن يجيبه بكل جدية:

- (الناس مجانين بالضرورة، أما كونهم غير مجانين فصورة أخرى من صور الجنون).

وأوضح وقد انتقل إلى فحص لسانه:

- تلك إحدى خواطر الفيلسوف والرياضي الفرنسي باسكال.

وأبدى الطبيب مجدداً قلقه من وضعه النفسي. قال وهو يتطلّع إليه بعينين لا تطرفان:

- أنا غير ضليع بالطب النفسي لكون اختصاصي في الطب العام، بيد أن ذلك لا يحول بيني وبين إدراك أن وضعك النفسي ليس على ما يرام: ففضلاً عن داء الصرع المتوارث – وتسارع نوباته في الفترة الأخيرة – علمت مما حدّثتني به أمك أنك تشكو مما يعرف بـ(الوسواس القهري)؛ أي هناك فكرة متسلّطة عليك تتمثل بكراهيتك لإحدى النساء واتهامك إياها بأنها السبب في كل ما جرى بينك وبين أبيك.

لم يجب نديم الطبيب؛ إنما بقي يغالب شعوره بالخزي والخجل لأن أمه فضحته بإباحة أسراره الشخصية التي أئتمنها عليها.

- هل تؤمن حقاً بأن الشيطان تقمّص روح تلك المرأة؟!

فوجئ نديم بسؤال الطبيب، لكنه لم يجبه مكتفياً بالابتسام. فعاد الطبيب يؤكد مجدداً ضرورة ملازمته السرير طوال الأيام القادمة. وغادره تاركاً إياه في حيرته، في حين مدّ إليه هوبه كفه مصافحاً إياه وهو يردد بحزن:

- البقاء لله.

وأضاف مستبقاً سؤال نديم المتوقع:

- لقد توفي المرحوم والدك إسكندر بيك عصر البارحة!

ضحى اليوم التالي حملتنا سيارة أجرة إلى "مدينة الثورة" لتقف بنا عند مدخل أحد أزقة منطقة "الجوادر" حيث طلب رجب من السائق انتظاره دقائق ريثما يوصلنا إلى العنوان المنشود. وتقدّمنا خلال زقاق ضيق تشطره ساقية مياه آسنة إلى شطرين، وتتراصف على جانبيه بيوت متلاصقة تبرز من واجهاتها أجهزة تبريد.

- هذا هو بيت عيسى، وهذا بابه الأزرق كأنه باب وليّ من أولياء الله لا خرّيج شماعية بامتياز!

همس رجب محاولاً كظم ضحكة ضاقت بها حنجرته. ودنا من شبّاك يجاور الباب - بظلفتين مطبقتين صبغتا باللون الأزرق نفسه - أوضح أنه المنفذ المفضي إلى الحانوت.

- عمو عيسى.

صاح وهو يدقّ على الشبّاك ليتابع بصوت خفيض:

- اعتدت أن أطرق هذا الشبّاك كلما جئته زائراً بعدما سبق له أن نبّهني على ضرورة تجنّب طرق الباب!

وعاد يواصل الدق، حتى إذا ما ارتفع صوت من الداخل يسأل عن الطارق؟ انفجر رجب مقهقهاً وقد انطلق مهرولاً نحو مدخل الزقاق حيث السائق يقف بسيارته في انتظاره. وكانت إحدى ظلفتي الشباك قد انفتحت عن وجه جهم لرجل في حدود الستين من عمره بعينين مستسلمتين لسطوة حاجبين كثيفين.

- نعم؟

تساءل بجفاء وهو يتنقّل بعينيه بيني وبين زاهد، فسارعت بالرد:

- أرجو أن تعذرنا؛ فنحن جئناك للسؤال عن نديم إسكندر بيك.

لم يجبني، إنما بقي يتأمّلني لحظات بعينيه المخيفتين اللتين كانتا تتذبذبان في محجريهما وكأنهما مثقابان لا تنحصر مهمتهما بالنظر، بل حفر نظرتهما النقّاذة في عمق عينيّ!

- هل أنتما مبعوثان من طرف مستشفى الرشاد؟

- لا.. بل قدِمنا للسؤال عنه لا أكثر؛ فهو يمتّ لي بصلة قربى.

وشفعتُ كلامي بأن أريته صورة نديم.

- أمهلاني دقائق فقط.

كلّمني وهو يعيد لي الصورة ليطبق بعدها ظلفة الشباك بعنف. وارتفعت من الداخل ضجة أشياء تزحزح عن مواضعها، وأخرى ترفع أعقبها صليل شيء زجاجي وقد سقط وتحطّم، حتى

إذا ما مرّت دقائق صرّ باب البيت وقد انفتح حيث انتصب عيسى في مدخله ليستقبلنا بنظرات عينيه المتذبذبتين وهما ماضيتان في أداء مهمتهما في زرع نظراتهما في العمق.

- هنا.. إلى اليمين.

أرشدنا إلى غرفة كانت قد حوّلتْ إلى حانوت ضاق بالتجهيزات المنزلية وصنوف الحلويات، وثمة لعب وبالونات مدلاة من السقف. وكانت الجدران مؤطرة برفوف مثقلة بعلب السجائر والثقاب ومواد التنظيف وسواها من البضائع، وقرب باب الغرفة انتصب برّاد لا شك أنه يحتوي على صنوف المشروبات الغازية والمرطبات التي هي مقصد الأطفال عادة.

وكنت قد أفلحت في سحب كرسي من وسط فوضى عشرات الأشياء لأجلس عليه في حين جلس زاهد على كيس رز ممتلئ عن آخره.

- كل شيء جرى بالطرق الأصولية؛ ولي وثائق رسمية بذلك.

قالها عيسى وقد التقط قنينتين من البرّاد ناول كل واحد منا إحداها ليغادرنا بعدها دون استئذان، حتى إذا ما مرت دقائق عاد بحقيبة جلدية متوسطة الحجم من النوع الذي يحمل على الكتف.

- وها هي حقيبته، وتجد فيها ملابسه وكتبه.

- معذرة.. من الذي تقصده بكلامك؟

سألته وقد تفاقمت حيرتي، فأجابني بشيء من خشونة:

- ومن يكون غير قريبك نديم إسكندر بيك؟!

- وأين هو الآن؟

- وأين تريده أن يكون إلا في الموضع الذي نؤوب إليه جميعاً؟

وتركنا لحظات ليستجيب لطرقات على شباك حانوته حيث تردد صوت صبي يطلب شيئاً ما، حتى إذا ما عاد واصل الكلام وقد وقف وسط فوضى بضائعه: فتحدث عن اليوم الذي أوصل فيه رجب نديم إلى بيته فسلّمه حقيبته قبل أن يغادره، فقاد عيسى نديم إلى حانوته ملاحظاً أنه بادي الشحوب ينقّل خطواته بعسر. سأله إن كان يشكو من علّة ما؟ ففوجئ به يطلق على غير توقّع تلك الصرخة الثاقبة التي سبق له أن سمعها أكثر من مرة ليهوي بعدها بكامل ثقله حيث ارتطم جبينه بحافة واحد من صناديق المشروبات الغازية، فتفجّر الدم منه مثل نافورة!

وتابع وهو يشير إلى موضع من الحانوت:

- مددته على أريكة كانت تشغل هذا الجانب، وراقبته على مدى الدقائق التي استغرقتها النوبة، ماسحاً الزبد عن فمه قبل أن أنصرف إلى تطهير جرح جبينه. سألته، وقد عاد إليه وعيه، إن كان في وسعه النهوض لأقوده إلى إحدى غرف البيت الداخلية ليأخذ راحته كما اعتاد في زياراته السابقة؟ فأجابني أنه يسمع خفق جناحي عزرائيل من حوله، وأنه سيموت قريباً؛ فلا

فرق لديه أحدث ذلك على هذه الأريكة أم على سرير الغرفة، فطلبت منه ان يأذن لي باستدعاء طبيب لإلقاء نظرة عليه، لكنه رفض. قال إنه يتمنى أن يموت بأسرع طريقة ممكنة شريطة أن يُدفن في مقبرة مدينته، فسألته مازحاً: وكيف لي تحقيق أمنيتك هذه والحرب، كما ترى، على أشدّها؟ فلم يجبني، إنما أخذته غفوة سمعته خلالها يهذي منادياً أمه العلوية بين لحظة وأخرى، فأيقظته، فإذا به يتطلع إليّ بعينين تترقرق فيهما الدموع. وفوجئت به يناديني باسم غريب!.. من هو غريب هذا؟ لا أعلم؛ فتلك كانت أول مرة أسمعه فيها يتلفظ بهذا الاسم.

وانهمك عيسى لحظات في النبش فيما حوله قبل أن يعثر على علبة سجائر مدّها لنا، وحينما شكرناه استلّ واحدة لينشغل هذه المرة في البحث عن علبة ثقاب.

- زوّدته بمسكّنات كنتُ أحتفظ بها في البيت؛ فهدأ بعد تعاطيها. وفاجأني بأن سألني وقد بسط لي كفه: ما ظنك بهذه الأصابع يا عيسى؟ فأجبته دون تردد: عهدي بها أنها مثال للسخاء والكرم. فعاد يسألني: وغير ذلك؟ ففكرت لحظات قبل أن أقول: وهي ماهرة في صنع التماثيل... فتأملني بنظرة طويلة مردداً أغرب كلام سمعته منه حتى تلك اللحظة؛ قال بصوت لا يكاد يُسمع: ولعلها حمّلتني إثماً لا خلاص لي منه حتى آخر لحظة من حياتي!.. فبادلته النظر وأنا في حيرة من مغزى كلامه المبهم. حاولت إقناعه بتناول لقمة طعام، لكنه رفض. تركته، تلك الليلة، يغفو على الأريكة بعدما دثّرته بغطاء سميك؛ فالبرد كان قارساً. وكان الليل قد تجاوز منتصفه حينما جفلتُ من نومي على تلك الرائحة!

- هل نمتَ هنا بالقرب منه؟

قاطعته متسائلاً، فعاد يتأملني لحظات بنظرته الثاقبة مطلقاً، في الوقت نفسه، سحابة الدخان كثيفة.

- لا طبعاً.. بل نمت في غرفتي على سريري، بيد أن ذلك لم يمنعني من شمّ الرائحة: رائحة شيء يحترق؛ فما يشغلني على الدوام أن أفاجأ بمسّ كهربائي يسبّب في نشوب حريق في الحانوت يأتي على كل شيء؛ لذلك تراني أجفل مع شم أقلّ رائحة. هرعت إلى الحانوت، فذهلتُ برؤية نديم وهو يتأمل بنظرات ساهمة دفتراً ملقى على الأرض قرب الأريكة وقد سرت النار فيه فأخذت تلتهم أوراقه!.. صحت به: ما الذي دهاك؟ أتريد إحراق بيتي؟! فأجابني بأسى: وما أهمّية بيتك أو بيتي قياساً بهذا الحريق المحيط بنا من كل جانب والذي سيأتي على الأخضر واليابس؟ فقلت له وأنا أطفئ النار التي كانت قد أجهزت على العديد من أوراق الدفتر: لكنه بيتي الذي سيحترق.. هل تريد أن تجهز على مستقبلي فتعيدني إلى الشماعية من جديد؟! فأجابني وقد شرع يشهق في البكاء: لا حاجة بك للعودة إلى الشماعية يا صديقي المسكين؛ فالشماعية امتدّت وستمتدّ أكثر وأكثر لتسع كل شيء... كل شيء!

- وما الذي حصل بعد ذلك؟

سأله زاهد حاثّاً إياه على الإسراع في مواصلة الكلام، فرمقه بواحدة من نظراته وهو يتساءل مستنكراً:

- وما الذي تريد أن يحصل؟ اكتشفتُ صباح اليوم التالي أنه كان قد فارق الحياة!

- مات؟!!

صحت مع زاهد مرددين الكلمة نفسها، فأجابنا عيسى وقد قرفص قرب الحقيبة لينبش فيها:

- نعم مات؛ وها هي شهادة وفاته الرسمية الصادرة عن وزارة الصحة، وستجد فيها المعلومات التي تتعلق بذلك بأدق تفاصيلها.

تناولت منه شهادة الوفاة بأصابع راجفة لأقف بعينيّ أمام الحقل الذي يعيّن (المرض أو الحالة التي أدت إلى الوفاة مباشرة)؛ فإذا بي أقرأ: تعاطي جرعة مضاعفة من (Anafranil) الخاص بعلاج حالة (الوسواس القهري).

- ما معنى هذا؟ هل انتحر؟

صحتُ متسائلاً، فأجابني عيسى وهو يهز رأسه مؤيداً:

- ذلك ما أكّده الأطباء في مستشفى الجوادر؛ كان قد بلع حفنة من هذه الكبسولات التي كان يتعاطيها في الشماعية تحت إشراف الأطباء كعلاج له منذ محاولته السابقة للانتحار.

- وأين تم دفنه؟

- في مقبرة "محمد السكران" على طريق بعقوبة.

***

بقدر ما كانت حقيبة نديم خفيفة – إذ لا تضم في داخلها سوى ثيابه وعدد من كتبه فضلاً عن دفتره – شعرت بثقلها في روحي: ثقل الماضي بوطأته الساحقة على إنسان مثلي بقي أسير ذكريات ما انفكّت تؤرق عليه الحاضر.

وكان زاهد قد أوقف أول سيارة أجرة استجابت لإشارته، فدلفت إلى المقعد الخلفي وأنا أقول:

- يدهشني أن عيسى تنازل لي عن الحقيبة دون مقابل!

فأجاب زاهد وهو يربت على الحقيبة التي توسطتنا:

- وما أهمية الحقيبة لمن استوفى ثمن تعبه مضاعفاً؟ ذلك لأنني موقن أن نديم خلّف بعد موته ما يزيد أضعافاً مضاعفة عن تكاليف دفنه!

- فعلاً يبدو الأمر كذلك؛ إذ لا يعقل أن يفوّت عيسى فرصة استغلال صداقته لنديم ميّتاً وهو الذي اعتاد استثمارها حياً!

- لندع عيسى – ومعه رجب – جانباً؛ فالمهم الآن أنك حصلت على الدفتر: فما أنت فاعل بشأن روايتك المجهضة؟

فاجأني زاهد بذلك السؤال، فبادلته نظرة حائرة قبل أن أجيبه:

- لا أعلم!

- لا تعلم؟ كيف لا تعلم وها هي الفصول التي سبق لك تدوينها في هذا الدفتر عن سيرة نديم وقد باتت ملكك بعد موت صاحبها؟

- ألا ترى أنني بذلك قد لا أختلف في شيء عن رجب وعيسى لو استثمرت موت نديم لكتابة تلك الرواية؟

- دعك من هذه المثاليات؛ فقد سبق لنديم أن استعان بك في صياغة أحداث سيرته، فما الذي يمنعك الآن من استثمارها في كتابة روايتك؟

- نعم حدث ذلك.. ولكنْ متى؟ وهو حيّ.. فما أدرانا أنه لم يغيّر رأيه قبل موته؟

فصاح زاهد بطريقة دفعت بالسائق إلى الالتفات نحونا من خلف مقود السيارة رامقاً إيانا باستغراب:

- ألا ترى أنك تتفنن في اختلاق الحجج والأعذار التي تسوّغ لك إرجاء كتابة هذه الرواية؟

- لا.. أنا لا أسوّغ أي شيء؛ بل من الواضح أن نديم غيّر رأيه في آخر لحظات حياته: ألم يخبرنا عيسى أنه ضبطه وقد أضرم النار في دفتره؟

تأمّلني زاهد لحظات بنظرة طويلة ليشيح بعدها بوجهه عني بحركة تنمّ عن يأسه!

في البيت استقبلتني زوجتي بدهشة. سألتني وهي تتنقل بعينيها بيني وبين الحقيبة:

- ما بك؟ ومن أين أتيت بهذه الحقيبة؟

فحدّثتها بكل شيء حال جلوسي على إحدى أرائك الصالة، فعلّقت بأسى:

- لا حول ولا قوة إلا بالله؛ من الذي كان يخطر له أن يكون مصير نديم على هذه الشاكلة، وأن يُدفن، من دون أرض الله، في مقبرة "محمد السكران"؟

اتصلتُ ببتول مبلّغاً إياها بالنبأ المحزن، فمرّتْ لحظات وهي لا تحير جواباً. حتى إذا ما تكلّمتْ قالت بصراحتها المعهودة:

- لا أستطيع أن أفتعل البكاء كما يُفترض بامرأة ترمّلت حديثاً... كل ما يسعني قوله: فليرحمه الله؛ فقد أراح وارتاح.

واسيتها ببضع كلمات قبل أن أخبرها بأنني سأزورها في بدرة بأقرب فرصة لأسلّمها شهادة وفاة زوجها لتستند إليها في حسم قضية توريثها حصتها من أرث نديم رسمياً واضعة بذلك حداً لأطماع أبناء ألفت خاتون. شكرتني بحرارة معتذرة لكونها عذّبتني طوال الأسابيع الماضية. وختمت الاتصال بكلمة ترجّع صداها في ذهني بشكل غريب:

- سأنتظرك.

انفردتُ بالدفتر في مكتبتي حتى ساعة متأخرة من الليل. كان أكثر من نصفه قد احترق؛ وبذلك اختفت غالبية الصفحات التي سبق لنديم أن دوّن فيها أخبار المنتحرين والأشقياء

والمجانين وجرائم القتل والعاهرات فضلاً عن أحلامه وكوابيسه. بيد أن المهم أن فصولي العشرة كانت قد بقيت على حالها سالمة؛ فالنار انطفأت قبل أن تصل إليها بصفحات عديدة، وليس هذا فحسب؛ بل تمثّلت المفاجأة بأن نديم كان قد كتب الفصل الحادي عشر!

حسمت أمري؛ فقررت الشروع في كتابة الرواية في أقرب فرصة متخطياً بذلك التردد والإحجام اللذين سبق لي أن جابهت بهما زاهد؛ ذلك لأنه بدا من الغباء التفريط برواية لا تتطلب مني سوى لمسة هنا وأخرى هناك لتتكامل على أفضل وجه.

وفي انتظار الشروع بالعمل واصلتُ لقاءاتي زاهد يوم الجمعة في شارع المتنبي حيث سيل الناس لم يكن يكفّ عن التدفّق برغم قسوة الحصار. وكان صوت نعيم الشطري، وهو يلعلع على حين غرّة مفتتحاً مزاده الأسبوعي بترديد كلمة غاندي، يضفي على المشهد لمسة إنسانية تؤكد أن الحياة ماضية بنا برغم كل شيء. كما أن رجب - بمخيّلته الخصبة في ابتكار الوسائل التي تكفل له الحصول منا، دون مقابل، على كتاب أو "لفة فلافل" – كان مصدر ترحيبنا الدائم؛ إذ إننا لم نكن نكتفي بإيهامه بانطلاء ألاعيبه علينا، بل كنا ندعوه أحياناً إلى إحدى جلساتنا في اتحاد الأدباء حيث كان من الممتع أن نثمل ونحن نسمعه وهو يردد مفاهيمه الفينومينولوجية الموزّعة بين (الإبوخيه) و(قصدية) اتجاه الشعور نحو (الظواهر)!.. وحتى عيسى لم يكن يغيب عن جلساتنا؛ إذ كان يكفينا أن نتذكره مع ترديد مقطع من أغنية عبد الحليم حافظ (أبو عيون جريئه) حتى نغرق في ضحكات صاخبة.

وفي البيت كنت، حال انفرادي بمكتبتي، أحرص على إعادة تصفح دفتر نديم حتى كدت أحفظ ما ورد فيه عن ظهر قلب. وكنت قد اتخذت منه دليلاً في تتبع الأحداث بادئاً إياها بذلك اليوم الذي قدم فيه غريب إلى بيتي في بدرة مستدعياً إياي لزيارة سيدته بتول لأسطّر بعدها فصول سيرة نديم العشرة التي سردها على سمعي وصولاً إلى الفصل الحادي عشر الذي كان قد كتبه في الشماعية وهو يعيش آخر أيامه والذي توجّب عليّ إعادة صياغته بالأسلوب الذي ينسجم مع الفصول السابقة متوّجاً إياه بعنوان "القتل غرقاً".

(القتل غرقاً)

غادر نديم المستشفى عصراً. وفي طريقه إلى البيت اضطر إلى الوقوف أكثر من مرة متلقّياً عبارات المواساة المعهودة من أصحاب الدكاكين ومحلات البقالة وعمال المخبز وموظفي البريد وعابري السبيل الذين كانوا يندفعون نحوه، حال رؤيتهم إياه، ليعانقوه أو يصافحوه بحرارة وقد ارتسمت على وجوههم علامات الحزن والأسى.

حينما وصل إلى البيت فتحت أمه له الباب واحتضنته بصمت، فحدّق في عينيها لحظات قبل أن يتخطّاها مجتازاً الحديقة نحو الداخل، فتعقّبته وهي تقول:

- تمّ كل شيء على أحسن وجه، وتكفّل الأقارب والأصدقاء بإقامة مجلس الفاتحة في الجامع؛ فلم يكفّ الناس عن التوافد على مدى الأيام الثلاثة الماضية.

سار نحو غرفة أبيه، وفتح بابها الموارب ملقياً نظرة طويلة على الداخل، حيث بدا كل شيء على وضعه السابق: السرير المرتّب، وخزانات الكتب، والمروحة السقفية في دورانها البطيء، والمصباح المضاء. وكانت العربة الخاصة بالمعاقين مركونة جانباً وقد استقرّ في مقعدها طربوش أبيه الأحمر.

- لا تحزن يا ولدي؛ فقد رحل إلى دار البقاء.

سمع أمه تكلّمه، فخاطبها وهو يتخطى المسافة القصيرة التي تفصله عن غرفته:

- لا حاجة بك إلى تذكيري بتناول العشاء؛ إذ لا رغبة لي بذلك. سألجأ إلى فراشي؛ فدعيني أواصل النوم قدر ما أشاء.

أطبق الباب خلفه، وشغّل المروحة السقفية. اتجه نحو النافذة المطلّة على الحديقة الخلفية حيث طالعته، في ضوء الغروب الآخذ بالتلاشي، الأعشاب والنباتات الوحشية النامية هناك كيفما اتفق وثمة جدجد شرع في إرسال صوته الرتيب مبكّراً.

أسدل ستارة النافذة وأضاء المصباح الكهربائي وهو في طريقه نحو سريره الذي تهالك جالساً عليه. والتقط أول كتاب من مجموعة الكتب المركونة فوق الطاولة، فإذا به رواية "المرابية العجوز".

تصفّحها كيفما اتفق ليتوقف عند تلك الصفحة التي يتهيأ فيها راسكولنيكوف لقتل المرابية العجوز وذلك بخياطة "إبزيم" إلى بطانة معطفه ليعلّق به مقبض الساطور الذي سيقترف به جريمته.

أطبق الرواية ساخطاً مردداً بصوت خافت:

- مستحيل.. لن يسعني الاستعانة بساطور..

وتخيّل نفسه لحظة يندفع فيها من عمق المياه نحو السطح وقد أمسك بشماله بمقبض الساطور رافعاً إياه عالياً ليهبط به على ذلك الرأس!

- أيها الأعسر الأبله.. أيها الأعسر الأبله.. أيها الأعسر الأبله...

تردد صوت أبيه، في ذاكرته، وهو يزجره بقسوة لاستعماله يده اليسرى بالكتابة عوضاً عن يمناه!

مستحيل؛ لن يسعه الاستعانة بالساطور لإنجاز المهمّة!

اضطجع على سريره والرواية في يده. فتحها على الصفحة التي تلي صفحة العنوان؛ فطالعته قائمة بأسماء أهم الشخصيات. قرأها اسماً اسماً لينهمك بعدها في قراءة الفصل الأول ....

جفل من نومه على صوت أمه وهي تكلّمه جزعة:

- أيعقل أنك نمت الليل كله دون أن تتبلّغ بلقمة واحدة؟!

كانت قد دخلتِ غرفته وانحنت على الأرض ملتقطة رواية "المرابية العجوز" لتعيدها إلى كتب الطاولة.

- هل أنت مريض؟

سألته لتتابع متأمّلة وجهه عن كثب:

- لماذا عيناك محمرّتان بهذا الشكل؟ كأنهما بركتان من دم!!

- لعل ذلك يعود لمواصلتي القراءة حتى آذان الفجر.

أجابها متلمّساً بأنامله جفنيه، فغادرته وهي تقول:

- سأنتظرك في المطبخ.. اعددتُ لك وجبة فطور لا تفوّتُ.

تعقّبها بعد دقائق مخاطباً إياها وقد وقف على عتبة المطبخ:

- سأخرج لأمر طارئ.

- والفطور؟

وترددت دقات ساعة غرفة الاستقبال. كانت التاسعة. لقد تأخر كثيراً.

اندفع مجتازاً ممر الحديقة الإسمنتي تتعقبه أمه بسؤالها المحيّر:

- أي أمر يستدعي خروجك ولم يمضِ على مغادرتك المستشفى سوى ليلة واحدة؟

وكان صرير الباب الخارجي آخر ما تناهى إلى سمعه لحظة اتخذ سبيله جنوباً.

آمل ألا تكون قد بكّرت اليوم في القدوم!

وصل إلى وادي الكلال، فاستدار يساراً مجتازاً الشريط الترابي الضيق حيث وقف فوق الجرف المرتفع ملقياً نظرة إلى الأسفل.

لا أثر لمخلوق.. كان خرير الماء وحده يُسمع، وثمة طائر قبّرة أطلق صرخة ثاقبة في انخطافه فوق رأسه نحو زرقة السماء.

انحدر بهدوء هابطاً الجرف محاذراً أن يجرح نفسه كما حصل معه آخر مرة. واستدار حول مخاضة المياه الخضراء العميقة ليقرفص في الجانب الآخر منها متخفّياً وسط شجيرات الطرفاء القميئة الممتدة في كل اتجاه.

ماذا لو لم تقدم اليوم؟

واستدار بعنقه إلى الخلف متطلّعاً، من فوق شجيرات الطرفاء القميئة، إلى الجرف الجنوبي البعيد للوادي.

لا أثر لمخلوق!

تلمّس الأرض الرملية الرطبة لحظات لتقع أنامله على حصاة. رفعها متأمّلاً جانبها الرطب قبل أن يلقيها جانباً.

وماذا لو قاومته؟

تذكّر طولها الفارع يوم التقاها قادمة بغسيلها من الكلال وفتْحها باب بيتها بركلة واحدة من قدمها.

من المؤكّد أنها قوية!.. ولكنْ أيعقل أن تفلح في صدّه؟

وجفل على صرير حصى يتردد تحت خطى شخص قادم في الجانب الآخر من شجيرات الطرفاء؛ فاشرأبّ بعنقه ليلمح خطفاً امرأة متلفعة بعباءتها وهي تنزل صينية أوعيتها على مبعدة أمتار منه.

قد لا تكون هي!

فكّر وقد أخذ وجيب قلبه بالتصاعد.

لم تكن خطته تحتمل التأجيل. لقد فكر بأدق تفاصيلها وهو راقد في المستشفى، يعدّ اللحظات في انتظار أن يأذن الدكتور قسطنطين له بالخروج.

كان الوقت أضيق من أن يبدده بالقلق؛ فقد تلتحق بها الأخريات في أية لحظة.

نضا عنه ثوبه مبقياً على لباسه الداخلي فقط. وزحف نحو الماء ليخوض فيه بهدوء. وانتابته رجفة غير مفهومة ليس بسبب الماء؛ فهو لم يكن بارداً!

توغّل في عمق المياه، وخاض فيها بصمت وقد انحرف يميناً ليحاذي الشاطئ حيث سيلتقيها عند الشريعة القائمة على مبعدة أمتار معدودة فقط.

حينما أدرك، من خلال صوت جلي المرأة لأوعيتها، أنه بات على مقربة منها غطس تحت الماء ليعوم بخفة سمكة في ذلك الاتجاه محاولاً جهده ألا يضيّع سبيله نحوها.

فتح عينيه وهو تحت الماء؛ فلمح كتلة معتمة فوق رأسه بمحاذاة الشاطئ لا شك أنها هي.. فاندفع بسرعة نحو الأعلى متنفّساً في اللحظة نفسها ملء صدره؛ فرآها على بُعْد أشبار وهي تحملق فيه بعينين صعقتهما المفاجأة، بيد أن ذلك لم يمنعها من أن تستعيد السيطرة على نفسها فتعمد إلى رفع القدر التي كانت منشغلة بجليها عالياً لتضربه بها على أم رأسه!!

غطس تحت الماء شاعراً برأسه ينزف؛ فضربة القدر كانت مؤلمة. لا شك أنها كانت قدراً نحاسية ثقيلة. خيّل إليه أنه موشك على أن يفقد وعيه؛ فعاود الاندفاع برأسه خارج الماء ليرى المرأة وقد وقفت متحفّزة بقدرها اللعينة، فانقضّ بيديه الاثنتين على ساقيها ممسكاً بهما بإحكام، ففقدت توازنها وانزلقت منهارة وسط المياه حادجة إياه بعينها الحولاء. لحظتها – وهو يحدّق بها عن قرب - تأكد أنها هي.. عدوّته هاجر.. فاستعر غضبه؛ فسارع بسحبها نحو عمق المخاضة مبعداً إياها عن الشاطئ، فغاصتْ هاجر تحت الماء، وجاهدت محاولة إخراج رأسها، حتى إذا ما نجحت شرِقتْ بالماء؛ فأخذت تسعل عامدة في الوقت نفسه إلى التشبث به بحركات هستيرية في محاولة يائسة منها للنجاة من الغرق شأن من لا يتقن السباحة..

نشبت أظفارها في وجهه ومن ثم في رقبته.. فدفعها بشراسة محاولاً إبعادها عنه، ولكن عبثاً؛ فقد بقيت متشبّثة به معانقة إياه بتصميم؛ فلم تجدِه محاولاته اليائسة للإفلات. كانا يتصارعان بصمت وسط طرطشة المياه من حولهما. وكانت هاجر، وقد أثقل ثوبُها المشبّع بالماء جسدَها وكبّل حركاتها، قد شرعت تغوص نحو الأعماق الخضر ساحبة معها نديم حتى أنه أحسّ بقدميه تمسّان طين القاع اللزج، ومعها شعر برغبة قاهرة في الصراخ جعلت حلقه يمتلئ بالماء الذي أخذ يتدفق من أنفه.

سيموت غرقاً أسوأ ميتة وقد عانقته عدوته!

وآمن أن نوبة الصرع آتية لا محالة؛ فركل هاجر بركبته في بطنها، ولم يحس بنفسه إلا وقد تحرر فجأة من قبضتيها المتشبثتين به؛ فاندفع نحو السطح.. اندفع بآخر رمق فيه ، حتى إذا ما لامس وجهه الهواء أطلق بكل كيانه ذلك العويل الذي طال احتباسه في صدره!

(إشارة)

استند الروائي إلى المصادر الآتية في الإلمام ببعض الأمور الواردة في هذه الرواية:

١ – المعجم الموسوعي في علم النفس (ستة أجزاء) نوربير سِلامي.

٢ – لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث – علي الوردي – الجزء الرابع.

٣ – تحقيق صحفي عن مستشفى الرشاد منشور على شبكة الأنترنت – عبد الحسين البريسم.

THAT WHICH HAS NOT BEEN TOUCHED BY FIRE

ما لم تمسسه النار

لم يكن ألماً ذلك لم يكن ألماً ذلك الذي أحسّ به... لا لم يكن ألماً، بل كان سحقاً لكل وجوده. كان، وهو يرتجّ على الطاولة بكل جسده، يسمع صوتاً حيوانياً - أدهشه أنه صوته! - يملأ عليه سمعه أقرب ما يكون إلى عويل.

كان يصرخ لا بفمه وحده، بل بكل كيانه.

ما الذي يحصل؟ أين هو على وجه التحديد؟

لم يحس، في اللحظة الأولى وقبل أن يسود الظلام، إلا ورأسه يشتعل بغتة كمن ضربته صاعقة تقلّصتْ بسببها عضلاته كلها وكأن جسده تهدّم إلى الداخل لتأخذه بعدها تشنّجات مخيفة جعلتْ جسده يتقوّس كأنه في سبيله إلى أن يثب عالياً لولا الملازم المربوطة إلى رسغيه وكاحليه والتي شدّته بإحكام إلى الطاولة.

حينما صحا أحس بأيدٍ ترفعه عن الطاولة لتمدده على نقّالة انطلقتْ به على وقع صرير عجلاتها المعدني لتدخل، بعد لحظات، إلى غرفة أخرى حيث الأيدي نفسها رفعته عنها لتضعه في سرير هذه المرة. وطوال تلك الرحلة القصيرة بين الغرفة والسرير كان يلمح وسط الفوضى المحيطة به امرأة رافلة بملابس سود تهرول إلى جانبه مكلّمة إيّاه بصوت هامس يقطر رقة وحناناً وهي تتطلع إليه بعينين تترقرق فيهما الدموع.

ترى من تكون هذه المرأة؟

سؤال خطر في ذهنه المشوّش قبل أن يستغرق في نوم طويل لم يصحُ منه إلا والليل قد خيّم؛ إذ إن مصابيح الغرفة كانت مضاءة.

ISBN 978-614-419-066-3